جثث
غير صالحة
للأكل
كلما أنَّ الشيطان من الظمأ،
ارتوى بنو آدم من دماء بعضهم البعض
محمد جابر

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أنوار

https://t.me/osn_osn

Scan me!

جثث غير صالحة للأكل

محمد جابر

مكتبة إيلينا
Elena book

كتب غير صالحة للأكل
المؤلف
محمد جابر

الترقيم الدولي: 2024-2607 رقم الإيداع: 978-977-9696-50-8

© جميع الحقوق محفوظة لدار ملاذ للنشر والتوزيع

دار ملاذ لا تتبنى أيا من الاراء الواردة في هذا الكتاب، ولا تقبل بإعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه
أو نقله أو تصويره، سواء كان مطبوعًا أم إلكترونيًا، ويُستثنى من ذلك ما كان متفقًا عليه
ومصدقًا عليه.

الطبعة الأولى: 2025

تصميم الغلاف:
حسن العربي

الإخراج الداخلي:
محمد عبد الغفور

تدقيق لغوي:
أسماء جمال فايد

المدير العام:
عمر عياد

[illegible]
01106990772
[illegible]

"إذا كانَ لا مَفرَّ مِنْ أذِيَّةِ أحدٍ، فَلْتُؤذِهِ بِقَسوَةٍ تُجعِلُك لا تَخشَى انْتِقَامَهُ."

أمِيرُ فَلْسَفَةِ الشَّيطَان"

نيكولو مكيافيللي

مَقتل الفرعون السيكوباتي!
الإسكندرية.. 15 يناير.. 1988م

" الوعد والمكتوب، نمشي سكك ودروب
ولا ينتهي المشوار
الوعد والمكتوب، نتعب ولا بنتوب
والليل في آخره نهار
الوعد والمكتوب، تقسي علينا قلوب
لا نخاف ولا نحتار".

ألقى هذا الطفلُ ببصرهِ ناحيةَ السماءِ من نافذةِ غرفتِهِ، فوجد القمرَ بدرًا في تمامهِ. شعر بألمٍ يعتصرُ قلبَهُ حينَ مرَّت على وجههِ تلك النسماتُ البَاردةُ لتُذكِّرَهُ بأحداثِ تلك الليلةِ، والتي مضى عليها أكثرُ من خمسةِ أعوام. تلكَ الليلةُ تُراودُهُ كضبعٍ أصابَهُ السُعارُ يريدُ الفتكَ به، ليلةٌ تلونَ فيها البدرُ بلونِ الدم.

تلكَ الليلةُ التي قررَ فيها أباهُ أنْ يذبحَ أمَّهُ أمامَ ناظريهِ، ثمَّ قامَ بتقطيعِ جُثَّتِها إلى قطعٍ صغيرةٍ من اللحمِ قبلَ أنْ يُخزِّنَها في المُجمِّدِ ليُطعِمَهُ إيَّاها هو وأشقاؤُهُ على مدارِ شهور.

تناهت إلى مسامعِهِ تلكَ الكلماتُ ممتزجةً بألحانٍ نوبيةٍ ساحرةٍ، فعلمَ مصدرَها على الفورِ. فتلكَ النغماتُ تترنَّحُ داخلَ غرفةِ والدهِ المُعتلِّ جسديًا، فهو يعلمُ كم أنَّ والدَهُ يعشقُ صوتَ أحمد منيب، فيُصيبُهُ بنشوةِ نوستالجيا ليسَ لها مثيلٌ، حتى أدمَنَ صوتَهُ هو الأخير.

نظرَ إلى ساعتِهِ الكاسيو الفضيةِ العتيقةِ فوجدَها الواحدةَ والنصفَ بعدَ منتصفِ الليلِ. غريبٌ هذا الأمرُ! فهي ليست عادةَ والدهِ أنْ يسهرَ لهذا الوقتِ من الليلِ!

شعرَ بهاجسٍ خوفٍ يدنو من صدرِهِ، مما جعلَ ضرباتِ قلبِهِ ترتعدُ. نهضَ من فوقِ فراشِهِ، وبخطواتٍ جامدةٍ تحرَّكَ خارجَ غرفتِهِ. البيتُ يُغلِّفُهُ الهدوءُ من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، لا صوتَ لأحدٍ، حتى أشقاؤُهُ انغمسوا في نومِهم، ملتهمينَ وجباتِ الملائكةِ في نهمٍ.

مضى إلى الرِّدهةِ المُظلمةِ مُتجهًا إلى غرفةِ أبيهِ ليرى لِمَ هو مستيقظٌ لهذا الوقتِ المتأخرِ من الليلِ! وما كادَ يصلُ إليها حتى تسمرت قدماهُ وأصابتهُ غصَّةٌ في حلقهِ، فقد وجدَ بابَ الغرفةِ مفتوحًا!

هو يعلمُ أنْ لا أحدَ يحرؤ أنْ يَدلفَ إلى غرفةِ أبيهِ بعدَ

التاسعةِ مساءً، وهو آخرُ موعدٍ يتناولُ فيهِ عشاءَهُ والدواءَ معًا، وهذه مهمةُ الخادمةِ. فمنْ تجرأُ يا تُرى ليدلفَ إليهِ في هذا الوقتِ من الليلِ، وهو يعلمُ أنَّهُ لا يقوى على الحراكِ حتى!

تقدَّمَ الطفلُ إلى الغرفةِ وقد ازدادت حدَّةُ ضرباتِ قلبهِ. دفعَ البابَ في هدوءٍ فأصدرَ صريرًا مُرعبًا. حملقَ في تعجُّبٍ عندما كشفَ البابُ عما وراءَهُ، فقد كانَ أبوهُ يجلسُ على مقعدِهِ المتحركِ أمامَ النافذةِ، وضوءُ القمرِ يتسلَّلُ بحريةٍ على أرضِ الغرفةِ الخشبيةِ.

صوتُ أحمد منيب اخترقَ أذنَيهِ، فنظرَ عن يمينِهِ، فوجدَ الصوتَ يدنو من كاسيتٍ أحمرَ عتيقٍ، فأشعرَهُ بالحيرةِ. فهذا الكاسيتُ يعلمُ أنَّهُ تالفٌ ولا يعملُ. بلعَ ريقَهُ بتوجُّسٍ وأردفَ بخفوتٍ:

- بابا، أنتَ لِسَّه صاحي؟!

لم يُجِبهُ الأبُ، بل حتى لم ينظرْ إليهِ. تعجَّبَ الطفلُ في قرارِ نفسِهِ، وازدَادَ معدَّلُ الخوفِ داخِلَهُ. ولكنْ لم يعلمْ لِمَ تمنَّ داخِلَهُ ألَّا يُجِيبَهُ ذلكَ الفرعونُ كما هو لقبُهُ بينَ أصحابِهِ، فهو يعلمُ أنْ لا يراهُ أحدٌ إلَّا ويخشَى النظرَ إليهِ. تمنَّى في قرارِ نفسِهِ ما هو أبشعُ، حتى تعجَّبَ منْها، فقد تمنَّى أنْ تنتهيَ مسيرةُ ذلكَ الفرعونِ نهايةً داميةً كما حدثَ لفرعونِ موسى، الذي لا سيَّما أنَّهمُ الشخصُ ذاتُهُ، ولكنْ كُلٌّ أتى في زمنٍ آخرَ.

فهو لن يغفر له تلك الأيام التي قضاها من دون أمه، لن يغفر له تلك الليالي الخوالي التي كان يرتعد فيها بسبب تلك الكوابيس اللعينة التي تطارده، وتنتهي باستيقاظه فزعًا ليجد نفسه قد بالَ في سرواله. لن يغفر لهذا السفاح الذي عاش معه لسنواتٍ في رعبٍ، والذي يريد أنْ يمحي كنيته كونه أباه. فهذا الشيطان جرّده من الحياة ومعانيها وأيضًا حنانها، الذي لم يذق منه إلا القليل... أمه.

نبتت ذراتُ العرقِ فوقِ جبينه وأخذ يقترب من مقعد أبيه. كرر مناداته ثانيةً، ولكن جاء الردُّ صمتًا مبهمًا كما كان. تمنى أن يستيقظ أحدٌ من أشقائه أو خادمته، أيُّ أحدٍ ينتشله من هذا الموقف اللعين. نظر خلفه فلم يجد إلا الخواء.

أخذ شهيقًا ملأ به صدره، فشعر ببعض السكينة. تقدم مرة أخرى حتى لاح أمام ناظريه أخدود عميق يشق جانب وجه أبيه الأيسر ممتدًا من شحمة أذنه حتى فمه. فهو يتذكر جيدًا ذلك اليوم، إذ قص عليه والده أنه تعرض لهجمة شرسة من صقر بري من نوع الشاهين في معركة دامية مباغتة أسفرت

عن ذلك الأخدود الذي زين وجه والده لسنوات. فهو يعلم كم أن أباه مهووس بتربية الجوارح، ويملك مزرعة بها عدد لا بأس به من هذا النوع الدامي من الطيور.

تقدم مرة أخرى وأخيرة ليقف أمام أبيه مصوبًا بصره إليه بنظرات مرتعشة. وما أن استقرت قدماه أمامه، حتى اتسعت عيناه وانفجرت مثانته رغمًا عنه، فغرق سرواله القطني حين لمح بقعة من الدماء تزين صدر أبيه، وفي منتصفها غُرز سكين عن آخره حتى هشّم ضلوعه.

لم يدرِ ماذا يفعل! انتابته حالة من الشلل المؤقت. جال ببصره بين أركان الغرفة إلى أن اصطدمت عيناه بالحافظ الزجاجي الذي يقبع بجانب خزينة أبيه. إنه فارغ!

لقد سُرق قناع الصقر الذهبي المُطعّم بالألماس، والذي يعد إرثًا عريقًا له أصل فرعونيَ. ورثه أبوه عن أجداده على حد قوله، وكان يحتفظ به داخل حافظ زجاجي ممنوع على أي بشري الاقتراب منه. حدثه دائمًا عن أهمية ذلك القناع، وأنه إرثه الوحيد وحمايته من شرور هذا العالم السوداوي اللعين. وها هو قد سُرق وسُرقت معه أحلامه!

ازدرد لعابه مشدوهًا، غير مصدق، وحوّل نظره إلى جثة أبيه. ومن دون إرادة وجد أطرافه المرتعشة تدنو ناحية مقبض السكين، ثم أمسك بها ومن دون تردد شحذها بقوة إلى الخارج، فانفجر في وجهه سيل من الدماء، وكأن أباه يعاقبه مرة أخرى وأخيرة حتى بعد موته.

وما أن رفع السكين لأعلى يتأملها، حتى تناهى إليه صوت عقعقة صقر يصرخ في غسق الليل. هام به فور سماعه ولم ينتبه إلى زُفيدة، شقيقته الكبرى، التي وقفت على باب الغرفة تتأمله واضعة يدها فوق فمها، محملقة في ذعر.

وما أن انتبه إليها حتى ألقى السكين أرضًا وتراجع مفزوعًا. فصرخت زُفيدة صرخة أيقظت شياطين جهنم:

- مستحيل! إيه اللي عملته ده؟! قتلت بابا يا يحيى!

هزّ يحيى رأسه نافيًا أنه لم يفعلها. ولكن زُفيدة أخذت صرخاتها تشق جدران الليل، وقد اختلط صوت النحيب والآهات والصراخات بصوت منيب العذب، والذي مالت على أثره أغصان الأشجار أسفل بدرهم في شجون.

" الوعد والمكتوب، تقسى علينا قلوب
لا نخاف ولا نحتار"

الفصل الأول

" كلما كان الشيطان يئن من الظمأ، كلما ارتوى بنو آدم بدماء بعضهم البعض ".

سيمفونية القتل الأسود
الإسكندرية.. 2010م

التفتوا إلى بعضهم البعض في توجس، ودقات قلبهم تتسارع وهم ينظرون إلى طبيبهم الذي التمعت عيناه أمام جسد الفتاة المُسجّى أمامه. وقد اتصل به عدد لا بأس به من الأسلاك التي اخترقته،ألقى الطبيب نظرة أخيرة على شاشة تشير إلى معدل ضربات القلب حتى هزّ رأسه وابتسم بخبث من خلف كمامته الطبية. وقبل أن يبدأ، ارتدى سماعات أذنيه ونقر على هاتفه، فتخللت إلى أذنيه ألحان نوبية براقة. أشار لإحدى مساعديه بكفه الأيمن، فعلى الفور أعطته مشرطًا صغيرًا. تأمله للحظات وهو يحركه بين أصابعه، ثم داعب بأنامله خصلات شعر الفتاة-الكستنائي قبل أن يدبّ المشرط في جسدها دون شفقة، وتتناثر على وجهه ذرات الدماء.

بعد مرور ثلاث ساعات..

خرج الطبيب من غرفة العمليات بمعطفه الطبي ناصع البياض، مُنمق الهيئة، وعلى وجهه ابتسامة بشوشة أطلقها فور ما هرول إليه والدا الفتاة للاطمئنان عليها. هزّ رأسه بهدوء وعدّل من وضع نظارته الطبية وأردف بنبرة مُطمئنة:

- متقلقوش، الحمد لله العملية عدت على خير، ربنا يخليهالكم.

بكت والدة الفتاة من فرحتها، وأطلقت عبارة امتنان بطريقة تنم عن بساطتها وثقافتها الريفية:

- الحمد لله، ألف حمد وشكر ليك يا رب. شالله يخليك يا دكتور، نذرًا عليّا لأجبلك حاجة حلوة من البلد عندينا. حلاوة قوم بنتي شكر بالسلامة.

ابتسم الطبيب وأردف مُداعبًا إياها:

- لا حيث كدة بقى يبقى ليا عزومة عندكم في البلد.

- بس كده، ده أنت تؤمر يا دَكتور. عنينا ليك، اللي عملته معانا مش شوية وجميلك فوق رأسنا.

أطلقها والد الفتاة بلهجة ريفية بسيطة، فابتسم الطبيب وربّت على كتفه قائلًا:

- ولا جمايل ولا حاجة يا حاج. دي عملية بسيطة وبعدين الحمد لله إننا لحقنا الزايدة قبل ما تنفجر. ربنا يخليها لكم ويحفظها لكم. عن إذنكم.

- هي هتفوق إمتى يا دَكتور؟!

تسأل الأب بقلق، فأجاب الطبيب:

- هتتنقل غرفة رعاية، وإن شاء الله خلال ساعات بس مفعول البنج يروح، وتقدروا تطمنوا عليها. أنا بس كنت عايز أسألكم على حاجة كده؟

- خير يا دَكتور، بنتي فيها حاجة؟!

- لا يا حاجة، هي بخير. أنا بس عايز أسألكم: هي كانت بتشتكي من أي تعب في الكلى؟ يعني عمرها ما اشتكت بجنبها مثلًا؟ حست بألم مثلًا في المثانة؟

أجاب الأب:

- لا والله يا دَكتور، عمرها ما اشتكت من حاجة زي كده. دي شكر بنتي طول عمرها محافظة على صحتها. يمكن هو بس موضوع الزايدة ده اللي جهِ مرة واحدة وخضّنا عليها.

- غريبة دي!

انتاب القلق قلب الأم وتساءلت:

- إيه الغريب يا دَكتور؟ ما تطمنا والنبي، بنتي شكر فيها حاجة؟!

- الحقيقة مش عارف أجبها لكم إزاي، بس إحنا لقينا الكلى اليمين فيها حصوات كتير جدًا ولونها متغير، وعملنا استئصال لها فورًا.. ده حفاظًا على روح بنتكم طبعًا. متخافوش، هتقدر تعيش بكلى واحدة عادي، مفيش أي ضرر.

- يعني هتعيش يا دَكتور؟!

قالها الأب، فضحك الطبيب مطمئنًا إياه:

- أكيد هتعيش، يا راجل يا طيب. احمد ربنا، أنا نجدتك من موال كنت داخل عليه، ربنا سترها معاك.

- الحمد لله، ألف حمد وشكر ليك يارب.

- أنا بس طالب منكم محدش يعرف بموضوع الكلى دي، لا حد من المستشفى هنا ولا حتى بنتكم نفسها.. هي كلها ساعات وهتقوم بالسلامة إن شاء الله.. مفهوم؟

نظر والدا الفتاة إلى بعضهما البعض بقلق، فأجابت الأم:

- مفهوم يا دَكتور.. شالله يخليك ويبارك في ولادك يارب.

ما أن قالتها والدة الفتاة حتى امتعض وجه الطبيب، وانتابته غصة في حلقه، وهزّ رأسه بابتسامة مُمتزجة بأسى:

- يارب.. عن إذنكم.

دلف الطبيب إلى غرفته، ثم ألقى بجسده على مقعده، وقد أحاط وجهه بكفيه مُداعبًا لحيته الشقراء. أخرج هاتفه من جيب معطفه وقام بالنقر على رقم ما. لحظات وأجاب

الطرف الآخر محييًا الطبيب، الذي قام بقطع التحية بنبرة صارمة:

- عملت إيه في الكلى بتاعة البنت؟!

أجاب الطرف الآخر:

- متقلقش يا دكتور، كله تحت السيطرة.

- حسك عينك حد يلمحك.. الكلي تخرج من المستشفى من غير ما حد يحس.

- عيب يا دكتور، أنت أول مرة تجربني؟!.. متنساش تحلّي بوقي.

عيب يا دكتور، أنت أول مرة تجربني؟!.. متنساش تحلّي بوقي.

- انت هتقولي؟ وهي شغلانة الأمن دي جايبة همها! بعد ساعة هتقابلني عند جراج المستشفى تسلمني كلّى البنت وتاخد حقك.. قسمًا بالله يا مسعود لو حد لمحك لهيكون آخر يوم ليك في عمرك، وهخلي مراتك وعيالك يصلوا جنازة عليك الصبح.. سلام.

أغلق الطبيب الخط وألقى بهاتفه على سطح المكتب، ثم أراح رأسه على مقعده وأغمض عينيه وهو يتذكر جملة تلك السيدة وهي تدعو بالبركة لأولاده. لحظات مرت عليه كالدهر كاد يُصفي فيها ذهنه، إلا أن قطع صفوه رنة من هاتفه، فأمسكه بكسل ولا مبالاة، ولكن ما أن رأى اسم المتصل، حتى تأهب وعض على شفتيه في ضجر، وزفر بخنق، وكاد يغلق الهاتف، إلى أن في الأخير أجاب دون أن يتفوه بكلمة، حتى أتى صوت الطرف الآخر:

- عارف لو مكنتش رديت المرة دي.. كنت هنفذ أنا بدل ما أنت مش عايز تنفذ.

أجاب الطبيب بغضب بالغ:

- قولت لك مش هقدر، مش هقدر، أنت مبتفهمش!!.. دول مراتي وعيالي، أنت حصلك حاجة في دماغك!

- مش شغلتي يا حبيبي، دي تعليمات البوص الكبير، وبعدين ده ثمن خيانتك.

- أنا مش هقدر يا مليجي، مش هقدر، أنت فاهم أنت عايزيني أعمل إيه!!!

- خلص الكلام يا دَكترة.. الناهية.. هما يومين وتنفذ وتصور اللي هيحصل صوت وصورة، ولو عدوا اليومين ومفيش جديد.. الثمن هيبقى رقبتك يا يحيى، سامعني؟ الثمن رقبتك.

سلام يا دَكترة.

أغلق يحيى الهاتف وألقاه بقوة أرضًا، ثم اعتصر قبضتيه بغضب واحتقن وجهه، واشتعلت رأسه بحمم بركانية أحرقت أروقة عقله وجعلته ينظر في مقامرة بين مصيره ومصير عائلته، وحتمًا عليه الاختيار وإلا.

*****

بعد ساعتين (الساعة التاسعة مساءً)

تنفس يحيى الصعداء فور ما خرج من باب المشفى، لفحت وجهه نسمات فبراير الباردة. رفع رأسه ناظرًا إلى السماء يتأمل القمر الثلجي الذي لاحت ملامحه بين السحب البيضاء كالمرآة لتذكره بطفولته المأساوية التي طالما أراد أن يمحوها من ذاكرته وبشعل النيران فيها كأوراق مهترئة أكلتها الفئران، ولكنه لم يستطع.

تقدم بخطوات مُسرعة ناحية الجراج وهو يضم معطفه الصوفي على صدره. لمحه عم عبده حارس الجراج، ذلك الرجل الستيني القعيد، فهرول إليه وأخذ منه مفتاح السيارة، وسرعان ما خرج بها ليقف أمام يحيى الذي حياه برأسه ممتنًا، ثم أخرج من جيب معطفه ثلاث ورقات فئة المئة جنيه وأعطاها إليه، الذي تهلل وجهه وأخذ يدعو ليحيى وكاد يُصاب بسكتة قلبية، إلا أنه في الأخير تماسك.

نظر إليه يحيى من خلف النافذة الزجاجية وابتسم قبل أن ينطلق بسيارته إلى المكان المنشود حيث ينتظره مسعود هناك.

وفي شارع جانبيّ مظلم يقع بعد جراج المشفى بحوالي خمس عشرة مترًا، لاح أمام يحيى جسد مسعود النحيل وهو يستند بظهره على جذع شجرة ويحمل حقيبة ثلجية (آيس باج) تحفظ كلى الفتاة. ما أن لمح سيارة يحيى حتى همّ إليه بخطوات مُسرعة وأعطاه الحقيبة من النافذة، وسرعان ما بادله يحيى بحقيبة أخرى سوداء مُردفًا بصوت خافت:

- ده حسابك وحساب الممرضين اللي كانوا معايا في العملية، هه.. حدد معاهم ميعاد عشان تدي كل واحد حقه.. عارف يا مسعود، الفلوس لو موصلتش ليهم هعمل فيك إيه؟!

أجاب مسعود وهو يُلقي بعقب سيجاره قبل أن يسحب نفسًا أخيرًا وهو يلتقط الحقيبة بلهفة:

- عيب يا دكتور، مش أنا اللي أدخل على عيالي فلوس حرام.

- طول عمرك تقي وبتعرف ربنا انت يا مسعود.
ضحك مسعود مُردفًا:
- من بعض ما عندكم يا دكتور.
- أخفى الشنطة يالّا، وخف نفسك، وعلى الله حد يلمحك.
وفي أقل من طرفة عين كان مسعود قد اختفى بين فجوات الظلام، وانطلق يحيى بسيارته قاصدًا طريقه إلى البيت.
وفي منتصف الطريق، ضرب جرس هاتفه فوجد اسم داليا، زوجته، يُزين الشاشة. زفر متأففًا وأجاب بنفاذ صبر، مُتصنعًا التودد:
- إيه يا حبيبتي.. معلش اتأخرت عشان كان عندي عملية، أكيد مكنتش في دريم بارك.
أجابت داليا معاتبة إياه:
- أنت ليك عين تهزر، يا يحيى؟ أنت مش عارف إن النهارده عيد ميلاد حليم ابنك وكل الناس جت.
- عائلة دكتور أيوب وصلوا ولا لسة؟!
- لا، لسة. كلمتهم، تليفوناتهم غير متاحة، جرب أنت كده وأنجز، يا يحيى. حرام عليك، أنا بقيت في نص هدومي.
- خلاص يا ستي، في الطريق أهو.. ما إحنا عيشنا طول عمرنا من غير أعياد ميلاد.. عيد ميلاد إيه وزفت إيه بس؟
- أنا بجد زهقت من طريقتك دي.. كل شوية عصبية وزعيق، للدرجة دي إحنا مبقنا.....
لم يتحمل يحيى ثرثرة زوجته المعتادة وأغلق المحادثة في وجهها، ثم ألقى الهاتف على المقعد بجواره، وأخرج غضبه في زيادة سرعة السيارة، مُزمجرًا.

*****

(الساعة العاشرة مساءً)
انحرف الدكتور أيوب بسيارته إلى الطريق المختصر الذي رشحه له يحيى من خلال مكالمة هاتفية أجراها معه صباحًا، طريق يغلفه الليل بطبقة من الظلام الحالك، لا يصل إلى أروقته حتى ضوء القمر، فقد حجبته تلك الأشجار التي تغلغلت على حواف ذلك الطريق. الأمر أشبه بغابة مهجورة أكثر من كونه طريقًا مختصرًا لإحدى الطرق العامة. بين حين وآخر، يُصدر صوت عواء لذئب آتٍ من براثن تلك الغابة الموحشة، فترتعد زوجة دكتور أيوب وأطفاله مذعورين.
دكتور أيوب هو رجل خمسيني واستشاري مخ وأعصاب

شهير، صديق والد داليا، الطبيب النفسي الشهير عبد الدايم الحلواني، وصديق مقرب للعائلة، وقد ساعد يحيى كثيرًا في بداية رحلته كطبيب جراح.

حاول دكتور أيوب مرارًا إجراء عدة اتصالات بيحيى، ولكن هذا المكان اللعين لم تصله أي شبكة. زجرته ناهد، زوجته، على مسلكه لهذا الطريق الوعر وانهيار أطفاله ذُعرًا. طحن دكتور أيوب أسنانه وصرخ في وجه زوجته أن تصمت، وبينما هو يسير بالسيارة على سرعة أقل من سرعة السلحفاة، وإذ فجأة تناهى إلى مسامعه صوت انفجار، فارتعد الجميع، وحملق هو في فزع. هو يعلم ما سبب هذا الانفجار، إنه صوت انفجار إطار سيارة، وليست أي سيارة، إنها سيارته.

صرخات مفزعة خرجت من حناجر أطفال دكتور أيوب الثلاثة، حاول تهدئتهم جميعًا، إلا أن الأمور خرجت من بين يديه. انطلقت أصوات أعواء قوية من كل حدب وصوب، خفق قلب دكتور أيوب ونبتت ذرات العرق فوق صلعته، وصراخ ناهد زوجته يخترق أذنيه باكية:

- خرجنا من هنا يا أيوب، هنموت.. قلت لك بلاش تسمع كلام يحيى ده.. هنموت هنا يا أيوب.

انفجر دكتور أيوب في وجهها مُهدئًا:

- ممكن تهدئي بقى عشان أشوف هتصرف إزاي.. متخافوش يا حبايبي، بابا هيطلعكم من هنا.

قالها وهو يخلع حزام الأمان من فوق خصره، ثم ترجل من السيارة وكل ذرة في جسده ترتجف من شدة الخوف. ازدرَد لعابه وقد بلل العرق قميصه، التفت يمينًا ويسارًا بحثًا عن أحد ينتشله من مصيبته، ولكن وجد ما يؤنسه ويجيب عليه هو صوت عواء الذئاب.

التقطت أذناه صوتًا من بين براثن الأشجار، وكأن أحدهم يعبث بهشيم ورق الأشجار. ضيق عيناه وتحرك نحو مصدر الصوت بخطوات متجمدة، أخرج هاتفه من جيب سرواله وأضاء كشافه لينير له الطريق. لمحت عيناه مجسمًا لرجل يقف في وسط العتمة. توقفت قدماه عن السير، وتساءل بتوجس وهو يخطو بعض خطوات تجاهه:

- لو سمحت، ممكن مساعدة؟

لم يجبه الرجل، ولم ينبس بأي كلمة. حرك الإضاءة نحوه فوجد جسدًا ضخمًا، على رأسه شيء ما غير واضح، يقف موجهاً ظهره إليه. ملابسه بالية مهترئة، يخرج من حلقه صوت أشبه بزمجرة ضبع يتأهب للانقضاض على فريسته.

تساءل دكتور أيوب مرة أخرى وهو يخطو إلى الخلف بخطوات حذرة:

- ممكن حضرتك تساعدني؟.. أنا توهت أنا ومراتي وعيالي ودخلنا المكان ده غلط.. ممكن تساعدني أخرج من هنا؟

لم يتلقَ إجابة أيضًا، ولكن ما كان يهم أيوب بالعودة حتى لاحظ شيئًا ما يقطن بجانب القدم اليمنى لهذا الرجل. فقد وجد ما جعله يحملق في ذعر وهمّ بالعودة مهرولًا. فما وجده دكتور أيوب هو جثة، جثة لذئب أشلاؤه خارجة، بُقرت بطنه وقد فُصلت رأسه عن جسده بوحشية.

وما كاد يهرول دكتور أيوب حتى التقطت أذناه صوت زمجرة منشار كهربائي، فالتفت خلفه حتى وجد ذلك الرجل يدنو منه بأقصى سرعة متجهًا بالمنشار نحو عنقه.

مرت الدقائق على ناهد وأطفالها داخل السيارة كأنها باغٌ من الزمن، وبين خوف وهلع ومصير محكوم عليه بالموت، أتتهم الإجابة بلا سابق إنذار، فقد أُلقيت من وسط أهداب الظلام رأس دكتور أيوب على لوح الزجاج الأمامي للسيارة. ومن خلفها، على بُعد أمتار، وقف ذلك الرجل بمنشاره الكهربائي، يرتدي قناع صقر مصنوعًا بدقة من جلود آدمية.

صرخت ناهد وأطفالها وانتابهم حالة من الهلع، فقدت نور، الطفلة الأصغر، وعيها عندما رأت رأس والدها أمامها. ترجلت ناهد من السيارة مسرعة تاركة أطفالها خلفها. عاقبها اثنان من أطفالها وقد تركوا نور بمفردها داخل السيارة.

ظلوا يركضون وسط الظلام، وبين حين وآخر تتساقط أجسادهم من شدة الخوف، يتقدم نحوهم ذو المنشار الكهربائي والقناع الصقري المشوّه. لاح أمام حازم، ابنها الأكبر، كوخ خشبي يقع على تلة عالية. أمسك بذراع والدته وشقيقته زينة، تذكر نور كيف نسوا أمرها! كاد يهم بالعودة إليها، ولكنه وجد ظل الرجل يتقدم نحوهم. صعدوا التلة العالية وهرولوا ناحية الكوخ الخشبي.

ظل حازم يطرق الباب بقوة، ولكن لم يتلقَ إجابة. صرخت ناهد مرتعدة:

- افتحوا، الحقونا!!!!.. هنموت.. في حد عايز يقتلنا.. لو سمحتم افتحوا لنا!!!!!

انهارت كلٌ من ناهد وزينة ولم تقويا على الحراك، ولم يعلم حازم، ذلك الطفل البالغ من العمر عشر سنوات، ماذا عليه أن يفعل! نظر إلى والدته وشقيقته في شفقة، ثم لاح أمامه ظل الرجل وهو يحمل المنشار الكهربائي. اتجه ناحية الباب وظل

يضربه بكلتا قدميه. الرجل يتقدم، وصوت المنشار يقترب منهم. خطوة للخلف مرة أخرى من حازم، وسرعان ما ضرب الباب ضربة جعلته لا يصمد تلك المرة. صرخ حازم فيهم كي يدلفوا إلى الداخل بسرعة. مسافة ضئيلة بينهم وبين ذلك السفاح، ولكن ما أن دلفوا إلى الداخل حتى أغلق حازم الباب بقوة وأوصده بأريكة صغيرة حركها نحوه وتراجع مذعورًا وصوت المنشار يقترب من الباب.

ظن أنه نجا، ولكن باءت خطة الصغير بالفشل، وما هي إلا ثوانٍ وشق منشار الرجل الصقري الباب إلى شطرين. نظر إليهم من خلف قناعه وهو يبتسم ابتسامته الخبيثة، ثم أدار محرك المنشار متجهًا نحوهم.

بعد نصف ساعة..

جلس الثلاثة، كلٌ من ناهد وزينة وحازم، على مقاعد خشبية مُكبلين. الدماء في كل مكان. نظرت ناهد من بين دموعها إلى صغارها الذين تحولوا إلى جُثث وأشلاء صغيرة وقد فُصلت رؤوسهم عن أجسادهم. أخذ صاحب القناع الصقري الجلدي يضع أعضائهم في حقيبة ثلجية بانتظام.

أرادت أن تصرخ، ولكن الاصق الذي وُضع على فمها منعها من ذلك، أنهارت باكية، فنظر لها الرجل بعينين باردتين من خلف قناعه، وهز رأسه في شفقة، ثم إتجه إلى هاتف خلوي قد ثبته على طاولة خشبية وقام بتصوير ما حدث صوتًا وصورة، تأكد من أن مُشغل الفيديو مازال على قيد التشغيل، ثم التفت إلى ناهد واقترب نحوها بخطوات هادئة، حرك أنامله على وجنتيها بنعومة، وأردف بصوت أجش:

- البقاء لله في عيالك.. بحب أوي لحم العيال الصغيرة.. أما انتِ يا حلوة بقى فأنتِ هتموتي موتة حنينة شوية. متخافيش، الموضوع كله شكة دبوس.

قالها صاحب القناع الصقري وأخرج من جيب سرواله آلة حادة. تأملها للحظة ثم أمرها أن تُخرج لسانها خارج فمها مردفًا:

- صوت صراخك أزعجني أوي... وأنا ما بحبش الدوشة، عشان كده لازم تتعاقبي يا قمر انتِ.

وما أن قالها حتى أمسك لسانها بقوة بسبابته وإبهامه وشقه بتلك الآلة من المنتصف، حتى انفلق لنصفين وأصبح كألسنة الأفاعي. ودون سابق إنذار باغتها بضربة من تلك الآلة في عينيها اليمنى، فأصدرت صرخات أشبه بالفحيح.

أغرقت الدماء ملابسها بالكامل، وكادت تفقد وعيها الا أنه

باغتها قائلًا:

- لا لا أنا عايز أقتلك وأنتِ لسه فيكي روح.. يلا يا حبيبتي، بصة أخيرة ليا.. بصة أخيرة لملك الموت.

ولم يُمهلها الوقت، فما إن قالها حتى أدار محرك المنشار الكهربائي واخترق به صدرها من المنتصف، لتلفظ أنفاسها الأخيرة.

وما إن انتهى الرجل ذو القناع الصقري من نقل أعضاء ناهد إلى الحقيبة الثلجية، حتى خلع قفازيه وقناعه الصقري الملطخ بالدماء. ثم اتجه ناحية كاميرا هاتفه، وكشف عن هويته، وأشار إلى الجثث بحركة مهرج تنم عن انتهاء فقرته المسرحية المُبهرة المعتادة.

أغلق هاتفه، ونظف قناعه من آثار دماء ضحاياه، وصفف شعره ولحيته الشقراء. ثم أمسك الحقيبة في يد والمنشار في اليد الأخرى، وما كاد يهم بالخروج حتى أتاه صوت ناعم من خلفه جعله يحملق في ذُعر:

- أونكل يحيى!!

التفت بفزع، فوجد أمامه طفلة صغيرة تبلغ من العمر خمس سنوات، بوجه ملائكي، وشعر أشقر انسدل فوق كتفيها. كانت تنظر إليه مُحتضنة عروستها القطنية، وقالت ببراءة:

- أونكل يحيي.. بابا وماما سابوني هنا ومشيوا.. ممكن تودیني ليهم؟

بلع يحيى ريقه غير مصدق، إنها نورا! كيف تاهت تلك الصغيرة عن خطته؟! خفق قلبه، ووضع الحقيبة أرضًا، ثم أدار رأسه نحوها وابتسم قائلاً بصوت دافئ مطمئنًا إياها:

- بس كده.. حاضر يا حبيبتي متخافيش هوديكي ليهم حالًا.

وما إن أطلقها يحيى حتى أدار محرك المنشار الكهربائي، فأصدر صوتًا أرعبها. ثم تقدم نحوها مبتسمًا، بابتسامة تكشر عن أنيابه.

جريمة أخرى!
داخل أحد الأجهزة الأمنية السرية... (السابعة صباحًا)

دبت الأقدام بقوة داخل الجهاز. حالة من الهرج والمرج، هناك حدث جلل قد وقع لتوه، واجتمع القادة على أثره. فقد تم إيجاد ثلاث جُثث ملقاة على الطريق الساحلي الصحراوي: إحداها لامرأة في العقد الرابع من عمرها، والأخريان لطفلين، ولد وبنت، تتراوح أعمارهما بين خمس وعشر سنوات. كانت أجسادهم قد بُترت بوحشية دامية، ولكن العجيب أن تلك الجثث بدون أعضاء، وكأن أعضاءهم قد ألتهمت من قبل أحد الحيوانات الضارية، أو إنها قد شرقت!

دلف إلى قاعة الاجتماعاَت اللواء منصور، تبعه عدد من القادة، وكان آخر من دخل القاعة العقيد الجزيري.

جلس الجميع، عدا العقيد الجزيري، الذي وقف عند شاشة صماء ينتظر الإشارة من اللواء منصور للبدء. عدّل اللواء وضع جلسته وزفر في خنق، محاولاً التغلب على النعاس الذي غلب عليه، ثم أشار إلى العقيد الجزيري ليبدأ.

ضغط الجزيري على زر، فتسلطت أشعة بيضاء من جهاز العرض المثبّت أعلى رؤوسهم على الشاشة. وبدأ العقيد الحديث بنبرة عسكرية صارمة:

- طبعًا اللي حصل مكنش ينفع نستنى عليه ساعة واحدة كمان.. تم إيجاد ثلاث جثث على طريق إسكندرية مطروح.. وزي ما حضراتكم شايفين، الجثث في حالة صعبة جدًا، إحنا في ظرف شهرين حصلت سبع جرائم قتل، وده عدد مش هين أبدًا... الغريب يا فندم أن كل الضحايا ماتوا بنفس الطريقة البشعة دي، ومن الواضح أن القاتل بيستخدم آلة قوية لبتر الجثث بالمنظر ده.

حمحم المقدم تامر متسائلًا في كبرياء:

- وسيادتك توصلت لنوع الآله دي ولا ده تخمين!؟

أدار الجميع رؤوسهم باتجاهه، وضغط الجزيري على أسنانه كاظمًا غيظه. لكن نظرة واحدة من اللواء منصور إلى المقدم تامر ألجمته وجعلته يتحاشى النظر إليه. ثم أردف اللواء بنبرة صارمة:

- كمل يا جزيري.

- اللي مخليني يا فندم متأكد إن الجثث تم بترها بآله حادة

هو إن حواف الأجسام فيها نتوءات قوية بتوضح أن الجثث أتقطعت بمنشار أو ما شابه، وده دليل قاطع أن اللي بيحصل ده يخلينا نقول إننا بصدد سفاح وتاجر أعضاء بشرية.. لأن جميع الجثث من غير أعضاء سيادتك.

هز اللواء منصور رأسه متفهمًا ثم أردف:

- هممم... معلومة مهمة دي يا جزيري.. وده اللي لازم نبدأ به.. أنا عايز التحريات تشتغل على جماعات سرقة الأعضاء.. الموضوع مبقاش هين وزاد أوي الفترة دي .

أراح المقدم أنور ظهره وهو يعبث بقلمه المعدني، ثم تحدث إلى اللواء منصور:

- مظبوط كلام سيادتك يا فندم. ده أنا خايف أطلع الولاد من البيت... موضوع سرقة الأعضاء بقى أمر سهل. وحضرتك شفت اللي حصل السنة اللي فاتت في أطفال الشوارع... كنا كل يومين نلاقي عيل مقتول وأعضاؤه متاخده.

هز اللواء منصور رأسه وهو يزفر بضجر، إلى أن أردف الجزيري:

- سيادتك في حاجة كمان مهمة لقيناها في الجثث، وهي نفس الحاجة اللي بنلاقيها كل مرة وملهاش أي دليل واضح!

- حاجة إيه ياجزيري؟!

بضغطة زر واحدة أنتقل المقدم الجزيري إلى صورة أخرى، فحملقت العيون وانتصبت الآذان مُنصتة:

- الورقة دي بنلاقيها جوه فم كل الضحايا اللي وجدناهم.. ورقة مكتوبة بالدم، وأظن واضح الاسم أمام سيادتكم.

- الصقر الأسود!!!

نطق بها المقدم تامر متعجبًا، إلى أن أردف اللواء منصور:

- وده معناه إيه يا جزيري؟! إن السفاح يعني بيعرفنا بلقبه الصقر الأسود!!

- مظبوط سيادتك، وللأسف مفيش أي دليل إدانة واضح يخلينا نتتبع الشخص ده.

- ولا هتلاقي!

أطلقها أنور ثم أضاف:

- إحنا قدام سفاح مش سهل.. قاتل هو عارف بيعمل إيه كويس. قتل سبعة أشخاص في ظرف شهرين.. أكيد أخذ حذره، وممكن كمان يكون بيخطط للجريمة اللي بعدها.

أغمض اللواء منصور عينيه، معتصرًا إياهما بقوة، مقاومًا إرهاقًا بدا على مُقلتيه، ثم قال:

- طيب عشان بس إحنا مقدمناش وقت.. أنا قبل ما أجي تواصل معايا السيد مساعد وزير الداخلية.. بيبلغني أن سيادة الوزير علم بالأمر ومستاء جدًا وأصدر القرار.

صمت الجميع، منتظرين في ترقب ما سيلقيه اللواء منصور في صدورهم، فقال مفجرًا ألغامه في وجوههم:

- قدامنا 72ساعة ويكون السفاح ده مقبوض عليه.. وأنت يا جزيري شوف مين اللي هيمسك القضية، أنا عايز ضابط كُفء.. ضابط مجبتهوش ولادة.

نظر كلاً من أنور وتامر إلى بعضهما البعض غير مصدقين أن الاختيار لم يقع عليهما! إلى أن قال العقيد الجزيري:

- هو في يافندم حد أنا برشحه بشدة للقضية دي وعلى ضمانتي.

- مين؟!

صمت الجزيري للحظات، ثم أردف:

- الرائد علاء الشرقاوي

ابتسامة سخرية زينت وجه المقدم تامر دون أن يلاحظها أحد، ثم تساءل اللواء منصور مستفسرًا:

- ده ابن العميد ممدوح الشرقاوي!!

- مظبوط سيادتك.

- أبوه كان دفعتي، الله يرحمه، ومن أنظف الناس اللي الواحد قابلهم في حياته، غير أنه كان الكل بيهابه وبيعمل له حساب.. خلاص على خير الله. أنا استبشرت بالولد ده. أعرضه عليّ، ونشوف هيطلع لأبوه ولا هيتركن زي البهوات.

طأطأ كل من المقدم أنور والمقدم تامر رؤوسهما، بينما أنهى اللواء منصور الاجتماع، متمنيًا في ذاته قيلولة صغيرة يستعيد بها نشاطه.

بينما لملم العقيد الجزيري أغراضه، أمر المقدم أنور باستدعاء الرائد علاء على الفور، فأردف المقدم أنور:

- بس ده في رحلة في سيوة مع مراته وعياله يا فندم!

نظر إليه الجزيري بصرامة بالغة قائلًا:

- أنا كلامي واضح.. قولت استدعيه فورًا يا أنور.. فورًا

فهب المقدم أنور خارجًا من القاعة لتلبية الأمر، تبعه تامر وهو يسخر من تولي الرائد علاء الشرقاوي زمام القضية، وفي نظره هو الأحق بها!.

*****

الساعة 7:30 صباحًا..

في غرفة أطليت جدرانها بالأسود الفاحم، خشي شعاع الشمس من الولوج إلى أرضها الخشبية، فاحت من أركانها رائحة العنبر الأبيض. غرفة متوسطة بها أثاث عتيق، تتوسطها سجادة حمراء من العصر المملوكي، وستائر مخملية سوداء لونت عتمة الغرفة بلونها. صوت فرانك سيناترا ينبعث من جرامافون كهل يحرك أبرته فوق أسطوانة دائرية في حزن.

وفي وسط تلك الأجواء الكلاسيكية الهادئة، تكونت سحابة من الدخان الأبيض فوق مكتب خشبي قبع على يمين الغرفة. لم تكشف العتمة سوى عن رماد من سيجار يحترق بهدوء على ألحان فرانك سيناترا.

أصدر صوت إشعار من حاسوب يقع على طرف المكتب، فأدار صاحب السيجار مقعدَهَ الوثير المتحرك تجاه الحاسوب وهو يُنفث دخانه في نشوة.

كشف ضوء الحاسوب عن شارب صاحب السيجار، الذي رُسم على وجهه بطابع ملكي، وكأنه الخديو إسماعيل. ضيق عيناه، التي لم تكشفهما العتمة، تجاه الحاسوب، فوجد إيميلًا لطالما انتظره كثيرًا من قبل شخص بعينه، وها هو قد أتى.

تعالت ضحكات صاحب الشارب الملكي وهو يشاهد الفيديو من خلف نظارة سوداء، أعاد سماعه ثلاث مرات، وهو يرى برؤية مشوشة ثلاثة أجساد تُشق أجسادهم بمنشار كهربي وشخص يُحييه بحركة مسرحية. كاد يصدق تلك اللعبة لولا صوت تلك الطفلة الذي ظهر من وراء الكواليس:

- أونكل يحيي.. بابا وماما سابوني هنا ومشيوا.. ممكن تودیني لیهم؟

طقطق صاحب السيجار رقبته وأمسك هاتفه الخلوي وقام بالاتصال بأحدهم وهو يطلق أنفاثه الأخيرة، حتى أتى من الجانب الآخر صوت أجش، يتثاءب ليقطع وصلة نومه:

- صباح الفل يا كبير.

رد صاحب الشارب الملكي بهدوء تغلفه الصرامة:

- اصحى وفوق يا مليجي... عشان هتغسل إيدك بالدم النهارده.

اتقدت حواس مليجي وتسأل في توجس:

- خير يا بوص حصل إيه؟!

- الصقر مفكر نفسه أذكى مني... ميعرفش بيلعب مع مين... استخدم آخر كارت اتفقنا عليه... هو اللى جابه لنفسه.

- أيوة بس ااا.....

- مفيش بس يا مليجي... جثته تكون عندي النهارده... وخليك فاكر آخر كارت كويس... روحه قصاد روحك... سامع يا مليجي؟!

بلع مليجي ريقه في رعب وهو يمسح ذرات من العرق نبتت حول رقبته قائلًا بتردد:

- مفهوم يا كبير.. أنا هجهز الرجالة والنهاردة جثة الدكتور هتكون عندك.

هز صاحب السيجار رأسه وأغلق الهاتف، ثم أراح ظهره على مقعده وهو يستمتع بصوت فرانك سيناترا المثير لنشوة القتل.

*****

بعد مقتل آل دكتور أيوب بساعتين..

أطفأ يحيى محرك سيارته بعدما اطمأن أن كل شيء على ما يرام، وأن مصيره كاد ينتهي على يد طفلة لم تتجاوز الخمس سنوات. تنفس بارتياح وهو ينظر عن يمينه إلى الطفلة نور، التي فقدت وعيها بضربة واحدة منه فوق رأسها بقعر المنشار.

نظر في ساعته فوجدها الواحدة بعد منتصف الليل، هدوء يغلف أركان الفيلا. من الواضح أن حفل عيد الميلاد قد انتهى ورحل المدعوون. لام نفسه كثيرًا على عدم حضوره، فهو يعلم جيدًا كم أن حليم ابنه متعلق به ويتخذه قدوة، وها هو لم يحضر عيد ميلاده السادس.

هز رأسه في أسى، ثم أخذ شهيقًا ملأ به صدره وهو ينظر إلى نور وقد التمعت عيناه في نشوة بالغة.

ترجل من سيارته وتلفت ليتأكد من أن أحدًا لا يراه من الخدم. حمل الصغيرة، وبخفة بالغة دلف من رواق ضيق متجهًا إلى الباب الخلفي الزجاجي لمكتبه.

وصل إليه دون أن يلاحظه أحد، ثم دلف وأغلق الباب بلهفة وشد الستائر فوقه. أراح جسد الطفلة أرضًا، ثم خرج من باب مكتبه الرئيسي المطل على الصالة الفسيحة. لمح بطرف عينيه بقايا عيد الميلاد، وتلك الكعكة! كعكة الأيس كريم التي كان يعلم أن حليم ينتظره ليتناولها معه. ها هي قد انهارت قواها، وفي منتصفها جثة لشمعة سوداء على شكل رقم 6 تعلن الحداد على قلب صغيرها المُحطم.

أغمض يحيى عيناه في حسرة، ثم أدار جسده وعاد لغرفة

مكتبه. حمل الطفلة فوق كتفه الأيسر، ثم ضغط زرًا أسفل مكتبه ففُتح باب من الأرض خشبي. للوهلة الأولى عند دخولك الغرفة لا تلاحظه وكأن الأرض قطعة واحدة، ولكن يحيى صمم هذا الباب بدقة لا يلاحظها أعتى صقور العالم.

كشف الباب عن سلم أسمنتي. هبط يحيى بهدوء من خلاله، ومن شدة توتره تلاهى عن أن يغلقه خلفه!

ما إن هبط يحيى حتى ضربت أنفه رائحة مقيتة، عطنة، وكأنها رائحة صدأ لدماء أو إنها لجثث تتحلل!

بهو فسيح، جدرانه أسمنتية، يتوسطه منضدة معدنية تقطر دمًا. على اليمين مرآة وأدوات تشريح طبية، على اليسار أقنعة جلدية لصقور لم تكتمل بعد. في أركان الغرفة تكومت كومات من العظام البشرية، وبجانب السلم منضدة خشبية عليها منشار كهربيَ امتلأت أسنانه بأشلاء إحدى الجثث التي جفت ومضى عليها بعض الوقت. ولكن المريب ما كشفه ضوء البهو التنجستيني على ما يرقد فوق المنضدة الحديدية!

جثة لفتاة عشرينية، تحملق في فزع، وجهها منتفخ مُحتقن بالزرقة، شُقت بطنها وتدلت أمعاؤها خارجها. ركد بجانبها طبق من الألمونيوم وشوكة وسكينة بداخله. كان الطبق يحوي كبد الفتاة وكأن أحدهم كان يتناوله بنهم.

تحرك يحيى تجاه المنضدة بعدما أراح جسد الطفلة على طرف المنضدة. قرصه الجوع فور ما رأى كبد الفتاة، ولكنه مل من تلك الوجبة وحالًا سيُجهز لوجبته التالية، وجبة بنكهة مختلفة طازجة.

وعلى الفور أزاح جسد الفتاة وسحب الطفلة نور من قدميها، ثم أستل مشرط صغير وقد التمعت عيناه وهو يمزق ملابس الطفلة ومن دون تردد أخذ يشق جسد الصغيرة في شوق ليس له مثيل.

في الأعلى، تحركت أقدام لجسد صغير تجاه غرفة المكتب. دلفت إليها، ومن ثم إلى ذلك البهو. هبطت الأقدام السلم الأسمنتي ببطء، وقد بدا عليها القلق. وما إن انتهت من الهبوط حتى تسمرت أرضًا، وحملقت عيون صاحب هذه الأقدام في هلع!!

كان يحيى قد انتهى من شق جسد الطفلة نور وأخرج القلب، وقد قرر أن يبدأ به وجبته. وبينما هو يتناوله في استمتاع أتى صوت جعله ينتفض من فوق مقعده مرتعدًا:

- بابا؟!

حملق الصغير تجاه أبيه، لم يصدق ما يفعله!! ازدادت حدة ضربات قلبه وأصابته رجفة لم يستطع السيطرة عليها وظل يحرك نظراته تجاه جثة الطفلة وأبيه في هلع. حُشرت الكلمات في فم يحيى وأردف مفزوعًا:

- حليم!!!

زيارة ملك الموت

أحد أحياء الإسكندرية الراقية (الساعة 12:00 صباحًا):

فاحت رائحة ذرات البن المخلوط بحبات من الحبهان والهيل من داخل هذا المطحن الكبير الذي توسط الشارع، وعُلِّق أعلاه يافطة كُتب عليها بالأزرق (مطاحن المحمدي للبن). انتشر العمال بداخله، كلٌ يعمل بجدٍ وهمّة عالية، بينما على اليمين وقع رواق طويل انتهى بمكتب صغير تجلس عليه سيدة بوقار تلاحظه عندما تقع عيناك عليها للوهلة الأولى. وقد وقف أمامها رجل ستيني ممسكًا بقوة بذراع فتى، وقد بدت عليه إمارات الغضب قائلًا:

- السلام عليكم يا ست رُفيَدة.

رفعت رُفيدة رأسها من فوق دفتر كانت تدون به بعض الحسابات الخاصة بالبضائع والتجار، فاصطدمت عيناها بعين الرجل الستيني، الذي تبدلت ملامحه عندما رأى ابتسامتها البهية:

- وعليكم السلام يا معلم راضي، اتفضل.

فرد راضي بشيء من الضيق:

- يزيد فضلك يا ست الكل، أنا بس جاي عشان الحاج صابر يعز عليا، وكلنا ولاد كار واحد، وما ينفعش عيل خاين زي ده يشتغل عند الحاج صابر وهو اللي أواه ولمّه من الشوارع.

عدلت رُفيدة من وضع وشاح رأسها ذي اللون السماوي الذي كشف عن جزء صغيرٍ من شعرها، وحوّلت نظراتها بين الصبي والمعلم راضي مردفة بهدوء:

- خير بس يا حاج راضي عمل إيه مُندي؟!

- عمل إيه!! قولي ما عملش إيه. البيه جاي يبعكم ليا وعايز يديني بضاعة من غير علمكم ويقبض ثمنها مني.

تأملت رُفيدة الصبي مُندي بنظرات حادة متسائلة:

- أنت عملت كده يامُندي؟!

أجاب الصبي باكيًا:

- والله يا ست رُفيدة الموضوع غير كده، أنا كنت رايح أخد منه سلفة وهو اللي فهم غلط، عشان الحاج صابر ما رضاش يديني.

أحكم المعلم راضي قبضته على ذراع مُندي قائلًا بغضب:

- بتكذب ليه يا واد؟ علي النعمة لأخلّي الرجالة تعلقك على

باب الدكانة عشان تبقى عبرة لمن يعتبر.

- خلاص يا معلم عندي أنا دي.

لم يصدق المعلم راضي رد فعل زفيدة وقال منفعلًا:

- أزاي بس يا ست الناس؟. الواد ده لازم يتربى.

- خلاص بس، استهدى بالله. ما تعملش عقلك بعقل عيل صغير.

ثم أكملت مصوّبة حديثها إلى مُندي:

ولا يا مُندي، روح هات فنجان بن للمعلم راضي من الخلطة بتاعتنا الجديدة.

مسح مُندي دموعه بأكمام سترته الرمادية وحمد الله في ذاته أنه سيفر من قبضة المعلم راضي. أرخى المعلم راضي قبضته وهو يهز رأسه غير مِصدق، بينما انطلق مُندي فارًا:

- روّق بس كده يا معلم واتفضل اقعد عشان نتكلم.

- أهو قلبك الطيب ده يا ست زُفيدة هو اللي بيخلّي كلاب زي دي تعمل اللي بتعمله.

قالها المعلم راضي وهو يهم بالجلوس، بينما ابتسمت زُفيدة ابتسامتها الملائكية وعادت تجلس في مواجهة المعلم راضي قائلة:

- ما تقلقش يا معلم، أنا عارفة أنا بعمل إيه كويس. المهم خلينا نقول كلمتين مهمين، أنا كده ولا كده كنت عايزاك.

- أؤمري يا ست الناس.

داعبت زُفيدة بأناملها مسبحة التقطتها من جانب الدفتر ثم أردفت بهدوئها المعهود:

- الأمر لله وحده. أنا عرفت أنك محتاج بضاعة، واليومين دول الحال معاك مش ولا بد.

نظر إليها راضي بشك متسائلًا:

- وأنتِ عرفتي منين الكلام ده؟!

- عيب يا معلم، أنت عارف سوقنا ما فيش حاجة فيه بتستخبي. وبعدين أنا زُفيدة صفوان، ما فيش حاجة تخفى عليا.

- هممممم يبقى أكيد عيل من صُبياني هو اللي نشر الخبر.

- متظلمش حد يا معلم.. أنا عرفت بطريقتي.. المهم أنا هجيبلك المفيد.. أنا هديك بضاعة تشتغل بيها.

حملق المعلم راضي مشدوهًا، لم يصدق ما ألقته زُفيدة على مسامعه. فهو من ضمن منافسي الحاج صابر في سوق تجارة

البن، كيف لرُفيدة ابنة أخيه أن تعرض عليه عرضًا كهذا؟! فأردف متسائلًا:

- والحاج صابر على علم بالكلام ده؟!

لامته رُفيدة بنظرة منها قائلة:

- عيب يا معلم، أنت عارف أنا أعمل حاجة من ورا الحاج؟! هو بنفسه اللي قالي الكلام ده امبارح قبل ما يمشي.

ابتسم المعلم راضي ابتسامة امتنان، وشعر براحة تدنو إلى صدره، فأردف شاكرًا:

- والله يا ست الكل، الحاج صابر ده كل يوم الواحد بيتعلم منه. أهو الواحد على شيبته دي ولسه ما يفهمش حاجة في الأصول ولا التجارة قصاد الحاج، الله يمسيه بالخير. إلا قوليلي، عامل إيه هو دلوقتي؟

تنهدت رُفيدة بعمق وتأملت المسبحة بين أناملها، ثم أردفت بحزن:

- والله يا معلم، الحاج صحته مش ولا بد، وفي النازل خالص. حتى امبارح تعب أوي ومشي ما قعدش.

- لا إله إلا الله. لا، ده كده لازم نروحلوا. الحاج صابر ده في مقام أخويا الكبير. قوليلي أعدي عليه إمتى في البيت؟

- فيك الخير يا معلم .

- دي أصول يا ست الكل، والحاج صابر خيره على الكل.

- هو صحته في النازل بعد اللي حصل وما كانش متوقع يتغدر به.

ضيق المعلم راضي عينيه في عدم فهم وأردف متسائلًا:

- اتغدر به إزاي يا ست الناس؟!

- إنت متعلمش باللي حصل!؟

- إيه اللي جرى.. مين الندل اللي غدر بالحاج صابر ده؟!

صمتت رُفيدة وهزت رأسها في أسى، بينما استطرد راضي قائلًا:

- ما تقولي يا رُفيدة يا بنتي.. مين اللي غدر بالحاج صابر وإحنا نجيبه نعلقه هنا؟

- عيسى عبيد.

حملق راضي في تعجب غير مصدقًا:

- إيه!! المعلم عيسى عبيد!؟.. عمل إيه الخسيس ده؟!!

- أجر رجالة و.....

كادت رُفيدة أن تكمل إلى أن تناهى إلى مسامعها صرخات

شقت أركان الحي، فانقبض قلبها، هي تعلم لمن تلك الصرخات جيدًا، لم يمهلها الوقت للصدمة فقد وجدت الصبي مُندي يهرول إليها باكيًا:

- ياست رُفيدة.. يا ست رُفيدة.

- في إيه ياض؟!

قالها المعلم راضي، بينما هبت رُفيدة من فوق مقعدها وقد اعتمرها طوفان من القلقِ، إلى أن أردف مُندي من بين بكائه:

- الحاج صابر.. تعيشي أنتِ.

تسمرت قدماها أرضًا، وهرع العمال والمعلم راضي خلف مُندي قاصدين منزل الحاج صابر، بينما لم تقوَ رُفيدة على الحراك، دارت الدنيا بها، تشوشت الرؤية أمامها، أصوات الصرخات تتصاعد، انتفض جسدها نفضة أخيرة وأرتمت على المقعد مُغشيًا عليها.

فيلا يحيى صفوان.. (الساعة 1:30 ظهرًا)

جلس يحيى على سُفرة الطعام بهيئته الكلاسيكية قميص أسود وسروال رمادي، يتناول فطوره قبل ذهابه للمشفى، جلست عن يمينه داليا في صمت، عابسة، لم تتفوه بكلمة، تلوك الطعام شاردة، نظر إليها من أسفل جفنيه دون أن ينبس بكلمة، فوجدها هائمة لم تنظر إليه، حول نظراته إلى مايان ابنته ذات التسعة أعوام التي جلست عن شماله وابتسمت إليه وهي تحتضن عروستها القطنية، فداعب وجنتيها وبادلها بابتسامة باهتة، ثم حول نظره اتجاه حليم، الذي جلس لتوه على غير عادته، ليس هذا حليم بحيويته وخفة ظله وشقاوته المعتادة، فقد جلس حليم مذعورًا، يحملق في اللا شيء هادئًا لا يحرك طرفًا.

أرخى يحيى الشوكة والسكين المُمسك بهما على طبق أمامه عندما تذكر تلك الليلة الماضية بكل تفاصيلها المأساوية عند النظر لحليم، فبعدما وجد حليم أمامه من حيث لا يعلم ولا يحتسب، شعر بإحساس غريب يدنو منه، فلأول مرة يراه أحد على شاكلته الحقيقية، لم يكن يعلم أن أول شخص في هذا الكون سيراه بتلك الهيئة هو ولي عهده، لأول مرة شعر بريبة لا مثيل لها، فقد شعر أن مصيره سينتهي بين ليلة وضحاها على يد طفل لم يتجاوز السابعة من عمره.

حينها بال حيلم في سرواله رغمًا عنه، لم يصدق ما يراه، فأباه يأكل أعضاء حية لجثة طفلةإحينها بال حليم في سرواله رغمًا عنه، لم يصدق ما يراه، فأباه يأكل أعضاء حية لجثة طفلة! هرول صاعدًا السلم كاد يصرخ إلى أن لحق به يحيى وأقبض على فمه فلطخه بالدماء، حتى شعر أنه فقد وعيه، فتأكد من نبضه وذهب به إلى سريره بعدما مسح فمه من آثار الدماء، ثم داعب خصلات شعره وقبله من وجنتيه وخرج من باب غرفته حامدًا الله في ذاته، عائدًا لإكمال وجبته.

- حليم!

نطق بها يحيى عندما عاد من ذكراه، لم يلتفت إليه حليم، وظل منحملقًا في اللا شيء، كررها يحيى ثانية ثم أضاف:

- أنا عارف إنك زعلان مني يا حبيب بابي بس دادي النهاردة هيعوضك.. النهاردة هنخرج كلنا وهعملك أحلى عيد ميلاد لأحلى حليم في الدنيا.

- وهتجيب لي الـ SKATE SHOES اللي نفسي فيه يا دادي؟!

نطقت بها مايان ببراءة، فأبتسم إليها يحيى مردفًا وهو يقبلها:

- هجيبلك الدنيا كلها يا عيون دادي.

- هو أنت إيه البرود اللي أنت فيه ده بجد؟!

امتعضت قسمات يحيى، وطحن ضروسه بغضب وهو يحول نظراته اتجاه داليا التي أكملت حديثها منفعلة:

- نفسي تفهم أن الحياة مش كلها تحقيق طلبات وبس.. في حاجات أهم مليون مرة من الفلوس.

طقطق يحيى رقبته قائلًا وهو يزفر أنفاسه في ضيق:

- وأية أهم من الفلوس في نظر سيادتك.!

- أنت يا يحيى.. وجودك.. ابنك إمبارح كان بس عايزك جنبه وكلمتك أكتر من مرة.

- العربية عطلت مني على الطريق هعمل إيه يعني!؟

- آه حجة زي كل مرة.. بص عشان أنا تعبت وقرفت من دي عيشة.

زفر يحيى في خنق، ثم اقترب بأطرافه ليداعب تلك الخصلة البيضاء التي توسطت شعرها البني اللامع الذي كان له تأثير السحر عليه للوقوع في مصيدة حبها عندما أتت للمشفى ذات يوم مع والدها الطبيب النفسي الشهير عبد الدايم الحلواني، ومن ثم سرعان ما تطورت العلاقة بينهم ووجد نفسه متزوجًا من أجمل امرأة رآها في حياته.

أبعدت داليا رأسها وأشاحت بوجهها غاضبة ثم أردف:

- والنبي بلاش حركاتك بتاعة كل مرة وقولي رجعت الساعة كام إمبارح؟

أعاد يحيى يديه وأجاب وهو يحول نظراته عنها حتى لا تكشف كذبه:

- يعني على الساعة 2.

- ومن 9 لحد 2 بليل العربية عطلانة؟!

- آه يا داليا عطلانة.. متزفتة.. أنا مبقتش عارف أرضيكي إزاي.. أنا قايم غاير في داهية ده أنتِ بقيتي مُقرفة يا شيخة.

قالها يحيى والتقط حقيبته الجلدية وهم بالخروج من باب فيلته غاضبًا.

هزت داليا رأسها في أسى ونادت على الخادمة لكي تأتي وتلملم أطباق الطعام من فوق الطاولة، بينما هبت مايان من فوق مقعدها وذهبت لتشاهد التلفاز وما هي إلا لحظات وتناهى إلى مسامع داليا شيء أثار اهتمامها، فصرخت في

مايان لكي تعيد القناة التي أدارتها بجهاز التحكم لتشاهد أفلام الكرتون، فغضبت مايان ونفذت طلب والدتها رغمًا عنها.

قامت داليا واقتربت من التلفاز تتأمل تلك الصور الدامية الوحشية وما تلقيه مذيعة الأخبار:

- وبناءً على البيان الذي أصدرته وزارة الداخلية صباح اليوم، فقد تم إيجاد ثلاث جثث على الطريق الساحلي، شقت أجسادهم بوحشية، فالجثث الثلاث أحدهم لامرأة في العقد الرابع من عمرها والأخريين لطفلين، وبعد أمتار وجدت رأس لضحية بدون جسد، وبكشف التحقيقات عن هوية الضحايا، وجد إنها أسرة واحدة وهي أسرة الطبيب أيوب المغربي استشاري المخ والأعصاب، وبكشف التحقيقات وجد أن الأسرة فقدت أصغر فرد فيها وهي طفلة تبلغ من العمر خمس سنوات، لم يعلم أحد أين اختفت.. ما زالت التحقيقات في تلك القضية سارية للكشف عن ملابساتها.

- مستحيييييل!!!! دكتور أيوب!

شهقت بها داليا واضعة يدها فوق فمها غير مصدقة، بينما من خلفها وقف حليم يحملق في ذُعر باتجاه التلفاز وقد بال في سرواله، حينما عُرضت أمامه صورة لطفلة، هو يعلم من هي جيدًا، فتلك الطفلة وذلك الوجه هو نفسه الذي رآه في القبو أمس، وكان أباه يتناول وجبته اللذيذة من أحشائها.

*****

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. إن لله وإن إليه راجعون.. خلاص أنا جاي مسافة السكة.

أغلق يحيى هاتفه عندما أتاه الخبر بوفاة عمه. اتجه نحو سيارته وما كاد يهم بفتح الباب ليدخل إليها، حتى توقف لبرهة ثم التفت خلفه دفعة واحدة.

على بُعد ثلاثين مترًا ومن نافذة بإحدى العمارات، تنهد ذلك القناص بعمق وهو يوجه فوهة سلاحه باتجاه رأس يحيى، الذي كان يتجه إلى سيارته وهو يجري مكالمة هاتفية. انتظر القناص الوقت المناسب، وما أن انتهى يحيى من مكالمته حتى التفت خلفه بغتة. ارتجف القناص وعاد برأسه إلى الخلف، ظنًا منه أن يحيى قد رآه. ثم عاد بعينيه إلى منظار الرؤية فوجد يحيى قد دخل إلى سيارته وأدار محركها. هكذا ظن. هز رأسه نادمًا على ضياع الفرصة، ولكن ألهمه الشيطان بفكرة خبيثة ستجعل يحيى في عداد الموتى.

وجه فوهة سلاحه باتجاه خزان الوقود الخاص بالسيارة،

ثم زفر آخر زفير من صدره قبل أن يضغط الزناد.

انطلقت الطلقة قاصدة طريقها لخزان الوقود، وما أن ارتطمت به حتى انفجرت سيارة يحيى ورجَّ صوت الانفجار أركان الفيلا والبيوت المحيطة.

تنفس القناص الصعداء وهمَّ بفك سلاحه ولملمة أغراضه سريعًا. قام بالاتصال بزميله الذي كان ينتظره بالأسفل بدراجته النارية، ولكنه لم يجب!

لعنه في ذاته وعقد اتصالًا بأحدهم، حتى أتاه الصوت من الجانب الآخر:

- عملت إيه!؟

- خلاص يا معلم مليجي.. الفاتحة على روح المرحوم.

- - تسلم إيدك وعينك ياِ ض.. خف نفسك قبل ما حد يلمحك وأبقى عدي عليّ عشان تأخذ حلاوتك.

- متحرمش منك أمعلمي.

ما أن أغلق القناص هاتفه حتى سمع طرقات قوية تُضرب على باب المنزل. فسبَّ صديقه بصوت جهور قائلًا:

- أنت لازم تعمل فرح بروح أهلك هتفضحنا.. عاملي فيها حكومة؟!

قالها القناص وهو يفتح باب المنزل، وما أن فتحه حتى حملق في ذعر وتراجع مفزوعًا حتى تعثرت قدماه ووقع أرضًا.

- إيه رأيك في المفاجأة الحلوة دي؟!

قالها يحيى وقد زُينت شفتيه بابتسامة إبليسية قبل أن يدخل من الباب حاملًا بيده اليسرى رأسًا لجسد يعرفه القناص جيدًا، إنها رأس صديقه الذي كان ينتظره بالأسفل!!

- اللي باعتينك كان لازم يعرفوك أنا مين، بس مش مشكلة.. أحب أعرفك بنفسي.. أنا ملك الموت.

قالها يحيى قبل أن يكشف عن يده اليمنى من وراء ظهره وما تحمله، ثم رفعها عاليًا وانهال فوق رأس القناص بساطورٍ مُلطخ بدماء صديقه!!

شم الفئران!

في مساء نفس اليوم..

انتهت مراسم الدفن الخاصة بجسد صاحب السيرة الحسنة والموصوم بشيم الرجال، الحاج صابر المحمدي، أحد أكبر تجار البُن في الإسكندرية. سكت الحي وطبع الحزن بصمته على وجوه العابرين. شق صدأ صوت ذلك الشيخ أركان الحي برمته وهو يرتل آياته، منبعثًا من ذلك الصوان الكبير الذي شُيد بطول الحي وتوافد عليه الصغير قبل الكبير ومن لا يعرفون الحاج صابر وتناهى إليهم شمعته الطيبة.

وقف في مقدمة العزاء كل من يحيى صفوان وهيثم زوج رفيدة، الذي يعمل نجارًا، ومنير صفوان شقيقهم الأوسط وصاحب أكبر مجموعة مطاعم في الغردقة، والذي أتى على الفور هو وعائلته فور ما علم بخبر وفاة كبير العائلة، عمه.

ساند الحاج راضي يحيى ومنير في أخذ واجب العزاء إلى أن لمح بعينيه جسدًا قصيرًا يتقدم نحوهم، يرتدي جلبابًا رماديًا وانسدلت على كتفيه عباءه بُنية،كان قصير القامة، ممتلئ الجسد، ذو شارب كث غطى فمه بالكامل، تقدّم ذلك الرجل وهو يدق عصاه في الأرض بقوة محمحمًا، فانتُصبت الشعور فوق الرؤوس، وحملقت العيون، ونظر الجميع إليه بتوجس.

صافح الرجل كلاً من يحيى ومنير معزيًا إياهما، قائلاً بودٍ متصنّع:

- شدّوا حيلكم، راح الغالي، والله أنا لما جاني الخبر ما صدقتش، ده كان لسّة زي الفل امبارح.

هزّ يحيى رأسه قائلاً بشيء من الحزن:

- أمر الله يا معلم عيسى، هنعمل إيه!

- يلا، أهو راح للي أحسن مني ومنك... مهما الطبيب، كده بيتخطفوا، الله يرحمك يا حاج صابر، والله لو تعرفوا غلاوته عندي عاملة إزاي.

- عارف اللي عندك يا معلم عيسى، اتفضل.

- أنتم مش محتاجين أي حاجة؟!.. عمكم ده كان أكتر من أخويا الكبير والله.

- فيك الخير، اتفضل.

أشار إليه منير إلى الداخل، فهزّ المعلم عيسى رأسه وتقدّم. فتساءل منير من يحيى عن هوية ذلك الرجل، فأجاب الأخير هامسًا في أذنه:

- ده المعلم عيسى عبيد، أكبر منافسين عمك الله يرحمه، وألذ أعدائه.

- حسيت شكله مش سالك خالص.

قالها منير وواصل تلقي العزاء من الوافدين، بينما تقدم المعلم عيسى فرمق الحاج راضي بنظرة خبيثة. فأمتعض الأخير وتقلّصت قسماته عندما وجده يدنو نحوه ويجلس على مقعد بجواره. هزّ راضي رأسه متعجبًا وضرب كفًا فوق الآخر هامسًا بصوت التقطه المعلم عيسى:

- على رأي المثل يقتل القتيل ويمشى في جنازته!

ابتسم المعلم عيسى وداعب مسبحته بأنامله، بينما طرف بعينيه إلى الشارع، فوجد غريبًا يرتدي بذلة كُحلية ممسكًا بحقيبة جلدية يدنو من باب منزل الحاج صابر. رفع حاجبيه ولمعت عيناه، فحرّك بصرهَ ناحية أحد رجاله الذين وقفوا بجانب سيارته منتظرين أن ينتهي من واجب العزاء.

فهم الرجل الإشارة على الفور، هازًا رأسه ودلف خلف الغريب ذو البذلة الكُحلية ليعلم ما سيحدث ويخبر معلمه، الذي ينتظر شوقًا كذُب قطبي ينتظر فريسته.

*****

داخل منزل الحاج صابر، جلست السيدة ماجي زوجة المرحوم بوقار شديد، ترتدي الأسود على فراق زوجها الذي يكبرها بخمسة عشر عامًا. فقد تعرف عليها الحاج صابر عندما أتت إلى مطحن ذات يوم مع صديقتها جيسي ضمن فوج سياحي أتى من لندن في رحلة سياحية إلى مصر. وقع في حبها منذ الوهلة الأولى، وبادرها باهتمام مبالغ فيه. وكان يتقن عددًا من اللغات لا بأس به، فقد أتقن الحاج الإنجليزية والألمانية والفرنسية. هذا بسبب توافد عدد من السائحين على المطحن وتذوق قهوته التي لا مثيل لخلطتها. يومًا بعد الآخر، انجذبت ماجي هي الأخرى، وقبل مغادرتها بيوم، ألقى عليها صابر عرضه بالزواج منها. لم تفكر ماجي كثيرًا ووافقت على طلبه، وكُتب النصيب بين قلبين باعدت بينهما البحار والمحيطات وجمعتهما الأقدار.

على الرغم من أن السيدة ماجي الإنجليزية كانت ترتدي الأسود، إلا أنه بدا على ملامحها الجمود والصرامة، فهي لم تذرف دمعة واحدة على فراق زوجها، الذي عاشت في عرينه كالملكة وأنجبت منه فتاتهما الوحيدة التي تشبه أمها كثيرًا، وهي ليليان. جلست ليليان بجوار والدتها وكانت على نقيضها تمامًا، فقد انهارت ليليان بكاءً على فراق والدها وأصابتها

رجفة لا إرادية لم تستطع السيطرة عليها.

تساءل عدد كبير من النساء عن زفيدة صفوان، بما أنها عُكاز الحاج صابر ومديرة أعماله. الجميع يعلم أن الحاج صابر هو عم زفيدة، لكنه كان يعاملها معاملة ابنته التي من صلبه، ويعتمد عليها في الصغيرة قبل الكبيرة. فكان من الواجب أن تقف في المقدمة وتأخذ واجب العزاء، فأين هي؟!

كانت زفيدة في غرفة بمفردها، تجلس كأسد كَهِل خارت قواه، دافنةً وجهها بين ركبتيها، تنتحب في صمت. تحجرت دموعها داخل مُقلتيها من كثرة البكاء على أبيها الروحي وأمانها وحصنها المنيع من شرور هذا العالم الموحش.

فبعدما فقدت وعيها صباحًا فور علمها بالخبر، نقلها عدد من عمال المطحن إلى منزل الحاج صابر، ثم أتى طبيب تواصل معه الحاج راضي وقام بإعطائها حقنة مهدئة نتيجة تعرضها لصدمة عصبية حادة. وانتهت جميع المراسم الخاصة بجثمان الحاج صابر من الغسل والكفن والدفن، وزفيدة، التي طالما رافقته طوال حياته في كل شيء، غابت عن أهم لحظة بينهما، غابت عن وداعه الأخير.

وبينما الجميع جالس منصت إلى تراتيل الشيخ، الذي علا صوته من أسفل، دلف من الباب شاب ثلاثيني حليق اللحية، ذو بذلة كحيلة، يحمل حقيبة جلدية سوداء. لمحته السيدة ماجي فقامت من مجلسها بوقار واتجهت إليه، فصافحها الشاب معزيًا إياها، فهزت رأسها وأشارت نحو غرفة ما. فتقدمت وتبعها. فتحت السيدة ماجي غرفة ببابين خشبيين فكشفت عن منضدة طويلة تراص على جانبيها اثنا عشر مقعدًا ذات طراز كلاسيكي، فأشارت إلى الشاب أن يجلس وطلبت منه الانتظار للحظات.

خرجت السيدة ماجي من الغرفة ونادت على خادمها سوداني الأصل، وأمرته أن يأتيها بصبي الحاج على الفور، فهز الخادم رأسه وفر مهرولًا يبحث عنه.

أتى مُندي إلى السيدة ماجي فهمست في أذنيه، فرد الصبي بحماس وهو يشير إلى كلتا عينيه:

- بس كدة، عنيا ليك يا ست هانم... حمامة.

لحظات وأتى مُندي وتبعه يحيى ومنير وهم في حيرة من أمرهم، فقد أبلغهم مُندي أن السيدة ماجي تريد منهم الحضور على الفور في أمر عاجل، وسرعان ما أتى الاثنان خشية أن يكون أحد قد أصابه مكروه.

أشارت إليهم ماجي نحو الغرفة، فاتجهوا نحوها وهم

يتساءلون في حيرة من أمرهم، وتبعتهم بعد أن أشارت إلى ليليان ابنتها لكي تأتي. وسرعان ما اجتمعوا وأغلقت السيدة ماجي الباب خلفها.

- إيه اللي بيحصل يا مَرأة عمي!؟

نطق بها يحيى مستفسرًا، فردت ماجي وهي تجلس على مقعد بمواجهته بصرامة:

-SLOW DOWN.. دقيقة وهتعرف كل حاجة.

حولت بصرها إلى الشاب وأشارت إليه أن يبدأ. أخرج الشاب بعض الملفات من حقيبته الجلدية وهمّ بالقول:

- طيب، في الأول أحب أقولكم البقاء لله في الحاج صابر. وحقيقي هو كان رجلًا صالحًا وله عليّ أفضال كثيرة جدًا ووقف معي في بداية حياتي وفي أول مسيرتي المهنية، ولم أكن أتوقع أبدًا أن الحاج صابر سيوكلني المحامي بتاعه وبتاع العائلة.

- محامي!!!!!

قالها منير مشدوهًا، فأكمل الشاب حديثه قائلًا:

- أيوة، أنا المحامي شهاب رضوان، محامي الحاج صابر ومحامي العائلة. السيدة ماجي اتصلت بي تبلغني بالخبر وقالت لي أجي النهارده عشان نفتح وصية الحاج، الله يرحمه.

- إيه!!!!.. يعني إيه يا مرأة عمي الكلام ده!!

قالها منير بينما ابتسم يحيى ساخرًا هازًا رأسه، فأجابت ماجي بصرامتها المعتادة:

- زي ما سمعت يا منير.. صاحب الملك مات فلازم نعرف كل واحد لي إيه وعلى إيه ده RIGHT.

نظر إليها يحيى وهو يداعب لحيته الشقراء مستنكرًا:

- ده الراجل لسه جثته مبردتش... بس هقول إيه، ما أنتِ خواجاية صحيح... خلص لو سمحت شغلك خلينا نغور في داهية من هنا.

قالها يحيى موجهًا حديثه إلى المحامي، بينما حملقت ليليان متعجبة من صنع أمها وتسألت في دهشة:

- مامي.. WHAT ARE YOU DOING!!

فأجابتها ماجي بشيء من الحدة:

- SHUT UP مش عايزة أسمع صوتك.. CONCEBT؟

أذرفت ليليان دمعة من عينيها، بينما أردف المحامي الشاب قائلًا:

- طيب، مبدئيًا عشان نفتح الوصية لازم عائلة الحاج تكون موجودة وأقرباؤه من الدرجة الأولى.

ردت ماجي مشيرة اليهم:

- كلنا قدامك، اتفضل ابدأ.

- على حسب أقرباء الحاج صابر هما عيال أخوه الوحيد صفوان الصباغ، وهما يحيى صفوان، ومنير صفوان، وزفيدة صفوان... فين زفيدة صفوان يا جماعة؟!

طحنت السيدة ماجي ضروسها بغضب، فقد كانت تتمنى انتهاء كل شيء في ظل غياب زفيدة، فهي تعلم أن حضور زفيدة سيقلب الأمور رأسًا على عقب. وبينما ينظر الجميع إلى بعضهم البعض في تساؤل، فُتح باب الغرفة بقوة وكشف عما خلفه. فقد كانت هي، زفيدة، بطلتها البهية، ونظراتها الثاقبة المغلفة بطابع من الحزن والدموع. وما أن رأتها السيدة ماجي حتى هبت من فوق مقعدها، وقد سقط قناع الوقار أمام زفيدة، الذي كانت ترتديه أمام الجميع طوال الوقت.

حركت زفيدة نظراتها إليهم بشك وجمود، ثم نظرت إلى أسفل وتقدمت إلى داخل الغرفة مغلقة الباب خلفها، وهمّت بالحديث قائلة:

- أنا زفيدة صفوان.. اتفضل حضرتك شوف شغلك.

*****

لم يعلم أحد بالخارج ما يدور داخل الغرفة، فقد جلست صباح شقيقة هيثم، زوج زفيدة، تهمس في أذن أمها وقد انطلقت شرارات الحقد من عينيها:

- تفتكري إيه اللي بيحصل جوه ياما؟!

تأففت والدتها العجوز وقالت في نفاذ صبر:

- ملكيش دعوة يا حشرية.. هما عيلة في بعض.

- إيه ياما اللي بتقوليه ده؟ ما إحنا من العيلة دي... عش هيثم جوز زفيدة يبقى إحنا كمان من العيلة... هموت وأعرف بيحصل إيه جوه، وليه الواد هيثم مش معاهم؟!

- لا حول ولا قوة إلا بالله... ربنا يهديكي يا بنتي.

رفعت صباح حاجبيها مستنكرة وقالت:

- لا، أنا مش قادرة، هنزل لهيثم يطلع يشوف في إيه!!

قالت العجوز منفعلة:

- اتهدي بدل ما أسفخك قلم على خلقتك.

- أنتِ عارفة هتلاقيهم بيوزعوا الورث اااه، ما الحاج صابر

ده على قلبه قدِ كده... بس ليه هيثم مش معاهم؟ لا، أوعوا يكونوا هيأكلوا حق أخويا. لا ده أنا أفرج عليهم المنطقة كلها اااه، لا، كله إلا أخويا. ولا إيه يا أما؟!

- عوض عليا عوض الصابرين يارب.

رفعت صباح شفتيها مستنكرة، ونظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط فوجدت الساعة قد تجاوزت التاسعة، فزفرت في خنق، ثم مالت على أذن أمها قائلة:

- إحنا هنخلص إمتى يا أما؟ أنا زهقت... الشيخ ده هيقعد للفجر شكله.

- عايزة تمشي، امشي يا صباح، متوجعيش دماغي وأتلّمي، إحنا في عزاء.

- بقولك إيه، أنا هدخل المِطبخ كده أشوف حاجة أشربها، ولا أقولك أنا جوعت، أنا هشوف حاجة أكلها.

- طب غوري.. غووووري.

قالتها العجوز وقد لكزتها في جانبها، فهبت صباح من فوق الأريكة متجهة إلى المطبخ. وما أن دلفت إليه حتى رأت بعض الخدم يقومون بصنع مشروبات العزاء من الشاي والقهوة، هزت رأسها إليهم مُحيية إياهم، ثم لمحت بطرف عينيها صينية تحمل فوقها نصف جسد ديك رومي مشوي، فألتمعت عيناها وازدردت لعابها، واتجهت بخجل وخطوات بطيئة نحو ما تبقى من جسد الديك الرومي. وما أن وصلت إليه حتى تأكدت ألا يراها أحد من الخدم، ثم قبضت عليه بكلتا يديها قائلة بشوق:

- تعالي لي ياغالي.. ده أنا نفسي فيك من زمان.

وما كادت صباح تنهال على الديك الرومي بأنيابها حتى لاحظت ذلك الشيء الذي لُصق بشريط لاصق أسفل قاعدة دولاب المطبخ المعلق. تعجبت واقتربت بيديها منه والتقطته قبل أن يراها أحد، ثم خرجت سريعًا ناحية الخارج تاركة جثة الديك الشهية. وما أن وقفت خارج المطبخ مُختبئة في فجوة مظلمة من الرّدهة، حتى كشفت عن هوية تلك الغلبة الصغيرة التي وجدتها. وما أن رأت ما كُتب عليها حتى شهقت واضعة يديها فوق فمها، فقد كُتب على العلبة:

"RAT-KILLER.. مسحوق شم الفئران"

في اللحظة ذاتها انطلقت صرخة من غرفة الاجتماع، والجميع يعلم لمن ذلك الصوت، إنه للسيدة ماجي الإنجليزية:

- WHAT THE FUCK...!!! هاي شنو؟

الفرعون الميت

صاحت السيدة ماجي منتفضة من فوق مقعدها احتجاجًا على ما ألقاه المحامي الشاب عليهم، فلم يصدقوا جميعًا ما سمعوه. حتى رُفيدة ذاتها حملقت مشدوهة غير مُصدقة، وهزت رأسها في أسى زامة شفتيها في ألم، بينما حرك يحيى نظراته نحوهم جميعًا يتفحص وجوههم بدقة، ثم أطلق ابتسامة سخرية. بينما أردف منير بحدة مُقبضًا جبينه:

- لا، معلش يا أستاذ شهاب، ممكن توضح كلامك أكتر؟!

هدأ الشاب من روع السيدة ماجي وبلع ريقه، وقد عدّل من وضع رباط عنقه وهمّ بالقول:

- زي ما حضراتكم سمعتم، الموضوع كله مليش دخل فيه... دي وصية الحاج صابر الله يرحمه. الحاج كتب كل أملاكه باسم رُفيدة صفوان... وده بيدل إن مدام رُفيدة هي الوريثة الوحيدة للحاج صابر.

نظر منير إلى رُفيدة في عدم فهم وأردف مستفسرًا:

- يعني إيه الكلام ده يا رُفيدة؟! يعني إيه كتب كل حاجة باسمك؟ طب وإحنا؟! ورث أبونا؟! إيه، عمي مخه فوت قبل ما يموت ولا إيه؟!

بينما هبت السيدة ماجي قائلة بانفعال شديد موجهة حديثها ناحية رُفيدة التي شعرت حينها وكأن جبالًا من الهموم ارتكزت فوق كتفيها:

- THIS'S MADNESS!!.. عملتي له إيه قبل ما يموت هه!.. غسلتي مخه لحد ما خلتيه كتب كل حاجة باسمك!!.. SPEAK UP, YOU BITCH?!

فجأة أحست رُفيدة أن محكمة قد نُصبت لها، وأنها داخل قفص الاتهام، وعليها تبرئة نفسها، وإلا سيطلق القاضي حكمه عليها. فقالت بشيء من الأسى:

- أنا معرفش عمي الله يرحمه عمل كده ليه!... ويشهد عليا ربنا أنا لا كلمته في ورث ولا عمري سعيت لده... بس أكيد في حاجة غلط، مستحيل عمي يعمل كده، مستحيل يظلم.

رد عليها المحامي معترضًا على حديثها:

- للأسف يا أستاذة رُفيدة، كل الأوراق سليمة، والوصية بخط يد الحاج صابر والختم بتاعه كمان. حتى شوفي.

أعطاها شهاب الوصية للتأكد من صحة كلامه، فوجدت بالفعل أن كل شي سليم فهذا الخط هو خط عمها وهذا الختم هو ختمه المُميز:

- ما ممكن يكون حد سرق الختم وقلد خط عمي. مش شغلانة هي؟

أطلقها منير غاضبًا وهو ينظر إلى شقيقته، بينما رفعت رُفيدة حاجبيها غير مُصدقة أن ينعتها أخيها بالسرقة:

- إيه اللي بتقوله ده يا منير، مستحيل... الختم ده كان عمي شايله في مكان محدش يعرف عنه أي حاجة. حتى أنا اللي كنت معاه ليل نهار ماكنش مُعرفني مكانه.

- للأسف يا أستاذ منير، كلام حضرتك غلط.. الحاج صابر سلمني الوصية دي قبل ما يتوفى بشهرين وختم بالختم قدامي.

انتفض منير منفعلًا:

- آه دي لعبة منكم أنتم الاثنين.. عشان تقسموا الورث سوا.. اسمعي يا رفيدة، كله إلا ورَث أبويا.. ورث أبويا اللي حرمنا منه عمي طول حياته أنا مش هسيبه، سامعة يا رفيدة؟ مش هسيب حقي!

قالها منير وتحرك بحزم خارجًا من باب الغرفة يغمغم غاضبًا، بينما وضعت السيدة ماجي يديها فوق رأسها وأجهشت بالبكاء على ضياع إرث زوجها، وهي التي طالما انتظرت هذه اللحظة.

ربتت ليليان على ظهر أمها ونظرت إلى رفيدة بحنق شديد، بينما أغلق شهاب حقيبته بعدما أعاد أوراقه إليها وهمّ بالانصراف منبهًا رفيدة أن عليهم الالتقاء مجددًا لتكملة بعض الإجراءات الخاصة بإرثها.

كانت رفيدة جالسة، جامدة، أثقل كاهلها بجبال من الهموم، وأغشى بصرها سحب من الغمام. فقد تمنت في هذه اللحظة أن تلقي بجسدها في أحضان أحدهم، فمن كان يشعر بها وتلقي بنفسها بين أحضانه قد رحل عن عالمها، وبقيت وحيدة. الشيء الوحيد الذي ودت أن تعاتب عليه عمها هو تزويجها من هذا الخنزير هيثم، الذي أجبرها على الزواج منه ظنًا منه أنها ستكون في أمان من بعد رحيله. ولكن كانت حسابات الحاج صابر غير موفقة تلك المرة.. غير موفقة تمامًا.

تعجبت رفيدة داخلها من صمت يحيى المريب، فهي تعلم يحيى جيدًا منذ أن كانوا صغارًا، فدائمًا لا يظهر يحيى ما يدور في فحواه. قام بهدوء واقترب منها بخطوات هادئة، ومال بجسده وقد نظر في عينيها وقال مباركًا:

- مبروك يا بنت أبويا.. أنا عارف إن مالكيش ذنب..

متاخديش على كلامهم.. لو احتجتي حاجة كلميني هه.. خلي بالك من نفسك.

غريب! كم هو غريب يحيى، فهذه ليست عادته. تابعت رفيدة وهو يخطو ناحية الخارج، ولكنها ظلت هائمة وقد أصابتها رجفة لا إرادية وشيء واحد فقط عالق في ذهنها: إنها نظراته، والتي رأت فيها الماضي بكل مآسيه. كانت حادة، غير طبيعية بالمرة وكأنه ينوي شيئًا.. حقًا يا لها من نظرات!

*****

هرول الصبي مُندي قبل خروج منير من قاعة الاجتماع بعدما وقف خارجها يُنصت لما يدور بالداخل، وقد انشرح صدره عندما عثر على غنيمته. خرج من باب المنزل بخفة وأشار إلى أحد رجال عيسى الذي وقف بالخارج ينتظره. اتجه نحوه بدوره ووقفا بَمحاذاة السُلم قبل خروج منير هابطًا الدرج عائدًا لاستكمال أخذ العزاء ولم يلاحظ وجودهم، إلى أن هم مُندي بالحديث إلى الرجل الضخم قائلًا:

- أيدك على ورقة ب 200 .

رفع الرجل الفحل حاجبيه وأردف بصوت أجش:

- نعم ياروح أمك!!! هو كف مريم بس.

- كف مريم!! لا يا حليتها، يبقى تشوف حد غيري.. اللي عرفته أغلى بكتير من كده.

امتعض الرجل وكشر عن أنيابه، جاذبًا الصبي من قميصه بقوة:

- اسمع يا وضيع.. هتقول اللي عندك وإلا قسمًا بالله لأخلي المعلم عيسى يعلقك.

ضحك مُندي مُستهزئًا:

- طب ما تيجي نروح له ونشوف هيعلق مين فينا لما يعرف اللي عندي يا.. حليتها.

انطلقت شرارات الغضب من عيني الضخم وجذب مُندي من سترته هابطًا الدرج مدبدبًا، إلى أن خرج من باب البيت وأشار إلى باقي الرجال فتحركوا نحوه على الفور، آخذين مُندي وقد أحكم أحدهم قبضته فوق فمه مانعًا صراخه. فظل الصبي يتملص محاولًا الفرار، إلى أن ألقوا به داخل السيارة. وأشار الضخم إلى المعلم عيسى، ففهم الأخير الإشارة وهمّ بالنهوض مُحمحمًا ملبيًا واجب العزاء مرة أخرى، واتجه إلى السيارة مبتسمًا، قائلًا إلى سائقه بصرامة:

- اطلع بينا على المخزن القديم يا بني.

فانطلقت السيارة بقوة قاصدة طريقها، ولم يلاحظ احد عملية اختطاف الصبي مُندي إلا شخصًا واحدًا كان يتابع ما يجري بدقة. إنه المعلم راضي الذي انتفض قلبه لما يجري، وشعر أن هناك خطرًا قادمًا، خطرًا سيقلب مصير الأحداث رأسًا على عقب!

*****

تقع الغنائم الثمينة دائمًا في يد البُلهاء وتُرسم مصائر الأعراف بأنامل الحمقى، وهذا ما حدث عندما خبأت صباح ما اكتشفته داخل عباءتها السوداء، وقد دار في ذهنها آلاف السيناريوهات المُثيرة. ابتلعت ريقها وعدلت من هيئتها وخرجت عائدة للجلوس بجانب أمها، التي لاحظت تقلص قسماتها، فأردفت متسائلة:

- مالك يا بت؟ لونك مخطَوف كده ليه!

جلست صباح هائمة، شاردة، غير مُنصتة إلى العجوز وكأنها في عالم آخر، إلى أن لكزتها أمها، فالتفتت إليها منتفضة ماسكة ذراعها بتألم:

- إيه ياما وجعتيني!

- مالك يا بت!؟ فيكي إيه؟ شكلك مش مظبوط.

تحاشت صباح النظر إليها وهامت بعيدًا متوارية، بينما أعادت لجام هيئتها بطبيعتها السجية قائلة:

- بقولك إيه ياما، أنا زهقت، أنا هنزل.

لوت العجوز شفتيها وأردفت بلوم:

- يا بت، هتخلي الناس تأكل وشنا! خلاص شوية وهنمشي.

- بقولك إيه ياما، اللي يأكل يأكل، مش ناقصة خوتة دماغ هي.. خليكي أنتِ، أنا هنزل أستناكي تحت لحد ما الشيخ يخلص اللي هيقعدنا للفجر ده.

قالتها صباح وهمت خارجة من باب المنزل بهيئتها البضة التي دارت تلك العباءة السوداء تفاصيلها بحركتها البطوطية، فهي بالنسبة لأي رجل مُثيرة للضحك لا لأي شيء آخر.

خرجت صباح من باب البيت تمسح المنطقة بعينيها في توجس وكأنها تخشى أن يراها أحد. رأها هيثم شقيقها، فقبض جبينه متعجبًا. التقت أعينهما فأشارت إليه بلهفة، لم يفهم هيثم ما حل بصباح، وهو الذي كان ينعتها دائمًا بلقب "صباح مناخوليا"، نظرًا لنوباتها الجنونية.

تقدم نحوها بجسد واهن، فقد كان نحيل الجسد، شديد السُمرة، فكه أحدب بارز، برزت تفاحة آدم من عنقه، تلونت

لحيته وشعره بخصلات بيضاء، يرتدي دائمًا قميصًا بنيًا واسعًا نتيجة نحافته الشديدة وسروالًا قماشيًا أسود. اتجه نحوها وهو في حيرة من أمره، ما أن وصل إليها حتى جذبته من يده اليمنى إلى داخل صحن البيت، فأردف متعجبًا:

- في إيه يا صباح يا مناخوليا؟! أنتِ مش هتبطلي الجنان ده يا بت!!

- أنت قاعد هنا يا بن الموكوسة ومراتك فوق هي وأخواتها بيقسموا التركة وهياكلوك.

زفر هيثم في ضيق وأردف بنفاذ صبر:

- ملكيش دعوة يا صباح بحد، دي مراتي وأنا حر وأكيد مش هتاكلني.

- اااااااه ما أنا نسيت إنك جوز الست.. ركباك وبتقول حاااااا.

- اتمسي ياصباح بدل ما أمسيكي على المساء.

- يا خويا، أتشطر على مراتك اللي سيقاك.. المهم نهايته.. بقولك إيه أنا وقعت على حاجة إنما إيه، لوز اللوز.. حاجة هتخلي صوابع العيلة دي كلها تحت ضروسنا وأولهم مراتك الحيزبونة دي.

تسأل هيثم بتوجس:

- حاجة إيه دي؟!

- لا يا حلو، نتفق الأول، اااه، الحق حق.

- نتفق على إيه يا بت المجنونة؟!

صمتت صباح لبُرهة ثم أستطردت حديثها:

- أنا هآخذ نص الفلوس وده حق يابا وميزعلش حد. أنا ست 38 سنة، لا متجوزة ولا عندي عيل ولا تيل، وأنت ربنا يخلي لك مراتك. كل المحلات دي ليك في الآخر، أنت وعيالك. إنما أنا غلبانة.....

قاطعها هيثم بنفاد صبر وبنبرة حادة:

- صباااااااح.. قصري بدل ما ألطش لأمك.

- أنا عايزاك تفتح مخك اللي هقولهولك يساوى ذهب

- !!!!؟؟

- عمك صابر.

- أشمعنى؟!

- ما ماتش موتة ربنا.. اااه والله زي ما بقولك كده.

امتعضت قسمات هيثم متسائلًا:

- صباااااح، مش ناقصة خوتة دماغ أمك المهبوشة دي.

تنهدت صباح وأخرجت من داخل عباءتها لبانًا قد مضغته من قبل، ثم ألقته في فمها، فنظر إليها هيثم مُشمئزًا. ثم أخرجت عُلبة سم الفئران وأعطتها إليه وهي ممسكة بكفه الأيسر. قرأ هيثم ما هو مكتوب فوقها، وقد ترابطت الخيوط داخل عقله ببعضها البعض، فنظر إلى أخته مُحملقًا، فأردفت وهي تومئ بعينيها:

- أيواا.. عمك صابر اتقتل يا روح أختك.

- إيه؟!!!!

*****

بعد يومين (الساعة 9:00 صباحًا)

- أسمع، قرار أمك يومين تنفِذ فيهم اللي أطلب منك. أنا لو كلمتك تاني يا يحيى بنفسي.. أنا اللي وقتها هخلص عليك بإيدي.. أعضاء مراتك وعيالك يكونوا عندي بعد يومين. ولو منفذتش الفيديو الجميل اللي بعتهولي بتاع قتل دكتور أيوب وعائلته هيروح للنيابة، وقبل ما يتم تنفيذ حكم الإعدام فيك، هكون مخلص عليك يا يحيى.

كان هذا حديث البوص الكبير ليحيى قبل يوم عبر الهاتف، وقد شعر بغصة في حلقه عندما تذكر الفيديو الذي أرسله إليه بقتل الدكتور أيوب وعائلته. طحن ضروسه بغضب وجلس يفكر كيف سيفعلها، كيف سيتخلص من زوجته التي عشقها وأبنائه الذين هم جزء من روحه. ظل يعتصر عقله ويذرع أركان الفيلا مجيئًا وذهابًا، إلى أن توصل لفكرة جيدة حتمًا سيقنعهم بها وستروق لهم كثيرًا. كان عليه الاختيار: إما مصيره أو مصير آل بيته، وفي الأخير قد اختار يحيى.. اختار ما سيفدي رقبته به وينجو سالمًا.

جلست داليا بجانب يحيى مرتدية نظارتها الشمسية، متجهمة، على قسماتها العبوس واليأس. وفي الخلف جلس كلٌ من مايان وحليم ببراءتهم المعتادة، ولكن كان حليم على غير شاكلته، فهذا الطفل قد أصابه شيء، فقد جلس شاردًا، يحرك رأسه في حركات لا إرادية ومريبة. تكونت الهالات السوداء حول عينيه، وامتنع عن تناول الطعام. إن تناوله يخزنه في فمه في كومة جانبية ثم يشرد مجددًا. فقد كانت حالة هذا الطفل حقًا يُرثى لها.

نظر يحيى من مرآة سيارته طالعًا على حليم، وقد زم شفتيه في أسى بالغ. بينما التفت إلى داليا بنظرة ذات مغزى، فقد أقنعهم أنه سيأخذهم في رحلة تنزهية لحديقة حيوان

مفتوحة، وسيتجولوا بالسيارة لرؤية الحيوانات من خلف زجاجها. تحمست مايان لتلك الفكرة وراقت لها كثيرًا، بينما لم يبدِ حليم أي رد فعل. أما داليا فقد لامت يحيى كثيرًا، فكيف له أن يفعل ذلك ولم يمض على وفاة عمه إلا يومين، ولكن بأسلوبه المقنع وبضغط من مايان واقفت في الأخير على الذهاب معهم.

انحرف يحيى بسيارته الحديثة التي اشتراها قبل يوم، فبعدما تحطمت الأخرى على يد هذا القناص، كان عليه شراء أخرى مفسرًا لداليا سبب الانفجار بأنه ماس كهربائي أدى إلى اشتعال السيارة وتفحمها، فليس هو يحيى صفوان من يقفز بين وسائل المواصلات لكي يقضي أعماله.

سلك يحيى طريقًا جانبيًا زراعيًا، تقع الأشجار عن يمينه وعن شماله، يشبه الغابات إلى حد كبير. ظنت داليا أنهم على مشارف الوصول، لكنها تنبهت إلى أن هذا الطريق ليس الذي سلكوه في رحلتهم من قبل، خصوصًا عندما تناهى إلى مسامعها أصوات عواء، فارتج قلبها وسألت يحيى بلهفة:

- إيه ده؟ مش هو ده الطريق يحيى؟!

أجاب يحيى بهدوء دون النظر إليها:

- لا هو يا داليا، أنتِ بس اللي نسيتي.

- بقولك مش هوا أنا مش هبلة!!

فرم يحيى أسنانه بغضب، فكم أنتِ فطنة يا داليا! كان لا بد من اتخاذ قرار سريع وحازم يُسكت ثرثرتها المزعجة. ولذلك، على الفور ودون تردد، أخرج من جيب قميصه زجاجة صغيرة معدنية، ثم وجهها ناحية أنف داليا وضغط عليها برشة واحدة. وسرعان ما استنشقت ما خرج منها وغابت عن الوعي. ثم حول يحيى ذراعه ناحية مايان وحليم اللذين سرعان ما فقدا الوعي على الفور.

بعد ساعة..

في داخل هذا الكوخ الخشبي الذي يقع على تلك التلة العالية وتحيط به الأشجار من كل جانب، قبعت داليا على كرسي خشبي وقد قُيدت يداها وقدماها. وعلى جانبيها قُيد كل من حليم ومايان، وقد غابا عن الوعي. تأوهت داليا وهي ترفع رأسها مغمضة عينيها بقوة من أثر ذلك الصداع الذي اجتاحها فور ما استعادت وعيها. كانت الرؤية ضبابية في البداية، لكنها سرعان ما اتضحت كاشفة عن أركان الكوخ، وقد ضربت أنفها رائحة مقيتة، رائحة صدأ، دماء... لا، لا، إنها رائحة جثث تعفنت!

وما إن جالت ببصرها حتى التقطت عيناها بمن يقف أمامها. فحدقت بذعر وصرخت بقوة، إلا أن هذا اللاصق الذي وُضع فوق فمها منعها من الصراخ. هزت رأسها غير مصدقة، وأخذت تتملص محاولة الفكاك. نظرت إلى أبنائها وقد أصابتها نوبة هستيرية. بكت بقهر وقد تشنجت جميع أطرافها.

كان يحيى يقف أمامها هادئًا يرتدي حلته الجلدية الملطخة بالدماء المعتادة لارتكاب جرائمه، كاشفًا عن هويته دون قناع، ممسكًا بمنشاره الكهربائي. نظر إليها بأسى وبنصف عين مكسورة وقد اغرورقت بالدموع، ثم أردف بنبرة غلفها الحزن:

- كان عليَّ الاختيار يا حبيبتي... أنتِ مترضيش إن جوزك يموت، صح؟... أنا هضحِّي َبيكم عشان أعيش... للأسف أنا طول عمري بختار، المرة دي المرة الوحيدة اللي كانت غصب عني... سامحوني... سامحوني كلكم... ماعنديش اختيار تاني.

قالها يحيى وأدار محرك المنشار، فأصدر صريرًا مرعبًا أيقظ مايان البريئة. اقترب بخطوات ثابتة، بطيئة، يجر قدميه. داليا تحاول التملص بأقصى قوتها وتصرخ. علم فحوى الكلمة التي تصرخ بها، فقد كانت جلية:

- مجنووووون!!!!

اقترب من رأسها، وألقى عليها نظرة أخيرة، ثم حول بصره ناحية أبنائه ومسح دمعة سالت على وجنتيه، ثم رفع المنشار عاليًا وما كاد يهوي فوق عنق داليا حتى رن جرس الهاتف الأرضي الأسود العتيق، الذي قبع على كومود صغير أسفل النافذة المتسخة بخيوط العنكبوت.

أنزل يحيى المنشار وأطفأ المحرك واتجه نحو الهاتف ورفع السماعة غاضبًا، حتى تناهى إليه صوت نغمات يعلمها جيدًا. ألحان أعادته إلى عشرين عامًا مضت. أرخى قبضته من فوق المنشار، وانسدل من بين يديه فوقع أرضًا وأخذ يستمع إليها:

" يا ما لقينا الوعد.. يوفي أمل موعود
القلب لون الورد.. والصعب ماله وجود
الوعد والمكتوب وكل شيء محسوب.. إلا في أحلامنا"

أغمض يحيى عينيه مندمجًا مع تلك الألحان التي حركت داخله شيئًا ما، إلى أن برز صوت من خلفها، صوت لن يتمناه الشيطان ذاته. ظن يحيى أنه يتوهم، إلا أن الصوت كرر جملته ثانية قائلًا بنبرة لطالما ساقته العذاب في طفولته:

- وحشتني يا يحيي.

لم يصدق يحيى ما التقطته أذناه. مستحيل! فهذا المتحدث هو أبوه الذي لقي حتفه منذ ما يقارب عشرين عاما!!!

جُثة ذائبة

داخل إحدى فروع المُحمدي للبن (الحادية عشرة صباحًا)

جلست رُفيدة تتابع العمال بعينين زائغتين لم تذوقا طعم النوم لقرابة اليومين، وعقل مشتت كاد يَجن. تفكر بعمق وكأنها داخل بئر ليس له قاع. كيف لعمِّها أن يفعل ذلك!؟ تتذكر حديثه إليها عندما كان يتحدث عن الموت. ففي الفترة الأخيرة قبل رحيله، كان يتحدث كثيرًا عن الموت، وأخبرها بوصية شفهية غير مكتوبة. تتذكر جيدًا ذلك اليوم، فقد كان في ساعة متأخرة من الليل بعد رحيل جميع العمال:

- عيال غلابة يا رُفيدة.

- ربنا يجازيك خير يا عمي على اللي بتعمله معاهم.. أنت فاتح بيوت ناس كتير.

نظر إليها الحاج صابر من أسفل حاجبيه الكثيفين وقال معاتبًا:

- تاني عمي؟! ما قولنا تقولي لي يا بابا. بعد السنين دي، يا رُفيدة، لسه برضو بتقولي عمي؟

لملمت رُفيدة حديثها مسرعة، محاولة أن تُصلح سوء فهم عمها إليها:

- لا طبعًا يا بابا. أنت أبويا وكل حاجة ليا في الدنيا. سندي وعكازي اللي معرفش أعيش من غيره.

قالتها رُفيدة بعدما احتضنته وقبلته من رأسه، فضحك الحاج صابر قائلًا:

- أوطنجية طول عمرك يا بنت صفوان.

- أهو شفت بقى! أنت اللي عايز تعاملني على أساس إنك عمي.

- طب أقعدي يا رُفيدة، عايزك في موضوع.

- خير يا بابا؟!

هز الحاج صابر رأسه واتكأ على نابوته قائلًا بصوت مهيب:

- مبقاش في العمر بقية يا بنتي.. وآن الأوان أقولك على السر.

تجهم وجه رُفيدة وأردفت بلهفة:

- إيه اللي بتقوله ده؟ ربنا يخليك لينا ويديك طولة العمر. إحنا منعرفش نعيش من غيرك.

قاطعها بإشارة من يده اليمنى قائلًا:

- اسمعي بس. لما ربنا يأذن ويعوز أمانته، عايزك ما تقفليش

الدكاكين ولا حتى حداد على موتي. عايزك من تاني يوم تقفي في الدكان وتشغلي الناس. دول فاتحين بيوت برضو.

بلعت زُفيدة ريقها وأغرورقت عيناها بالدموع، فأكمل الحاج صابر:

- الوصية أنا كتبتها وأدتها لشهاب المحامي. بعد ما أتوكل على الله، هتعرفي إيه مكتوب فيها. أيًا كان، يا زُفيدة، اللي هتسمعيه، عايزك تخلي بالك من نفسك.

بصوت مبحوح تسألت زُفيدة:

- أخلي بالي من نفسي من مين؟!

- من الكلاب السعرانة. مش هيسبوكي في حالك. أهم حاجة يا بنتي تعرفي أن عمك مظلمش حد. ويشهد عليا ربنا أنا عملت كد ليه. أمانة أبوكِي صفوان في الحفظ والصون.

- قصدك مين بالكلاب السعرانة؟ وأمانة إيه؟

- هتعرفي كل حاجة في وقتها. خلي بالك على نفسك يا زُفيدة، وأعرفي أني هبقى شايفك ومعاكي طول الوقت. ما تقطعيش لا صدقة ولا زكاة. ما تقفليش باب ربنا يا بنتي، عشان ملناش غيره.

تدحرجت دمعة من عينيها حينما ضربتها تلك الذكرى، موقظة مشاعر من الحزن والأسى، فوجدت نفسها تردف وكأنه أمامها:

- ونِعم بالله.. الله يرحمك يا بابا.

أغمضت عينيها فأزدرفت المزيد من الدموع، ثم نظرت إلى مفتاح الخزينة الذي أعطاه إليها شهاب المحامي بعدما انتهوا من استكمال إجراءات الإرث. كان هناك خزنتان: إحداهما كانت تملك زُفيدة مفتاحها، والذي كان يوضع بها جميع الأموال الخاصة بالتحصيل من الموردين وميزانية المحلات ومرتبات العمال.

أما الخزنة الأخرى فهي لم تعلم عنها شيئًا. فقد دُفنت في الحائط أعلى الخزنة الأخرى، وتم حجبها ببرواز عليه صورة الحاج صابر - رحمه الله.

نهضت زُفيدة بعدما كفكفت دموعها، واتجهت نحو البرواز وأزالته، فكشف عما خلفه: خزنة رمادية اللون. زادت حدة ضربات قلبها، وتنهدت بعمق، متحمسة لرؤية ما كان يخبئه الحاج صابر داخلها. وما إن أدخلت المفتاح وتناهى إليها صوت فتح المزلاج وكشف الباب عما خلفه، حتى حملقت غير مصدقة. فقد ضرب عينها شيء ذهبي لامع. إنه القناع!

قناع الصقر الذهبي الخاص بأبيها المُطعّم بالألماس! أهذا هو الإرث إذًا؟! عمها كان على حق!

مدت يديها نحوه بأطراف مرتعشة وقد جحظت في ذهول من روعة تفاصيله. وبينما هي مشدوهة، انطلق صوت من خلفها أرعدها، صوت تعلمه جيدًا:

- احم.. سامو عليكو يا بنت صفوان.

فانتفضت زُفيدة مذعورة، ونظرت خلفها بلهفة، فوجدت آخر وجه تمنت أن تراه في هذا الوقت. إنه المعلم عيسى عبيد، بهيئته السمجة، وقد التمعت عيناه بما حملته زُفيدة بين يديها!

*****

- أقتلها!!!!

قالها منير منتفضًا من فوقَ الأريكة بمنزله وهو يتحدث إلى هاجر زوجته التي جلست في نرجسية عالية، واضعة قدمًا فوق الأخرى، تنظر إلى منير بكبرياء. صرخ في وجهها فور ما عرضت عليه خطتها لاستعادة إرثه من أخته.

مضغت علكتها بطريقة متسكعة، وأردفت بصوت أنثوي رفيع وهي تشير بأحد أصابعها قائلة:

- أنت هتقعد وتفهم ولا كل كلمة هتفضل تعمل الهبل اللي بتعمله ده؟ لو سمحت، اقعد وسيبني أكمل كلامي.

فقال منير مُنفعلًا:

- تكملي إيه يا هاجر؟!.. أنتِ عارفة أنتِ بتقولي إيه؟!.. أقتل أختي؟!.. أنتِ اتجننتِ؟!

- قدامك حل تاني!!.. ولا أنت عايزها تنهب الورث وتطلعوا كلكم من المولد بلا حمص؟

- آه فقوم قاتلها ومودي نفسي في داهية.

- زُفيدة مش هتديكم حاجة يا منير.. أنت عارفها طول عمرها عاملة عليكم كبيرة ومتقمصة دور أمكم وكأنها ولي أمركم.. بني أدمه مستفزة وعاملة لي فيها معلمة.

- اااه قولي كده أنتِ اللي متكاده منها عشان أنجح منك.

هبت هاجر من فوقَ المقعد، صارخة في وجه منير:

- أنجح من مين؟!.. أنت مجنون!!.. أنا هكيد من حشرة زي دي لا راحت ولا جت!.. أنا بنت أكبر مقاول في مصر، هغير من حتة نملة أفعصها تحت رجلي!

التمعت عينا منير وابتسم بسخرية، فأكملت هاجر بنفس الحدة:

- لو قصدك على المشاريع اللي بعملها ومش بتكمل ده مش فشل.. ده نصيب ورزقي مش فيها.

- والله نصيب!!؟ ولا سوء إدارة منك!.. طول عمرك غبية ومبتعرفيش تفكري.. الحقد ملي قلبك والطمع عمى عنيكي.

صفقت هاجر بكلتا يديها، بادية إعجابها بحديث منير قائلة:

- لا برافو.. حقيقي برافو قد إيه أنت فاهمني كويس.. بقولك إيه الخلاصة.. أنا مش هسيب المفعوصة دي تاخد حق عيالي.. حتى لو قررت أقتلها أنا بنفسي يا منير.

فرفع منير حاجبيه غير مصدق، بينما هدأت هاجر واتجهت نحوه محتضنة إياه، قائلة بنبرة لينة:

- منير يا حبيبي، أختك مش هتديك حاجة. وورث أبوك اللي قعدت طول عمرك بتتنشئ عليه مش هتنول منه أي حاجة. فكر كويس. فكر فِي بناتك ومستقبلهم. فكر في الديون اللي عليك. فكر في الضرائب اللي وراك واللي محلاتك هتتقفل بسببها. هتتنقل نقلة تانية لو أخدنا الورث، يا حبيبي. فكر عشانا... هترضى أعيش مترملة وبنتك تتيتم بعد ما تدخل السجن بالديون دي؟! ويعالم ممكن يحصلك إيه جوه؟! فكر يا منير يا حبيبي.

ازدادت حدة ضربات قلبه، فقد أوقع حديثها الرهبة في صدره. بلع ريقه بعدما أصابته غصة في حلقه. شدت على وسطه محتضنة إياه بقوة وقد تصنعت البكاء. دارت الدنيا به، شُل تفكيره، نبتت ذرات من العرق فوق جبينه، وبعد دقائق مرت عليه كالدهر، أردف بصوت مرتعش:

- هنعملها إزاي؟!

رفعت هاجر رأسها، وقد مسحت دموعها الوهمية، وتراقص قلبها فرحًا، فوضعت يديها فوق كتفه، غامزة بعينيها اليمنى:

- كنت واثقة أن حبيبي عاقل و هيفكر بحكمة.. متقلقش أنا محضره كل حاجة.. هقولك.

*****

الساعة (7:30 مساءً)

هرب ذلك الفأر، والذي كادت صباح تفرم رأسه تحت قدميها، فقد دلف خلسة من تلك الفتحة الصغيرة في نافذة المطبخ. هرعت خلفه صارخة حتى وجدته يدنو من تلك الأريكة محطمة الأرجل، التي جلس هيثم على فراشها المهترئ الرمادي، وقد أسند ظهره إلى الحائط وأخذ ينفث دخان سجائره بشرود. بجواره كانت صينية عليها كوب من

الشاي الذي أصبح أبرد من قارة أنتاركتيكا.

لاحظته صباح، فرفعت حاجبيها متعجبة وجلست على طرف الأريكة واضعة يديها في جانبيها، مشمرة عباءتها الوردية، متسائلة:

- يا حلاوة.. أنت هتفضل قاعد لي كدة!!

كانت الحاجة ماجدة، أمهم، قد جلست على مقعدها الخاص، الذي أحيط بوسائد لتريح جسدها العجوز لفترة طويلة في جلستها، وأخذت تغزل كرة من القماش. زفر هيثم آخر خيط من الدخان ورد على صباح دون أن ينظر إليها قائلًا:

- عايزة إيه يا صباح على المساء!

- هو إيه اللي عايزة إيه يِا صباح على المساء.. ما تقوم تساعدني نقتل الفأر ابن الورمة ده، وأهو دخل تحت الكنبة!

قالتها صباح مقلدة إياه بنبرته الخشنة، فأردف بعدما ألقى بعقب سيجارته في كوب الشاي قائلًا:

- بقولك إيه يا صباح أنا دماغي مقلوبة من امبارح، مش عايز خوتة الله يبارك لك.

توفقت السيدة العجوز عما كانت تفعله ونظرت إلى ولدها قائلة بشفقة:

- مالك يا نن عين أمك؟! فيك إيه؟!

- مليش ياما.

- في حاجة؟! في حاجة حصلت في الشغل؟!غريبة يعني منزلتش ورشتك النهاردة؟! حصل حاجة يا ولا؟!

- اه صحيح غريبة.. أنت ما نزلتش الورشة ليه؟!.. لا بقولك إيه أحنا محلتناش حاجة هنكمل بقية الشهر إزاي؟!

قالتها صباح وقد علت نبرتها، فنظر إليها هيثم بتجهم، بينما أردفت العجوز معاتبة صباح:

- بس يا بت أخوكي مش مظبوط.. قولي يا ضنايا فيك إيه.. اتخانقت مع مراتك؟!

فصمت هيثم ونظر إليها نظرة ذات معني، بينما أطلقت صباح لهيبها المعتاد:

- آه يبقى هي بعينها.. المسخوطة بنت المساخيط.. عملت لك إيه هه.. وحياة المرسي أبو العباس لأروح أجيبها من شعرها البت دي.. قال عملالي فيها معلمة قال.

تنهد هيثم، وزفر في حنق، بينما مالت عليه أمه وتسألت:

- عشان الورث؟!

فهز هيثم رأسه بالإيجاب، وصباح تتابع باهتمام بالغ، بينما أراحت العجوز ظهرها وأردفت:

- احكي، حصل إيه؟!

فأجاب هيثم شاردًا:

- كنت بقولها بما إن عمها كتب كل حاجة ليها تفتح لي المصنع اللي بحلم به ونتنقل نقلة تانية ياما بدل الفقر اللي عايشين فيه ده.. قال تقولي طول عمرك دلدول وأنا اللي بصرف عليك بنت الرفدي.

فتساءلت صباح وقد امتعضت قسماتها:

- وعملت إيه؟!!

- هعمل إيه يعني هسمي عليها.. اديتها علقة محترمة.. وبعد ما شششق الصبح بدِور على المفاتيح بتاعة الورشة ملقيتهاش.. روحت لقيت الورشة متباعة ياما.. بنت صفوان لعبتها معايا صح.. وخدت الورشة اللي حيلتي.

- بنت الكلب!

قالتها صباح وقد كشرت عن أنيابها، بينما شهقت العجوز واضعة يدها فوق صدرها قائلة:

- يا نصيبتي!؟.. يعني إيه الورشة راحت؟!ده هي اللي فاتحة بيتنا.

فأردفت صباح بغضب بالغ:

- يمين بالله لأوريكي يارُفيدة وأعرفك أن الله حق.

قالتها صباح وهمت بارتداء عباءتها السوداء فوق الوردية، وقبل أن تخرج أمسك بها هيثم من ذراعها بقوة:

- تعالى هنا.. واتهدي هه أنا اللي هتصرف في الموضوع ده.. الموضوع ده ميخصش حد غيري انتِ سامعه ولا لا؟!

تألمت صباح، بينما واصل هيثم حديثه قائلًا:

- تقعدي في البيت ومسمعش صوتك وعليا النعمة يا صباح لو علمت إنك عملتي حاجة من دماغك هعجزك.

أطلقها هيثم، فارتعدت صباح، وهم بالخروج، بينما صرخت فيه أمه العجوز:

- طب رايح فين يابني الساعة دي؟!

فتح هيثم الباب، وقبل أن يخرج أدار رأسه إليها وأردف بهدوء:

- رايح أعمل اللي كان لازم يتعمل من زمان ياما.

قالها هيثم وخرج حازمًا خطاه وقد انطلقت شرارت

شيطانية من عينيه.

*****

بعد ساعتين (الساعة 9:30 مساءً)

وقف هيثم قبالة الطريق يدخن بهدوء، وأخذ يراقب العمال وهم خارجون من المحل الرئيسي للحاج صابر، وقد انتهوا من عملهم. أوقف أحدهم وسأله بعدما دنا نحوه:

- بقولك إيه، متعرفش رُفيدة جوه ولا روحت؟!

أجاب العامل مشيرًا إلى المحل:

- آه يا عم هيثم الست رُفيدة في المحل قالت هتسهر شوية النهاردة.

فهز هيثم رأسه ونفث دخان سيجارته الأخير، وراقب آخر عامل قد خرج، وبعد أن تأكدِ أن الطريق قد خلا، اتجه ناحية المحل وقد تحسس ذلك الشيء حاد النصل الذي وضعه داخل سرواله قبل أن يدلف إلى الداخل!

*****

صباح اليوم التالي (الساعة 10:00 صباحًا)

أسدل الصباح ستائره بدون شعاع شمس يخفف من وطأة هذه الأجواء الباردة. وصل الصبي مُندي ومعه أحد العمال إلى الفرع الرئيسي، فانتابتهم حالة من الدهشة عندما وجدوا أن المحل مفتوح على مصراعيه ولم يُغلق بعد!

تساءلوا في قرارة أنفسهم لو أن أحدًا قد سبقهم لفتح المحل، ولكن كيف؟! وهما من يحملان المفاتيح الخاصة به، وهما من يقومان بفتحه يوميًا. إذًا معنى ذلك أن المحل لم يُغلق منذ ليلة أمس!

كانوا على علم بأن السيدة رُفيدة كانت تقبع داخل المحل بعد ذهابهم جميعًا، فالجميع شهد على ذلك. فما معنى هذا؟! أن السيدة رُفيدة نسيت أن تغلق المحل قبل أن ترحل؟! ولكن كيف! ليس لها أن تفعل ذلك!؟

نظر كل منهما إلى الآخر في توجس، ومدا الخطى ناحية المحل، وما أن دلفا إليه حتى ضربت خياشيمهم رائحة تخالف رائحة البُن المعتادة، رائحة عطنة، مقيتة، مختلطة برائحة شواء وكأن هناك شيئًا ما يحترق!

تعجب مُندي والعامل وتساءلا عن مصدر الرائحة في قلق! هرع كل منهما في جهة لمعرفة من أين تأتي تلك الرائحة، فقد خشيا أن هناك شيئًا ما قد نسياه بالأمس وسيؤدي إلى اندلاع حريق أو ما شابه.

هرع أحدهما ناحية اليمين، والآخر ناحية اليسار حيث مكتب رُفيدة، وما أن وصل العامل إلى مكتب رُفيدة حتى شهق وتراجع مفزوعًا وقد صرخ في مُندي أن يأتي مسرعًا. فهرع إليه الأخير على الفور.

وقف الاثنان يتأملان هذا الجسد الذائب الذي قبع على المقعد، جسد به عدة طعنات، شُق من المنتصف فتدلت أحشاؤه للخارج، حام فوقه جيش من الذباب يطن فرحًا بوجبة دسمة قد حظي بها. جلده ذائب، شُوه الوجه تمامًا، لم تتضح معالمه، ذابت أطرافه عن آخرها، برزت عظام الوجه والصدر، خيوط من الدخان خرجت منه وكأنه يحترق، ولكن لم يتفحم بعد.

نظر كل منهما إلى الآخر في رعب، وسأل العامل بعدما نظر إلى حذاء الجثة، فقد كان الجزء السفلي منها سليمًا لم يمسسه سوء:

- أنت شايف اللي أنا شايفه!!

بلع مُندي ريقه وهز رأسه مذعورًا:

- دي الست رُفيدة!!

ما أن قالها حتى هب مهرولًا إلى الخارج، صارخًا بأعلى صوته، حتى استيقظت المنطقة بأكملها على صراخه. تبعه صديقه دون تردد، وتركوا جثة سيدتهم وحدها تتحلل مع ذباب يطن وخزنتين فارغتين!!

الفصل الثاني

"الذبابة التي ظلت تَطَن حول أذنيك ذات يومًا حار.. هي من جعلت منك قاتلًا".

مقتل زُفيدة صفوان
مسرح الجريمة..

سئم الرائد علاء الشرقاوي، ضابط المباحث، من تلك المهمة التي كلفه بها قائده العقيد الجزيري؛ البحث وراء قضية هذا السفاح الملقب بـ(الصقر الأسود) والعثور عليه في غضون ثلاثة أيام. ها هم قد مضوا، وهو على مشارف صباح اليوم الثالث. وبعد بحث دقيق وأرق دام طوال الساعات الماضية، لم يتوصل إلى أي خيط يوقع بذلك الملعون.

مر هذا الشريط أمامه وهو يتأمل تلك الجثة الذائبة التي كانت أمامه. وقف بهيئته المهيبة؛ فقد كان فارع الطول، عريض الكتفين، حليق اللحية، وعلى قسماته طابع الوسامة. كان يرتدي زيه المعتاد الكلاسيكي: سروال قماشي أسود وقميص أبيض، وفوقه سترة رمادية من الصوف، وقد شمر عن ساعديه تأهبًا.

مسح ببصره أركان المكان برمته، وقد وضع منديلًا ورقيًا فوق أنفه، فقد شاعت تلك الرائحة المقيتة من جثة زُفيدة إلى خارج المطحن. تجمهر عدد كبير من أهل الحي بالخارج وأخذوا يهمهمون في عدم تصديق، وقد اخترقت الرائحة خياشيمهم فأنفروا.

أحاط رجال البحث الجنائي مسرح الجريمة بشرائط (ممنوع الاقتراب)، ثم أخذوا يعاينون الجثة ويرفعون البصمات ويلتقطون بعض الصور لها من جميع الزوايا. وأخذت المجموعة كلها تعمل بدقة متناهية.

وقف كلٌ من الرائد علاء الشرقاوي والنقيب أمين مختار يتأملان تفاصيل الجثة وما حل بها، فقد كانت في حالة يُرثى لها؛ تأكلت، وذاب جزء كبير منها فور وصول رجال الشرطة. دقق المحقق علاء عينيه فوجد أن الجلد يتآكل كعقب السيجارة، فأمتعَض وأدار وجهه ناحية أمين متسائلًا:

- مفيش حد من أهلها موجود؟!

سعل أمين بقوة من أثر الرائحة ثم أجاب:

- جوزها واقف برة سيادتك.. تحب أجبهولك!!

- لا لا كله هيتحقق معاه على هداوة.. مين أول حد شاف الجُثة وبلغ؟!

- اثنين من العمال كانوا جايين على المحل الصبح لقوه مفتوح ودخلوا لقو المنظر زي ما سيادتك شايف.

هز المحقق علاء رأسه مُتفهمًا وأخذ ينظر للجُثة مرة أخرى

ثم أردف:

- ملهاش أهل؟!

- ليها طبعًا يا فندم جوزها نجار وليها أخين واحد دكتور جراح والتاني صاحب سلسلة مطاعم بالغردقة.. بس كانت قريبة أوي من عمها صابر اللي مات من ثلاثة أيام.

- هممممم الله يرحمه.. بس الجثة مشوهة تمامًا.. من الواضح إننا قدام قاتل عارف هو بيعمل إيه كويس.

تنحنح أمين ثم قال:

- تفتكر هو يا علاء بيه؟

- لا لا مفتكرش مش دي طريقته.. أو يمكن حاول المرة دي بطريقة تانية عشان يلففنا حوالين نفسنا.

- بس لا معتقدش هو سيادتك.. من الواضح على الجثة أن الأعضاء موجودة ومتأخدش منها حاجة.. حاسس كده إن في عداوة بين القاتل والمجني عليها.

- أو ممكن تكون مجرد جريمة سرقة عادية يا أمين.. هنعرف.

قالها المحقق علاء وهو يشير إلى الخزنتين الفارغتين، فنظر أمين إلى الخزنتين وأومأ برأسه مُأمنًا على حديث قائده، بينما تحرك المحقق علاء بخطوات هادئة ناحية أحد المختصين في فريق البحث الجنائي الذي أخذ يلتقط أجزاء من الجُثة ويضعها في أنبوب زجاجي، تابعة علاء باهتمام ثم أردف سائلًا إياه:

- عرفتوا مصدر الريحة دي إيه!

أجاب المختص من وراء كمامته:

- حمض الأسيد!

عقد المحقق علاء حاجبيه وتسأل في عدم فهم:

- لا فهمني أكتر!

- حمض الأسيد أو ما يُسمى ب **Hydrofluoric acid**.. ده حمض قوي جدًا جدًا ممكن يُذيب أي حاجة؛ حتى لو جسم إنسان.. وده على حد علمي محدش يعلم به إلا لو حد طبيب أو في المجال الطبي عمومًا.

- هممممم.. طبيب أو المجال الطبي!

- ومن الواضح كمان يا فندم إن في طعنات كتير أوي في الصدر والبطن.. طعنات بآله حادة سميكة.. ساطور مثلًا أو ما شبه.

ثم أكمل المختص وهو يشير إلى الشق الذي أمتد من أعلى

الصدر إلى أسفل البطن:
- وواضح هنا كمان إن القاتل استخدم آله لشق الجسم.. آله مختلفة عن آله الطعن.. نقدر نقول مُنشار مثلًا.. لو حضرتك بصيت هتلاقي حواف الجلد من الجانبين في وضع زجزاجي.. وده بيأكد صحة كلامي.. لسة طبعًا الجُثة محتاجة تتشرح، وكل حاجة هتبان بالتشريح يا فندم.
- ممتاز جدًا.. كمل شغلك أنت.
قالها المحقق علاء وأشار إلى النقيب أمين، فتوجه نحوه الأخير فهمس المحقق علاء بسؤاله:
- أنت قولت لي مين من قرايب المجني عليها دكتور؟!
- آه سيادتك أخوها يحيى دكتور جراح وأسمه عامل صدى كبير رغم سنه الصغير.
التمعت أعين المحقق علاء وابتسم ابتسامة جانبية من وراء منديله، لم يلاحظها أمين، ثم أخذ يتحرك بشكل دائري وهو يتأمل أركان المكان مرة أخرى، ثم أردف موجهًا حديثه إلى أمين:
- العائلة كلها تيجي لي عشان يتم التحقيق معاهم وطلع أمر بضبط وإحضار الدكتور يحيى ده.
- مفهوم سيادتك.
هز المحقق علاء رأسه، ثم تنهد بعمق وما كاد يهم بالخروج حتى التقتت عيناه شيئًا قبع بجانب حذاء جُثة رُفيدة، فجلس القرفصاء والتقطه، ثم رفعه أمام ناظريه يتأمله، وسأل أمين دون أن يلتفت إليه:
- أنت قولت لي جوزها شغال إيه!؟
- نجار سيادتك.. نجار.
ضيق المحقق علاء عينيه وابتسم بُخبث ثم أردف:
- هممممم نجار.. دي حاجة حلوة أوي.
لم يفهم أمين مقصد قائده، بينما تابع هو بقية الإجراءات مع فريق البحث الجنائي وتحرك جُثمان المجنى عليها إلى المشرحة، ولم يعلم فحوى ما وجده قائده من أدله تدين هيثم، فقد وجد علاء بُرادة من الخشب تقبع بجانب قدم جُثة المجني عليها.. رُفيدة صفوان.
*****
فرّ هيثم مذعورًا كفأر فلت من أنياب شقيقته صباح، فقد راقب جيدًا نظرات العساكر الذين وقفوا على أعتاب المطحن، ثم انسَلَّ من بين الجمع بهدوء، وما أن شعر أنه

اختفى عن الأنظار حتى هرع بقوة يعدو الطريق اتجاه منزله.

انتفضت صباح مذعورة من أثر تلك الطرقات التي نزلت كالسيل على باب المنزل، فشهقت العجوز أمها واضعة يديها فوق صدرها قائلة بتوجس:

- يا نصيبتي!! في إيه استر يا رب.

همَّت صباح بفتح الباب بعد أن لفت حول رأسها وشاحًا لا يتناسب مع عباءتها الوردية، وما أن فتحت الباب حتى اصطدمت بأخيها الذي دفع الباب بقوة فسقطت أرضًا كخنزير زُلت قدماه في الوحل، هرع هيثم إلى غرفته يلملم أغراضه مسرعًا، وأمه تصرخ فيه مستفسره، وصباح تحاول جاهدة أن تستعيد توازنها، حمل هيثم حقيبته بعدما دفسّ فيها ملابسه، خافيًا ذلك السكين بينهم، وهمَّ بالخروج من المنزل إلى أن جذبته صباح من قميصه صارخة فيه:

- في إيه يا بن المهبوشة في إيه انطق؟!

فصرخ هيثم في وجهها غاضبًا:

- سبيني يا بت المَره بدل ما أفلقك نصين.

- أستهدا بالله يابني وقولنا في إيه!

قالتها أمه بهلع قفز من قلبها، بينما لم يعِرها هيثم بالًا واتجه ناحية الباب وما أن فتحه حتى وجد أمامه الرائد علاء الشرقاوي ومعه قوة من العساكر، وقد وقف مبتسمًا كذئب يبتسم لفريسته قبل الانقضاض عليها:

- هيثوم.. معقول يا راجل! عايز تمشي كده من غير ما تسلم علينا ده حتى يبقى عيب.. فين كرم الضيافة؟!.

تراجع هيثم وحملق مذعورًا، وأصابته غصة في حلقه، أشار علاء للعساكر فأمسكوا به واضعين الأصفاد بمعصميه، بينما أخذ يصرخ بقوة وهو يزحف إلى الخارج:

- والله ما عملت حاجة يا باشا قسمًا بالله ما قتلتها والله ما أنا يا باشا.

بينما صرخت العجوز في علاء مستفسرة:

- في إيه يا بيه!؟ والله ابني غلبان معملش حاجه.

نظر إليها علاء بابتسامة شفقة تغلفها السخرية قائلًا:

- صح يا حاجة ابنك معملش حاجه خالص.. ابنك قتل مراته بس.

ما أن ألقاها علاء حتى أخذت صراخات صباح تشق صداها أركان الكون مختلطة مع نحيب أمها.

*****

قبل الجريمة باثنتا عشرة ساعة..

- طب إزاي؟!

قالها يحيى عندما سمع صوت أباه الميت، ولكن ليس هذا العجيب، المريب حقًا أن أباه قد لقى حتفه منذ عشرين عامًا، فكيف؟!، إلى أن أردف المتحدث بصوته المألوف على آذان يحيى:

- إيه يا يحيى مخضوض مش كده؟!.. في حاجات يا يحيى في الحياة ملهاش إجابات مهما دورت ولفيت هو ده قانون الحياة هفضل أعلمك لحد إمتى؟!

رفع يحيى حاجبيه متعجبًا وأبعد السماعة عن أذنيه وتأملها، فقد خشى أن الهلاوس قد أصابت عقله، ثم بدون تردد أغلق السماعة دفعة واحدة بقوة، وظل يتأملها وأنفاسه تعلو وتهبط، مرت ثوانٍ ولم يتلق رنينه، فتنفس الصعداء وما كاد يعود ليكمل جريمته المُحرمة، أصدر الهاتف عواءه مرة أخرى:

- بتقفل السكة في وشي يا يحيى!

- أنت مين؟!

- تاني يا يحيى؟! معقول نسيت صوت الفرعون.. أبوك!

- أبويا مات وشبع مات.. شوفلك حد تضحك عليه غيري.

تحدث الأب بنبرة صارمة تلك المرة:

- لما تكلم الفرعون تتكلم معاه بأدب.

- وأنت بقى اللي هتعلمني الأدب!

- أنا راجع أنقذك.

- تنقذني مرة واحدة؟!.. وهتنقذني من إيه إن شاء الله؟!

- من الهبل اللي هتعمله دلوقتي.. هتقتل مراتك وعيالك يا مفتري!! معقول يا دكتور؟!

ما إن قالها المتحدث حتى التفَّ يحيى حوله متوجسًا، يبحث بعينيه عن أي شخص يقوم بمراقبته، حتى إنه ترك سماعة الهاتف ودنا إلى خارج الكوخ يفتش عمّا حوله، ولكنه لم يجد شيئًا، وهذا ما أثار رعبه. فهو، كسفاح ماهر لا يهاب شيئًا، لأول مرة يدنو الخوف إلى صدره.

عاد إلى داخل الكوخ والتقط السماعة مرة أخرى، فسمع سعالًا قويًا انتهى ببصق كتلة من المخاط من المتحدث الذي أردف بعدها:

- معلش يا يحيى، أنت عارف الحساسية اللي عندي ولا نسيتها!؟

امتعضت قسمات يحيى وشعر بغصة في حلقه. هو يعلم أن أباه كان يعاني من داء حساسية الصدر الذي لازمه لسنوات. يا للهول! ما يحدث ضد العقل والمنطق!

- أنا عارف أنك مش مصدق أني أبوك وفي دماغك مليون ألف سؤال.. بس الوقت مش في صالحنا يا يحيي.. حقك هيضيع وأختك رُفيدة مش هتديك حاجة لا أنت ولا أخوك، هي طماعة زي أمك، ألف رحمة ونور عليها!

ابتسم يحيى وقال ساخرًا:

- دلوقتي بتترحم على أمي؟!

- يحيى متكبرش الموضوع أومال.. واحدة خانتني إيه عايزني أعزمها على ليمون بالنعناع؟!.. ده جزاء كل واحدة خاينة بس بزمتك طعم لحمها حلو مش كده؟ عارفك أنا بتحب اللحوم اللي من النوع ده.

- أنت عايز إيه بالضبط!!

- تاني يا يحيى تاني؟! قولت لك جاي أرجع لك حقك من رُفيدة وأعرفك الحقيقة كاملة، وبعدين تجيب لي حقي منهم.

- من مين؟!

- أصحاب الكهف!

- مين؟!

- زي ما سمعت يا يحيى.. لو كان المفروض تقتل حد دلوقتي فهما مش مراتك وعيالك يا مغفل.. البوص مش هيسيبك عايش، حتى لو خلصت على مراتك وعيالك اسمع من أبوك وأنت عارف أني هنقذك.. زي ما أنقذتك قبل كده من الصقر الأسود.

تنهد يحيى بعمق، وفرم أسنانه بغضب مُردفًا:

- بقولك إيه.. أنا مش فايق للعب العيال ده.. روح اتسلى على حد غيري.. سلام.

- القناع يا يحيى!

ما كاد يحيى يغلق الهاتف حتى تسمرت قدماه فور سماعه تلك الجملة، القناع!، كيف له أن يعلم بأمر كهذا:

- ورث عمك لرُفيدة هو القناع.. فاكره يا يحيى!

لم يستطيع يحيى أن يجيب، وكأن لسانه قد عُقد بلجام من تلابيب جهنم، بينما أكمل المتحدث حديثه:

- اليوم ده كله أفتكر أنك قتلتني رغم إنك كنت داخل تطمن عليا والقناع أتسرق ليلتها.. وأنا عارف كويس مين اللي عملها وأكيد نفسك تعرف مين اللي عيشك اللي شوفته

في طفولتك وتشفي غليلك منه.

- مين؟!

- كل حاجة ليها وقتها يا يحيى.. هكلمك تاني بعد ما تنفذ أول خطة بينا.

- خطة إيه؟!

- خطة الفرعون الأخيرة.. تقتل أختك رُفيدة.

- انت بتقول إيه!؟

- الليلة الساعة 9 تنفذ وتأخذ القناع وترجع حقك.. سلام يا يحيى.

ما أن قالها المتحدث حتى أغلق الخط دفعة واحدة، بينما انزلقت السماعة من يد يحيى ودارت الدنيا به غير مصدق، ولمعت عيناه بشعاع قناع الصقر الذهبي الذي طالما تمناه طيلة حياته، وأعتصر عقله مُفكرًا فيما يجب أن يفعله، وكيف له أن ينفذ جريمة كهذه في تلك الليلة المشؤومة!

رُتب بدرجة سفاحين
داخل غرفة ضابط المباحث..

داخل غرفة ضابط المباحث، وقف كلٌ من مُندي وصديقه أمام المحقق علاء الشرقاوي، الذي جلس لتوّه على مقعد بالٍ، جلده مهترئ متآكل. شمر عن ساعديه وخلع ساعته الفضية، ثم نظر عن يمينه إلى أمين السر، الذي أمسك بقلمه متأهبًا لما سيكتبه بعد لحظات.

شعر علاء بنبضات قلوبهم التي أخذت تدق رعبًا، لمعت عيناه وهو يمسح ببصره رعشة أجسادهم من أسفل إلى أعلى، ثم ابتسم ابتسامته المعتادة وهمّ بالقول:

- ها يا رجالة احكوا لي اللي حصل.. مين فيكم اللي شاف الجُثة الأول؟

نظر مُندي إلى صديقة وبلع ريقه بتوجس، بينما أردف العامل بصوت مرتعش:

- أنا يا بيه.

- هممممم جميل.. قولي اسمك وسنك؟

- سامر ميمون.. عشرين سنة.

أخذ أمين السر يكتب، بينما وجه علاء سؤاله إلى مُندي:

- وأنت، اسمك وسنك؟

- محمد فوزية الشهير ب مُندي.. 17 سنة.

- محمد فوزية!!.. أبوك اسمه فوزية!! ماتقول يَالّا أسم أبوك أنت هتهزر يا روح أمك!

نبتت ذرات العرق فوق جبين مُندي، ثم أجاب بصوت مبحوح:

- معنديش يا باشا.

- يعني إيه معندكش؟! إيه ابن حرام!!!

- أنا مولود في خرابة تحت كبري يا باشا فيها الناس فوق بعضها ستات ورجالة أمي نفسها متعرفش مين أبويا.

أراح المحقق علاء ظهره في المقعد ورفع رأسه مُطلقًا ابتسامة سخرية:

- يعني أنت ابن حرام من الأخر... الله دي حاجة حلوة أوي.. على العموم مش موضعنا خلينا في اللي إحنا فيه.. قولت لي يا سامر أنت أول واحد شوفت الجُثة مش كده؟

أجاب سامر بلهفة:

- مظبوط يا بيه.

- قولي أنت اللي متعود تفتح المحل كل يوم؟!
- لا يا بيه هو المفتاح منه نسختين نسخة معايا، ونسخة مع مُندي واللي بيجي الأول فينا بيفتح.. بس اليوم ده صادف إننا جينا مع بعض في نفس الوقت.
- امممممم مش غريبة دي يا سامر!.. أنتم الاتنين تيجوا مع بعض؟!
قبل أن يجيب سامر هم مُندي بالرد قائلًا:
- لا أصل سامر متعود يسهر يا باشا و....
قاطعه علاء بحدة:
- أنا قولت اتكلم يابني أنت؟!.
- لا مؤاخذه يا باشا.
زجره علاء بنظره صارمة، فطأطأ مُندي رأسه في أسف بينما وجه علاء حديثه إلى سامر مره أخري:
- أنت متعود تسهر فين يا سامر؟
زجر مُندي لسامر بنظرة جانبية بينما أجاب الأخير:
- في قهوة همبكة يا بيه.
- مممممم حشيش ولا حاجة تانية يا سامر؟! قول يا راجل قول متتكسفش
أومأ سامر برأسه، فابتسم علاء ونظر إلى مُندي متسائلًا:
- وأنت يابن فوزية كنت في البيت ولا كنت فين!؟
- لا يا باشا أنا كنت في المخزن.
- كداب يا بيه.
هب بها سامر قائلًا وكأنما أراد أن يكشف كذب صديقة، فتقلصت قسمات مُندي ونظر إلى سامر غير مُصدقًا، تأملهم المحقق علاء للحظات ثم استطرد سامر حديثة:
- مُندي كان عندي المعلم عيسى عبيد وأنا شوفته بعيني يا بيه.
- كداب يا باشا عليا النعمة كنت في المخزن.
نظر المحقق علاء إليه بصرامة، محذرًا إياه بإبهامه:
- أخرس يا بني أنت لحد ما أقولك أتكلم.. كمل يا سامر وقولي مين عيسى عبيد ده؟!
- ده منافس الحاج صابر الله يرحمه في السوق و ياما أذاه.. وامبارح شفت مُندي فعلًا ناحية المخزن بس بتاع المعلم عيسى مش بتاعنا.
طقطق المحقق علاء أنامله في حماس ومال بجسده سائلًا

مُندي بهدوء:

- صحيح الكلام ده يابن فوزية؟!

بلع مُندي ريقه وطأطأ رأسه وقد خشرت الكلمات في حلقه، فصرخ فيه علاء مُضربًا بكفه فوق سطح المكتب:

- ماتنطق يا روح أمك!!!

فأجاب مُندي مُنتفضًا بصوت متحشرج:

- أيوة يا باشا.

- عيسى عبيد هه؟ المنافس بتاعكم تروح عنده ليه يا مُندي؟!

- عشان أهدي النفوس يا باشا أصل جه يومها الصبح وشد مع الست رُفيدة الله يرحمها والناس كلها شاهدة على ده.

مال علاء بجسده للأمام وضيق عيناه ليكشف كذب مُندي، ثم حول نظراته إلى سامر وسأله:

- حصل الكلام ده يا سامر؟!

- مظبوط يا بيه.

- مممم شكله قصة عيسى عبيد ده.. هنشوف.. ماشي يا رجالة، على العموم لو احتجتكم تاني هبعت لكم، ولو حد افتكر أي حاجة ياريت يجي يقولي، عشان لو عرفت إن حد فيكم عارف حاجة ومقالش هعزمه عندي على مهلبية بالزبيب سامع يا مُندي؟!

أومأ مُندي برأسه، وما كادوا يغادرون الغرفة حتى توقف سامر دفعة واحدة، والتفت إلى الرائد علاء وأردف وكأنه تذكر شيئًا هامًا:

- في حاجة يا بيه مش عارف مهمة ولا لا.

- هات اللي في بطنك يا سامر.

- وإحنا مروحين إمبارح، قابلت عم هيثم زوج الست رُفيدة، وسألني عليها: موجودة في المحل ولا لأ، بس كان متوتر أوي.

التمعت مُقلتا علاء وتساءل:

- كان إمتى الكلام ده بالضبط؟!

- حوالي الساعة 9 يا بيه .

أراح علاء ظهره ورفع حاجبيه وأطلق تنهيدة بعمق، فارِدًا ذراعيه قائلًا:

- الله على المهلبية بالزبيب.

غادر العملان غرفة التحقيق، وكل منهما يشعر بالضجر

تجاه الآخر، بينما مد مُندي الخطى وأخرج من جيب سرواله الجينز المهترئ هاتفه المحمول، وقام بالنقر للاتصال بأحدهم، فظهر اسم المتصل يُزين الشاشة... المعلم عيسى عبيد.

*****

هرول المعلم عيسى عبيد بعدما علمت الشرطة بأمره، وهذا كان نص الحديث الذي ألقاه مُندي على مسامعه أثناء حديثه معه عبر الهاتف؛ فقد أخبره أن صديقه سامر ميمون قد قص على ضابط المباحث تلك المشادة التي حدثت صباح ليلة الجريمة مع السيدة رُفيدة، وأنه محل اشتباه.

لم يفكر كثيرًا؛ فقد لملم أغراضه وأخذ حقيبته وقرر السفر فجأة، ولم يبلغ عائلته بالسبب. هرول مسرعًا تجاه سيارته، وعماله ينظرون إليه في حيرة من أمرهم.

انطلق يعدو الطريق بسرعة، وقد تصبب عرقًا وكأن هناك عربة شرطة تهرع خلفه، إلى أنه عندما مسك خط الطريق الساحلي، اصطدم بآخر شيء كان يتوقعه؛ فقد كانت هناك لجنة مرورية على الطريق تقوم بتفتيش كل سيارة.

جفف عرقه بعدد كبير من المناديل الورقية، وما أن وصل عند اللجنة، تصنع الابتسام والعجلة، ولكن ضابط المرور لاحظ عليه التوتر والقلق:

- بطاقتك والرخص.

أتى بهم عيسى على عجالة فسقطوا منه من شدة توتره، فهذا المعلم عيسى بوقاره و هيبته يرتعد كجربوع مذعور.

أخذهم الضابط وتمعن النظر فيهم ثم حرك بصره إليه في توجس قائلًا:

- أستني هنا.

ذهب الضابط وأجرى مكالمة هاتفية وكأنه يُلقن لأحدهم الرقم القومي الخاص بعيسى، وما أن انتهى حتى مد الخطى تجاه عيسى وفتح الباب قائلًا:

- انزل يا روح أمك.

- في إيه يا باشا؟!

- في إيه! ؟!.. أنت مطلوب القبض عليك.. انزل يا حليتها.

*****

داخل مكتب البوص الكبير..

أخذ أدهم الديناري - البوص الكبير- ينفث دخان سيجاره بهدوء وسط ظلام الغرفة الذي يوقع الرهبة في النفوس،

يتنظر ضيوفه بشوق، طقطق رقبته كشيطان يتأهب لرسم خطته، لحظات مرت كالدهر، طرق الباب فدلف مليجي بجسده الممتلئ وهو مُمسك بمقبض الباب، لم ير ملامح وجه سيده، ولكنه أردف قائلًا:

- البشوات وصلوا يا بوص.

سحب أدهم الديناري نفسًا آخر من سيجاره ثم أطلقه باتزان مُجيبًا:

- دخلهم يا مليجي ومش عايز إزعاج صوت خطواتهم مسمعهوش.

- حاضر يا بوص.

قالها مليجي ثم أومأ إلى الاثنان الذين وقفوا خلفه، فتقدموا إلى دهليز أدهم الديناري المظلم، أشار إليهم مليجي إلى أريكة من العصر الأندلسي، فجلسوا عليها بهدوء بعدما أشار إليهم مليجي بعدم إصدار أي صوت.

جلسوا بهدوء وبدت على وجوههم الريبة حتى أنهم شعروا برهبة هذا الظلام المريب، وصوت فرانك سيناترا يعلو من جرامافون عتيق.

نظروا إلى بعضهم البعض في توجس ثم نظروا أمامهم، من شدة الظلام لم يعلموا أهذا أدهم الذي يراهم أم هذا هو ظهر المقعد، ولكن ما هي ثوانٍ وقد جاءت الإجابة.

وقف صوت فرانك سيناترا وكأن أحدهم أزاح الإبرة من فوق الأسطوانة، ثم شعروا بخطوات تدنو نحوهم، خطوات ثابتة، متزنة، إلى أن توقفت فجأة فدنى الرعب إلى قلوبهم، واسترقوا السمع لهذا الصوت الأجش الذي صدر من بين جنبات الظلام:

- أهلًا بالبشوات.. طبعًا انتم عارفين أن مدة المقابلة معايا لا تتعدى الدقيقتين.. و ده أحسن لكم طبعًا ولا إيه يا سيادة المقدم تامر؟!

عدل المقدم تامر من وضع رباط عنقه وأجاب بصوت مبحوح:

- مظبوط يا بوص.

- أنا جبتكم في مهمة بسيطة عشان رجالتي النسوان مش عارفين يقوموا بيها.

فتسأل المقدم تامر بتوجس:

- مهمة إيه المرة دي؟!

- هتعرفوا كل حاجة.. قولي يا سيادة المقدم أنور مين

الضابط اللي مسك القضية.
أجاب أنور بصوت مرتعش:
- الرائد علاء الشرقاوي.
ما أن قالها المقدم أنور حتى أطلقت صوت قهقهة عالية من قبل أدهم الديناري قائلًا:
- اختيار ابن حرام أحيي العقيد الجزيري على اختياره.. طيب حلو عشان نعرف نلعب كويس.. خدوا بالكم ده ضابط مش سهل.
فقال تامر ناقمًا:
- على نفسه يا بوص ده حتة عيل شايف نفسه.
اقترب أدهم من رأس تامر حتى شعر تامر بأنفاسه الساخنة ثم أردف أدهم بصوت شيطاني:
- طب ما تورينا أنت نفسك يا سيادة المقدم.
تراجع تامر برأسه مرتعدًا، بينما تساءل أنور بفضول:
- الكلام على إيه يا كبير؟!
تنهد أدهم ووقف بينهم ثم أخرج من جيب سروال بذلته علبة ثقاب وقبل أن يشعلها أردف:
- الكلام على حاجة واحدة بس و هتنفذوها.
ما أن قالها أدهم حتى أشعل عود الثقاب، فأظهرت النيران ملامحه المُقبضة، فقد زُين خده الأيمن بأخدود عميق أمتد من شحمة أذنية حتى فمه، وقد كانت عيناه بيضاء كالثلج، بيضاء بالكامل، فهذا الشخص حتمًا هو أعمى!
انتفضا كلًا من تامر وأنور مذعورين من فوق الأريكة، فهم للمرة الأولى يرون فيها وجه البوص الكبير وهو الذي عاش في سواد حالك طيلة حياته بسببه.
لم يمهلهم وقتًا للريبة، فقد باغتهم مُردفاً قبل أن ينطفئ عود الثقاب:
- آن الأوان مسيرة السفاح ده تنتهي، آن الأوان أنكم تخلصوا على يحيى صفوان هو ومراته وعياله وعايز أعضائهم كلهم.. وطبعًا كالعادة حقكم هيوصلكم.. وخليكم فاكرين اللي بيشوف وشي مبيعش كتير.. روحه قصاد روحكم.. سلام يا بشوات.
ما أن قالها أدهم الديناري حتى نفث في عود الثقاب فخمدت نيرانه، وعادت الغرفة إلى أحضان ظُلمتها الهادئة.

استجواب الأفاعي

جلس المعلم عيسى عبيد بهيئته المهيبة يتصبب عرقًا كطفل مذعور أمام ضابط المباحث المخضرم المحقق علاء الشرقاوي، الذي أمال عنقه وظل يتأمله بتمعن وهو يطرق بقلمه المعدني، المنقوش عليه اسمه، على سطح مكتبه الخشبي، بينما جلس أمين السر يتأهب لكتابة ما سيحدث. أردف علاء وهو يضيّق عينيه بخبث، ناظرًا إلى بطاقة شخصية أمسكها:

- عيسى عبد الجبار عبيد.. بطاقتك دي يا عيسى، مش كده؟!

بلع المعلم عيسى ريقه ونظر بتوجس إلى أعين علاء التي التمعت بالدهاء، وأجاب:

- مظبوط يا حضرة الضابط.

- هممممم... معلش، أصل في ظابط حبيبي جبهالي وجابك ليا بالمرة معاها، حقيقي وفر عليا المشوار... عايز تهرب ليه يا عيسى؟! ليكون أنت اللي قتلت رفيدة صفوان.

صرخ عيسى بها منتفضًا من فوق المقعد الخشبي:

- لا يا باشاااا عليا النعمة ما قتلت حد.. قسمًا برب الكعبة ما قتلت حد مليش في الدم ياباشا أنا.

ابتسم المحقق علاء وأردف مشيرًا إلى المقعد:

- اقعد يا عيسى، اقعد يا راجل متبقاش حمقي.. اقعد ورّوق تشرب إيه قهوة؟!

تنهد عيسى وأخذ صدره يعلو ويهبط من شدة انفعاله، ثم لملم جلبابه واستند على عصاه جالسًا، ثم قال:

- تشكر يا بيه.

- قولي بقى يا عيسى كنت رايح فين كدة بالعربية؟!

- كنت مسافر يا بيه.

- ومسافر فين بقى يا عيسو؟

- شغل يا باشا.

- هممممم أصل غريبة أوي.

- إيه الغريب يا باشا لا مؤاخذه.

- لا متشغلش بالك.. قولي يا عيسى أنت إيه علاقتك بزفيدة صفوان؟!

ما أن أتت سيرة رفيدة حتى شعر عيسى بقبضة اعتصرت قلبه إلى أن أردف:

- علاقة خير يا بيه.
- مكنش بينكم أي خلاف؟!
- و إيه هيجيب خلاف بس يا بيه ربنا ما يجيب خلاف.. العلاقة بينا كانت زي الفل و لسه حاضر عزا عمها من 3 أيام.
- فيك الخير والله يا عيسى.. أصل العمال شافوك بتتخانق معاها ليلة الجريمة الصبح.. كنتم بتتخانقوا ليه يا عيسو؟!
جفف عيسى عنقه بكفه من ذرات العرق التي نبتت حولها ثم أجاب:
- ولا حاجة يا باشا، شغل بينا وشدينا شوية في الكلام.
- شغل بينكم؟!.. اللي أعرفه أنكم منافسين لبعض يا عيسى شغل إيه اللي بينكم؟!
- كان في شغل محدش يعرف عنه حاجة وكلنا ولاد كار واحد يا بيه و انت عارف.
- مممم وأنت ابن بلد وجدع أوى يا عيسى.. قولي كنت فين ليلة الحادثة؟!
- كنت في مخزني بتابع الشغل مع العمال وكذا حد شاهد إني كنت هناك حتى اسألهم.
- هسألهم أكيد.. قولي مُندي كان بيعمل عندك إيه في مخزنك ليلة الحادثة؟!
فرم عيسى ضروسه بغضب وأحتقن وجهه ثم أجاب مترددًا:
- مين مُندي لا مؤاخذه يا باشا؟!
أراح المحقق علاء ظهره في مقعده ورفع حاجبيه قائلًا بتعجب:
- مين مُندي؟!امش عيب تبقى راجل كبير و بتكدب يا عيسو.. بس خليني معاك للأخر مُندي ده يبقى صبي المعلم صابر عارفه ده كمان ولا أعرفك عليه؟!
خبط عيسى بكفه على جبهته وكأنه تذكر ما حدث ليلتها، فقال:
- اااااه يا مُحمدي.. الواد مُندي الحلجني ده.. فعلًا جالي يا باشا قال إيه؟ عايز يصلح بيني وبين الست زُفيدة.. ما نقصش غير العيال اللي هتصلح بينا.
- هممممم وأنت عملت معاه إيه؟!
- وده أسمه كلام يا باشا غورته في داهية طبعًا.. إحنا كبار يا حضرة الضابط ومينفعش ندخل العيال وسطينا.
- راجل يا عيسى، لا معلم بصحيح.

قالها المحقق علاء بخُبث تشوبه السخرية، بينما أدار دفة الحديث كذئب يتودد إلى ضحيته قبل الفتك بها:

- إلا قولي، أخبار البن إيه؟! أسمع أنك عندك بن فاخر.

- تنورني يا بيه وتشرب أحلى فنجان قهوة.

- والله يا عيسى محدش فينا عارف مين هينور التاني؟! ماشي يا عيسى مع السلامة.

- أمشي يا بيه!

- طبعًا أومال أنت ضيفنا.. لو عايز تبيت في غرفة حجز خمس نجوم عندنا؟!

- لا يا بيه وعلى إيه ساموا عليكوا

ما أن قالها المعلم عيسى حتى هب من مقعده وتنفس الصعداء كأسير حرب تحرر من قيده. نظر إليه المحقق علاء الشرقاوي بمكر ثعلب يريد المكيدة لدب كهل لافتراسه، إلى أن توقف المعلم عيسى دفعة واحدة قبل ولوجه من الباب، والتفت إلى المحقق علاء قائلًا كأنه تذكر شيئًا:

- أنا عندي شك في حد يا باشا؟!مفيش غيره اللي يعمل عمله زي دي.

اتقدت حواس علاء ونظر إليه بتساؤل، فأكمل عيسى حديثه قائلًا:

- أنا شاكك في المعلم راضي أبو الفضل يا باشا.

*****

خرج المعلم عيسى وهو يدك بعصاه الأرض دكًا، وكأنه يعلن عن انتصاره في تضليل العدالة. فقد ظن لوهلة أنه كفأر وقع في براثن مصيدة ضابط المباحث، ولكن ذلك الكارت الأخير الذي ألقاه في وجه المحقق علاء الشرقاوي قد يعطل سير القضية، وبالتالي يمهله الوقت لكي يختفي عن الأنظار. لكن بداخله كانت دقات قلبه تتراقص فرحًا، فأخيرًا أوقع المعلم راضي، الذي طالما تمنى الخلاص منه بحيلة أو بأخرى، في شباك ضابط المباحث الذي سيهتم لأمره كون هناك شهادة ضده من قبل ألد أعدائه عيسى عبيد.

وبينما يسير المعلم عيسى في الردهة المؤدية إلى باب الخروج، لاحظ منير صفوان يجلس مهمومًا، واضعًا يديه فوق رأسه مطأطئًا إياها، منتظرًا دوره لإجراء التحقيق معه.

اقترب عيسى منه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة تشفٍ قائلًا بحزن مُصطنع:

- البقاء لله يا منير يا بني.. شد حيلك أنا من ساعة ما

سمعت الخبر وأنا مش مصدق ودائي.

رفع منير رأسه ببطء وقال بلا مبالاة وعينين بدا عليهما الإرهاق:

- البقاء لله وحده يا معلم.

كتم عيسى ضحكة كاد يطلقها رغمًا عنه من هيئة منير البالية، ولكنه طحن ضروسه كاتماً إياها قائلًا:

- متقلقش شوية أسئلة وهتمشي دي حاجة روتينية كده أنت عارف الحكومة.

ثم نظر عن يمينه وعن شماله في توجس، واستطرد حديثه قائلًا بصوت مهموس:

- مش أنت اللي عملتها صح؟!

اتسعت عينا منير وهب من مقعده منفعلاً:

- أنت بتقول يا راجل يا مخبول أنت!!

هنا ابتسم المعلم عيسى مستفزًا منير، ثم ربت فوق كتفه قائلًا:

- على العموم، إحنا لينا كلام كتير مع بعض، خصوصًا لما تعرف أني عارف ورث أبوك الله يرحمه كان إيه.

- إيه!!!!

هنا سمع منير اسمه آتيًا من ناحية غرفة ضابط المباحث، إذ كان هناك جندي يناديه للإدلاء بأقواله. لم يفهم منير ما رمى إليه عيسى، الذي اتسعت ابتسامته لتوه كشيطان فزَّ من الدرك الأسفل ومضى في الرَّدهة بخطوات ثابتة نحو باب الخروج.

دلف منير إلى غرفة ضابط المباحث برفقة الجندي، الذي أعطى التحية لسيده مُطلقًا: (تمام يا فندم) قبل أن يترك منير ويخرج ليقف على باب الغرفة.

تفحص المحقق علاء بنظراته الثاقبة منير؛ لاحظ اهتزاز جسده ورعشة أطرافه وعينيه المُرهقتين ووجهه الشاحب الذي فرت منه الدماء. طقطق علاء رقبته في تأهب لمجراه الحديث، في حركة اعتاد عليها. أشار إلى منير الذي اعتراه القلق للجلوس، فهز منير رأسه شاكرًا إياه، ثم أردف بنبرة حماسية:

- أهلًا يا باش مهندس منير.. بيقولوا لك يا باش مهندس ولا بيقولوا لك إيه؟! أصل معرفش اللي عندهم مطاعم دول يتقالهم إيه!

أجاب منير بصوت متحشرج:

- أي حاجة يا فندم مش هتفرق.

زم علاء شفتيه وهو يتأمل قسمات منير الجامدة بخُبث، ثم أطلق تنهيدة وقال:

- البقاء لله أولًا.. الحقيقة أنا عارف إن الموضوع صعب عليك أكيد وآسف لو جبتك وأنت في الحالة دي بس أنت عارف دي جريمة قتل وإحنا بنشوف شغلنا.

- مفهوم.. مفهوم.

قالها منير بذهن شارد، مثبتًا نظراته على نقطة أمامه حتى إنه لم يطرف نحو علاء عندما أجاب. تعجب علاء من حالة منير وقد مسَّ قلبه الشك، فهذا الشاب لو أنه ارتكب الجريمة، لن يكون بهذا الرثاء.

- باش مهندس منير حضرتك كنت فين ليلة الجريمة؟!

أجاب منير شاردًا:

- في البيت مع مراتي وعيالي.

- هممممم أنت من بعد موت عمك صابر ما شوفتش زُفيدة أختك خالص؟!

- لا يا فندم.

- أنتم كانت علاقتكم كويسة بيعض؟! مفيش أي خلافات من أي نوع.

- يعني إيه من أي نوع؟!

هنا شعر علاء أن السمكة قد التقطت الطُعم، فأردف لاعبًا على أوتار منير:

- يعني اللي عرفته أن عمك صابر كتب كل حاجة قبل ما يموت باسم زُفيدة أختك.. الموضوع ده معملش خلاف بينكم؟!

- آآآه لا مفيش خلاف ولا أي حاجة هو عمي بقى ربنا يسامحه هو اللي عمل فينا كده.

- باش مهندس منير حضرتك ليه مرجعتش للغردقة بعد ما عزا عمك انتهى وطبعًا مفيش حاجة تاخدها الورث كله راح لأختك.. إيه اللي خلاك تقعد؟

صمت منير لثوانٍ وكأنه يرتب الإجابة داخل عقله، ثم أجاب وهو يداعب خاتمًا ذا فص أحمر له طراز كلاسيكي بإصبعه الأوسط:

- كنت عايز أشوف زُفيدة هتعمل إيه ومكدبش عليك كنت عايز أعرف ورث أبويا اللي حرمنا منه عمي طول حياتنا كان إيه.

تأمل علاء الخاتم من بين أنامل منير لبرهة ثم أردف:
- هممم وطبعًا ملحقتش عشان زفيدة اتقتلت.
- الله يرحمها.
حلل علاء أجابته بتمهل وظل يعالج الأمر داخله في عملية متشابكة كشبكة العنكبوت، كاد يهم بسؤاله إلى أن رن جرس هاتف مكتبه فأجاب على الفور:
- أيوه.. آه آه.. هممم لقيتوها فين؟اطب أستأذنك تجيبهالي بسرعة.
قالها المحقق علاء وهو يحدق في منير بشك، ثم أغلق الخط بحماس وظل يتأمله واضعًا كفه فوق السماعة وقد اتقدت عيناه بنيران الشغف. فهم بسؤاله:
- باش مهندس منير.. حضرتك متجوز مش كده؟!
- أيوه يا فندم وعندي بنتين قولت لحضرتك.
- آه فعلًا أنت قولت لي.. مراتك كانت معاك في البيت ليلة الجريمة صح؟!
- آه يا فندم.
- مراتك كانت إيه علاقتها بزفيدة؟!
- مكنوش بيتعاملوا يا فندم هما أول مرة يشوفوا بعض من سنتين كان في العزاء.
كاد منير يكمل إلى أن قرع باب الغرفة فدلف الجندي مؤديًا التحية ثم تقدم ناحية علاء وأعطاه حافظة قماشية بها شيء ما، شكره علاء وأمره بالخروج.
تأمل علاء الحافظة بين يديه، ثم أفرغ محتواها أمامه على سطح المكتب ممسكًا بجبهته. طَرَفَ منير إلى ما فضاه علاء، فوجد سوارًا من الذهب. اتسعت عيناه وازدادت حدة ضربات قلبه. أمسك علاء السوار بسبابته وإبهامه ورفعه أمام أعين منير، الذي تصبب عرقًا لثوه وازدادت رعشة أطرافه. فهم علاء بالحديث وهو يضيق عينيه بخبث:
- عارف الإسوارة دي بتاعت مين يا باش مهندس؟!
بلع منير ريقه ولم يستطيع الرد، فهز رأسه بإيماءة، فأستطرد علاء حديثه الذي كان واقعة كإدانة تحطمت فوق رأس منير:
- برافو عليك.. دي إسوارة هاجر مراتك حتى اسمها محفور عليها أهو.. عارف لقوها فين!؟
صمت علاء الشرقاوي لبُرهة مرت كالدهر على منير ثم أردف مُطلقًا ابتسامة ضبع زينت شفتيه:

- لقوها جوه بطن زفيدة أختك وهما بيشرحوا الجُثة..
منور يا باش مهندس!

إن كيدهن عظيم!
قبل الجريمة بيوم..

على ضوء قمر يتسرب من نافذة زجاجية، جلست السيدة ماجي الإنجليزية تبرق عيناها في الظلام كالسعلاة، ذلك الهجين الشيطاني بين الذئب والكلب أو الضبع والثعلب. لم يتوصل أحد إلى تكوينه الأصلي، فهو يظهر فجأة ويختفي دون مقدمات، موقِعًا الرعب في نفوس الجميع ومصيبًا الذعر الأهالي. أصبح ظاهرة منذ سنوات، ثم اختفى، ولكنه أحد الضواري القاتلة التي نشأت عنها أسطورة مصرية أصيلة كأمنا الغولة وأبو رجل مسلوخة.

رمت سيجارتها السادسة داخل المنفضة وأطلقت زفرة خرج معها خيط من الدخان محمل بأطنان من الهموم التي حطت فوق صدرها. شعرت بأن جدران البيت تضيق عليها، تشوشت الرؤية أمامها، فأغمضت عينيها وأسندت رأسها على ظهر الأريكة متذكرة رحلة عمرها التي أفنتها مع الحاج صابر. كانت تلك خطتها التي صبرت على تنفيذها قرابة خمس عشرة سنة، ولكن سقطت حبكتها كسكب اللبن فوق التراب، وضاع كل شيء.

لم تصدق أن كل تلك الثروة ستذهب جفاءً إلى تلك الساقطة التي تُدعى رُفيدة صفوان، أين حقها!وحق أبنتها ليليان، من المفترض أنها وريثة لأبيها، ما الذي فعلته يا صابر بحق السماء!، كيف تلقى بأملاكك إلى أبنة أخيك الم يكفي إنك أوتها في كنفك وقمت بتربيتها وأجبرتني على رعيتها، كيف لك أن تخون ثقتي؟!الم تصدق أن كل تلك الثروة ستذهب جفاءً إلى تلك الساقطةِ التي تُدعى رفيدة صفوان. أين حقها وحق ابنتها ليليان؟ من المفترض أنها وريثة لأبيها. ما الذي فعلته يا صابر بحق السماء؟ كيف تُلقي بأملاكك إلى ابنة أخيك؟ ألم يكفِ أنك آويتها في كنفك وقمت بتربيتها وأجبرتني على رعايتها؟ كيف لك أن تخون ثقتي؟ تعلم يا صابر أنني ألعنك في كل سماء وكل أرض. أضعت عمري بين يديك وكأني خلطة بُن أردت أن تخضع لذوقك وتروق لمزاجك. لقد كنت عبدة لأهوائك. ولكن لا يا صابر، لن أضيع ما تبقى من شبابي وأخرج من المولد بلا حمص كما تقولون. سأقلب الطاولة على الجميع وليكن ما يكن. سأستعيد حقي بشتى الطرق. أسمعت يا صابر؟ سأستعيده حتى لو كان بين أنياب الشيطان...

FUCK YOU!

صرخت بها ماجي عندما جحظت عيناها بقوة وأمسكت بمنفضة السجائر وألقتها على برواز زجاجي عُلّق على الحائط داخله صورة الحاج صابر... فتهشمت.

اضطربت أعصابها وأصابتها رعشة في أوصالها. بكت بقهر على ضياع آخر آمالها، أحاطت رأسها بكفيها. وما هي إلا ثوانٍ حتى هبت واقفة تترنح بخطوات بطيئة وشعرها الأشقر ينسدل وراء ظهرها. توقفت أمام صورة الحاج صابر المُهشمة، طحنت ضروسها بغضب، وتشعبت الخطوط الحمراء داخل عينيها. فقد آن الأوان أن تعود السعلاة من جديد.

نسجت خطتها داخل عقلها، نظرت إلى الصورة بتحدٍ: "سأريك العرق الإنجليزي على أصله يا صابر." ثم ابتسمت لتكشف عن أنيابها المتنوعة بين ذئب ثلجي وكلب أصابه السعار. تنهدت بارتياح وانطلقت تعدو إلى المطبخ. فتحت أحد الأدراج بعنف وبحثت بعشوائية عن شيء ما حتى وجدت ضالتها.

أخرجت سكينًا لمع نصله على بريق عينيها المُخيف. تأملته كتأمل الشيطان لآدم وهو ينظر إلى تلك الشجرة بشبق. دفنته داخل سروالها الأسود، ولكن قبل أن تخرج تذكرت شيئًا ما. عادت مرة أخرى وتحسست أسفل دولاب المطبخ العلوي عن شيء قد خبأته. اتسعت عيناها غير مُصدقة. ضرب الهلع مدن قلبها، فهي لم تجد إلا الفراغ. أين ذهبت تلك العلبة؟ يا للهول لو انكشف ذلك الأمر! هزت رأسها بأسى وخرجت مُسرعة. عليها أن تجد تلك العلبة وتعلم من ذلك الفأر الذي عسعس عليها قبل أن يطيح بها ويحبسها داخل جحوره العطنة!

*****

- حضرة الضابط بقولك أسورتي اتسرقت.. ليه مش مصدقني!

صرخت بها هاجر وهي جالسة أمام المحقق علاء الشرقاوي واضعة ساقًا فوق أخرى، مشيرة بسبابتها التي يزينها ظفر بلون أحمر قانٍ. اتسعت ابتسامة علاء ونظر إلى النقيب أمين الذي جلس في واجهة هاجر يتأملها ويدقق في حديثها. هز علاء رأسه متفهمًا وبادرها بسؤال وهو يحافظ على هدوئه:

- ومتعرفيش مين سرقها؟!

- هعرف منين يعني أنا قعدت أدور عليها كتير ملقتهاش لو

عرفت كنت بلغت عنه!

- شاكة في حد معين؟!

- لا قولت لا.. ده إيه ده أووووف!!!!

- مدام هاجر أرجو منك أنك تهدئي شوية.. وجود الأسورة في مسرح الجريمة، بل ده كمان جوه الجثة دليل يدينك.. ف والنبي براحة علينا وسعي خلقك شوية الله يبارك لك.. أنتِ مشوفتيش زُفيدة صفوان خالص من يوم العزاء؟!

زفرت هاجر متأففة، وحركت بصرها ناحية سقف الغرفة، وأجابت بحدة:

- قولت لحضرتك مشوفتش حد.. أنا هشوفها بتاع إيه البتاعة دي وإيه هيخليني اروح لها أصلًا.

نظر النقيب أمين إلى علاء، الذي كاد يفقد أعصابه وكور قبضتيه. فكاد يفلت زمامه حيال عجرفة تلك الحرباء، فأشار إليه النقيب أمين مُهدئًا إياه. تنهد علاء متماسكًا وقال:

- يعني بعد ما عرفتي إن عم جوزك كتب لها كل حاجة باسمها، وجوزك مش هيأخذ حاجة وهو غرقان في الديون، فقلتي تروحي لها، وممكن تكوني معرفتيش تتفاهمي معاها، قتلتيها.

زأر وحش النرجسية وقبض على لسان هاجر، فانفجرت:

- أقتل إيه!!.. إنت إيه اللي بتقوله ده؟ إنت اتجننت؟!

لم يتمالك علاء وأطاح بأمواج تسونامي غضبه في وجهها:

- اتجننت!!.. فذي قومي يابت إنتِ.. اتظبطي عشان عليّ الحلال من ديني لأحبسك 24 ساعة. إنتِ قدام ضابط مباحث يا روح أمك مش في صالة بيتكم.

- أهدأ شوية يا علاء بيه ،مش كده.

- أمين بقولك إيه البت دي تتحبس 24 ساعة وتشوف نمرة بنت حرام من نسوان الحجز عشان تعرف تتكلم إزاي مع أسيادها.

انتفضت هاجر من فوق مقعدها مرتعدة، وكادت تبكي، إلا أن وحش نرجسيتها ألجمها ووهبها نفخة أخيرة من روحه، فأردفت وهي تخرج هاتفها الخلوي من حقيبتها:

- أنا هوريكم.. أنا هوريكم كلكم أنت متعرفوش أنا بنت مين!

فأجاب علاء بحدة وهو يعود ليجلس على مقعدة:

- آه، الأسطوانة المشروخة إياها.. وتطلعي بنت مين؟ عرفينا بالسيد الوالد.

- بابا مقاول كبير وهيفرجكم كلكم.
- آه، مقاول؟ هيفرّجنا إيه بقى؟ على شقق!!.. أمين، غورها من خلقتي الساعة دي ونفذ اللي قولتهولك، عشان علي النعمة دماغي متركبش، وألبسها أم القضية دي.

أمسك أمين بذراع هاجر وأخرجها من الغرفة بهدوء، فانتشلت هاجر ذراعها بقوة غاضبة، وأخذت تدق على والدها لكي يجيب وقد أصابتها رجفة بسيطة في أطرافها. أجلسها النقيب أمين على مقعد بالٍ وأمر الجندي أن يلاحظها، بينما عاد إلى غرفة علاء، فوجده قد هدأ قليلاً، ولكن ما زالت آثار الانفعال بادية على وجهه، فأردف قائلًا:

- مينفعش يا باشا كده براحة على نفسك.
- مش ناقصة عوجان يا أمين. أنا طالع ميتيني في القضية دي، والعين عليّ من اللي فوق، عايزين نخلص وكل شوية يطلع لنا خازوق. فمش ناقصة عيلة مفعوصة زي دي تتعوج عليّ عشان مفصلش رأسها عن جسمها.
- روّق بس، روّق.. هو القاتل مش هيطلع غير منهم إن شاء الله.. هطلب لك ليمون تشربه وساعة كده وادخلهالك.

أشاح علاء بكفه في لامبالاة، فاتجه أمين ناحية هاتف المكتب وقام بتبليغ أحدهم:

- شوب ليمون هنا بسرعة يا بني في مكتب علاء بيه.

أغلق أمين الخط وابتسم إلى علاء، الذي قد عاد إلى طبيعته وظل يعبث بهاتفه. فجلس أمين أمامه وأبلغه بأمر ما قد علم بشأنه صباحًا:

- المعمل الجنائي كلموني الصبح يا باشا.

أجاب علاء دون أن ينظر إليه:

- وصلوا لحاجة؟!
- لسه. المادة دي خافية كل البصمات، بس شاكين إن الجريمة تمت بكذا آلة مختلفة. اللي توصلوا ليه لحد دلوقتي: ساطور وسكينة ومنشار، والمادة دي اتحطت عليها بعد ما المجرم اتأكد إن الجثة ماتت، وكأنه كان بيحاول يخفي آثارها.. بس ملحقش يفضي المادة كلها. تقريبًا خطته باظت، حد طب عليه شكله.. فريق المعمل الجنائي لقى شركن مادة الأسيد تحت المكتب، ومتبقي نصه.
- غريبة دي! عارف اللي هيجنني إيه؟ وجود منشار دي.. مفيش غيره اللي بيقتل بالطريقة دي.
- حاجة محيرة سعادتك بس ممكن يكون القاتل حب

يستخدم نفس أسلوبه.

- لا لا يا أمين اللي قتل زفيدة عارفها كويس.. اللي دخل دخل من الباب مفيش أي مدخل تاني في المحل والمخزن اللي وراء كان مقفول.. مش عارف لية قلبي حاسس إن الصقر الأسود يطلع يعرف زفيدة.

- تبقى جت في الجول سيادتك.

- مش عبيط هو يا أمين عشان يوقع نفسه بجريمة ساذجة زي دي وريحتها تفوح.. الموضوع معقد والعائلة دي شامم فيهم رائحة مش مظبوطة.

- كل حاجة هتبان يا فندم بالتحقيق.. نسيت أقول لسيادتك هما بلغوني أنهم لقوا فعلًا بصمات غامضة، ولكن لسه هيتم الكشف عنها.

- يا مسهل أول خيط.. لعله يوصلنا لحاجة.

- خير يا باشا إن شاء الله. تحب أدخلك هاجر تكمل معاها تحقيق؟!

- لا خليها ملطوعة أبعت الواد هيثم جوز المجني عليها أتسلى عليه شوية يمكن يوصلنا لحاجة أو يطلع هو اللي عاملها ونخلص.

- أوامر سيادتك.

قالها أمين وخرج من باب الغرفة، مُكلفًا أمين شرطة باستدعاء هيثم من الزنزانة، بينما كانت هاجر تجلس مضطربة، تهز ساقيها بعنف، تعاود الاتصال بوالدها لكي يأتي ويخرجها من هذا المكان الملعون.

مرت الساعة كالدهر عليها عندما رأت هيثم يدنو نحوها برفقة جندي قد وضع بيديه الأصفاد. هيئته بالية، أشعث، تفوح منه رائحة البول. ازداد رثاء فوق رثاء، وانتشرت جروح سطحية في جميع أنحاء وجهه، وانتفخت عيناه واحتقنت بالزرقة. من الواضح أنه تعرض لمعركة دامية أسفرت عن كل تلك الضربات.

تملقته شذرًا باشمئزاز من أخمص قدميه العاريتين حتى أعلى رأسه، وغطت أنفها بكفها فور مروره أمامها. لم يلاحظها هيثم، بل كان ينظر أمامه هائمًا على وجهه، خاليًا من التعبيرات. أدخله الجندي إلى غرفة ضابط المباحث، وما أن أغلق الباب حتى أدارت هاجر وجهها ناحية باب القسم، ناقمة على كل ما يحدث. لكنها رأت ما جعل عينيها تلتمعان بنشوة شيطانية ليس لها مثيل؛ فقد دلفت من باب القسم سيدة

بدينة ملتفة بعباءة سوداء وتنتعل شبشبًا ذا كعب خشبي. بدت مضطربة بعض الشيء، وانسحب الدم من وجهها. إنها تعلم من تلك البدينة التي رأتها تختبئ يوم العزاء بفجوة مظلمة بردهة المنزل وتدفن شيئًا ما في صدرها. إنها صباح مناخوليا، شقيقة هيثم!

*****

طقطق علاء عنقه متأهبًا للتحقيق مع هيثم الذي أبتلع ريقه ونظر أمامه دون أن يطرف ببصره إلى المحقق علاء، الذي أراح ظهره على مقعده وأردف مرحبًا بهيثم:

- هيثوم.. عامل إيه يا بطل؟!

أجاب هيثم بصوت متحشرج صارع للخروج:

- الحمد لله يا بيه.. الحمد لله.

- إيه زعلان مننا ولا إيه.. أوعى يكون العيال ولاد المَره اللي في الحجز دول عملوا لك حاجة، قولي بس وأنا أجزرهملك.

ابتسم هيثم ابتسامة جانبية وقال:

- لا يا باشا محدش عملي حاجة.. كلهم ولاد حلال.

تعالت ضحكات علاء بقوة، فجعلت أمين السر ينظر بشفقة إلى هيثم ثم سريعًا أعاد ببصره لما يكتبه حتى لا يلاحظه رئيسه:

- ولاد حلال إيه بس يا هيثوم.. أومال إيه الشوارع اللي في وشك دي! أكيد مخبطتكش عربية في الحجز يا هيثوم.

حافظ هيثم على ابتسامته الجانبية ولم يعلق، لكنه تحدث بما جعل علاء ينظر إليه بتعجب:

- هتعدموني إمتى يا باشا؟!

مال علاء بجسده وأسند فكه على يديه مُردفًا:

- مستعجل على إيه يا هيثوم؟! أنت كده كده هتتعدم.. زهقت مننا ولا إيه؟!بس قبل ما تسأل على إمتى هتتعدم عرفني عملتها إزاي.. قتلت مراتك إزاي يا هيثم؟!

- مش هتفرق يا بيه.. كدة كدة لابسها.. ولو حلفتلك على أي كتاب سماوي نزل إني معملتهاش مش هتصدقني؟!

- هممم عاجبني أنك قارئ الليلة يا هيثوم بس جرب تحكي يمكن كلامك يعجبني.

تنهد هيثم وأطرق رأسه لأسفل قائلًا:

- صدقني مش هتفرق.. أنا فعلًا روحت لها ليلتها.

- حلو الكلام وقتلتها ليه؟!

- مجتش جنبها أنا يادوب وصلت هناك لقيتها سايحة في دمها مكنتش بالمنظر اللي حضرتك شوفته بيها كانت جتتها سليمة.

- هممم أومال أنت روحت لها ليه ياهيثم؟! لية مستنتش لحد ما هي تروح وتتكلم معاها.

- مكنتش بتعرف تتفاهم يابيه أخدت مني كل حاجة وحرمتني من عيالي وورشتي اللي حليتي وبأكل منها عيش.. رُفيدة مكنتش بتتفاهم يا بيه.

- أيوة برضو ليه مستنتش لحد ما هي تروح؟!

- عشان كنت رايح أقتلها يابيه.

- إيه!!

- ولما روحت ولقيتها سايحة في دمها جتتي اتلبشت بس حسيت بوجود حد واقف في الظلمة حد طويل ولابس حاجة على وشه مكنتش باينة وماسك مُنشار في ايده.. أنا شفت المنشار بعيني يا بيه.

جحظت عيني علاء وهب منتفضًا من مقعدة قائلًا:

- أنت متأكد من الكلام اللي بتقوله ده!!

كاد هيثم يجيب، إلا أنه تناهى إلى مسامعه صوت جلبة آتية من الخارج، فهرع ليرى ما الذي يحدث. ما أن فتح الباب حتى وجد صباح تتشاجر مع الجندي لكي تدخل إلى علاء. صرخ فيها علاء لكي تصمت، فلم تمهله صباح الوقت وأخرجت من داخل عباءتها علبة سُم الفئران وأشهرتها في وجهه قائلة:

- أخويا بريء يا بيه، أنا عارفة مين اللي عملها... الست ماجي مرات الحاج صابر هي اللي قتلت رُفيدة زي ما قتلت جوزها... واهو الدليل، يا باشا، عليّ النعمة أخويا بريء!

تقلصت قسمات علاء متعجبًا، مشدوهًا، لم يُعلّق وأشار إليها بالدخول. وما كاد يهم بالعودة إلى مكتبه، حتى أتى صوت من خلفه جعله يريد الاتصال الآن بمستشفى للأمراض النفسية ليتم حجزه:

- حضرة الضابط هي دي اللي سرقت الأسورة بتاعتي!

ما أن التفت علاء حتى وجد هاجر تشير بأصابع الاتهام إلى صباح. فعمّ الصمت الأركان، وتلاقت العيون في ترقب لما سيحدث!

بصمات من البرزخ!

لا أحد خارج دائرة الاتهام، الجميع مشتبه بهم، الجميع له غاية من قتل تلك الملاك، زُفيدة صفوان. فالبحث وراء سيرتها أورى إليه كمًا من القصص التي تدل على صفاتها الحميدة ووصمها بشيم الرجال. يبارك لها في دعائه الصغير قبل الكبير والفقير قبل الغني. فقد كانت زُفيدة كقطعة من الجنة دنَّسها الشيطان بأقدامه.

مضت ساعتان على التحقيق ولم يتوصل لأي شيء مهم، فشعر أنه يغرق داخل جبال من الرمال المتحركة. رحل الجميع وأعاد هيثم إلى الزنزانة مرة أخرى لحين ثبوت الأدلة. أغمض عينيه بقوة، فقد اجتاحته نوبة من الصداع كادت تطيح بقلاع عقله. انتابته ذكرى وفاة والده، العميد ممدوح الشرقاوي. فهو ليس كأي أب من وجهة نظره، فقد كان علاء لا يرى العالم إلا بنظرة أبيه. ذلك الرجل الذي كان يهابه الظلام، وتخشاه الضواري، فقد احتواه، وعامله كصديق. علَّمه كل شيء وملأ عقله بالأسرار.

لم يرافقه طويلًا فقد رحل عن حياته ولحقت به أمه بعد أسبوع من وفاة أبيه، لم يعش في نعيمهم كثيرًا فقد تولى صديق أبيه الوفي تربيته وهو من هيئ منه ضابط يهابه الجميع.. اللواء سمير غربال.

لقد أخبره اللواء سمير غربال بقصة مهترئة عن وفاة أبويه، ولكن ظل الرائد علاء طيلة حياته لم يصدق تلك القصة التي لا تدخل على عقل طفل لم يتجاوز السادسة. فهو حتى الآن يتذكر هيئة جثة والده عندما وضعت داخل ثلاجة الموتى بالمشرحة، وشاكلة أمه عندما دخل عليها فوجد جسدها يتدلى من السقف ولسانها خارجًا، وهناك حبل قد عُقد حول رقبتها. ظل يتساءل طوال كل تلك السنوات عن السبب الحقيقي في وفاة والده وانتحار أمه، ولكنه لم يتوصل لأي شيء.

أيقظه من غفلته صوت جرس هاتف مكتبه يدق، فأجاب بلا مبالاة ليأتي صوت النقيب أمين مختار من الجانب الآخر:

- لقينا يحيى صفوان يا فندم.

فأعتدل علاء في جلسته وأجاب بحماس:

- استدعيه على مكتبي فورًا يا أمين.

أطلقها الرائد علاء وأغلق الخط، والتمعت عيناه بشغف لا متناهٍ، متشوقًا لذلك التحقيق الفريد. فلديه حسٌ مريب أن

السر في يحيى صفوان، وأنه يخبئ في جعبته الكثير. هو لم يره قط، ولكنه ذلك الحدس الذي يخبره دائمًا أن ميتة أبيه مغايرة لتلك القصة المفككة التي أُرويت إليه، وهو نفسه الذي يخبره أن يحيى صفوان يعلم شيئًا ما سيغير مسار القضية ويقلبها رأسًا على عقب.

*****

عيادة الطبيب عبد الدايم الحلواني..

نَبَشَ الخوف قبور قلبه، وتشعّب سرطان القلق إلى خلايا عقله، فهو لم يذق طعم النوم قرابة يومين، ولم يستطع أن يمارس مهنته بدقة وتركيز، وهو الذي مارسها لما يزيد عن عشرين عامًا. لقد انتشر صداه بين أروقة الطب النفسي، وأصبح الطبيب النفسي الأشهر. فبخلاف تميزه الحقيقي في عمله، وشفائه لعدد كبير من العملاء والمضطربين نفسيًا، كان المنافس الأشرس لكافة الأطباء على الساحة، كما أنه كان حقًا موهوبًا؛ موهوبًا في قراءة البشر منذ الطلة الأولى. عند جلوسك معه، تأكد حتمًا أنك أمام شيطان يعلم دهاليز صندوقك الأسود الخفي فقط عند النظر إلى عينيك.

أشعل الطبيب عبد الدايم حلواني سيجارته فور خروج آخر عميلة ثلاثينية من عيادته تعاني من اضطراب الشخصية الحدية (Borderline Personality Disorder). كم هو مريب هذا الاضطراب! وكم يحمل من أسرار لم يتوصل إليها عتاولة المجال حتى الآن! فهو كما يطلق عليه دائمًا "الشيطان الأخرس". فقد تمر على العميل فترات من جنون الارتياب ويقوم بإيذاء جسده بآلة حادة لشعوره بالدونية وضعف توكيد الذات، فيشرّط جسده دون تردد ودون الشعور بأي ألم.

على ضوء مصباح مكتبه الهادئ، نفث دخان سيجارته بهدوء عندما لاحت أمامه صورة تلك السيدة التي رحلت منذ دقائق بعد أن كشفت عما فعلته بذراعيها. حقًا كان مشهدًا مريعًا، مثيرًا للغثيان. لقد قامت تلك السيدة بتشويه ذراعيها بسكين، نهشت نصله خطوطًا عشوائية بطول ساعديها، مخلفةً جروحًا عميقة لم تلتئم ولم تحاول حتى تضميدها. تركت روحها تنزف في هدوء أنهارًا من الدماء لم تتوقف. لقد أصابتها لعنة "الشيطان الأخرس" الذي أخبرها أن جميع من يحاولون التقرب منها يفعلون ذلك لغرض شهواني وليس من أجلها. أرادت التخلص من جسدها، ظنًا منها أنه أجمل ما يميزها، وتلك كانت وجهة نظر ذلك الشيطان الأرعن.

لم يكن الغرض من استدعاء المشهد أمامه هو الشفقة على حالة تلك السيدة؛ فقد مرت عليه حالات أصعب من ذلك بكثير. لكنه تذكر ذلك اليوم بكل تفصيله عندما تعين في إحدى المؤسسات العقابية التابعة لإدارة مصالح السجون كأخصائي نفسي. كان هذا حلمه طوال فترة دراسته بكلية الآداب، ولا سيما أنه تخرج واتجه إلى تحضير الماجستير

والدكتوراه ليبدأ مسيرته المهنية.

لم يكن يدري أنه بعد أسبوع من تعيينه في تلك المؤسسة سيتعرض لمغامرة من العيار الفريد. فقد دبت الجلبة ذات يوم لم تطلع فيه الشمس. الجميع يهرعون إلى عنبر الأطفال الجنائي. لم يعلم لما ضرب الخوف أوصاله وشعر برهبة لا مثيل لها وهو يخطو معهم إلى هناك. وحينما وصل، شاهد ما جعل عقله يشت كالمجذوب.

في أحد أركان الغرفة المتشحمة جدرانها بالسواد، والتي تفوح منها رائحة كبريتية نفاذة تضرب أنفك عند دخولك إلى العنبر نتيجة التبول المستمر فوقها من قبل النزلاء، جلس طفل لم يتجاوز العاشرة القرفصاء. وجهه وملابسه ملطخة بالدماء. أمامه جثة لسيدة مسجاة تعمل سجّانة بالمؤسسة، عارية الجسد، مغشيًا عليها. لكن ليس هذا المريب في الأمر؛ المريع حقًا ما كان يحمله ذلك الطفل بين يديه. كان يحمل شيئًا رخوًا يأكله بتلذذ. لم يميز عبد الدايم هويته إلا عندما نظر إلى جسد تلك السيدة، فوجد أن ذراعها الأيسر قد بُتر، مخلفًا تحته بحيرة من الدماء. حينها علم بنوع الطعام الذي يتناوله الطفل. كان الطفل يتناول ذراع تلك السيدة بنهم بعدما هشّم زجاج إحدى النوافذ واستخدم قطعة زجاجية حادة في قطع الذراع. وبين هرج ومرج دبّ في المؤسسة، بدا على قسمات الطفل كل إمارات السعادة!

لم تبرحه تلك الذكرى يومًا. ظلت عالقة بمخه كغدّته النخامية، بالأخص عندما طلب ملف ذلك الطفل وعرف اسمه الذي نُحت بقوة على جدار خلايا عقله ولم تمحه عوامل تعرية الشيب:

أسم الطفل الجاني: يحيى صفوان الصّباغ.

تلك اللعنة التي أطعمها من كبريائه وأعاد ترميمها كمعبد لفرعون كان يمارس طقوس السحر فيه. في كل مرة كان يحاول أن يطهره من دنس ذلك الفرعون الملعون، كانت العوامل الوراثية أشد وطأة وأقوى تأثيرًا. ولكن للأسف، فقد علم عبد الدايم الحلواني، الطبيب النفسي العتيد، أنه وقع في فخ ذلك الفرعون وقدم إليه ابنته كقربان. فتقبلها بكل حب وأسر روحها، وظلت فتاته الوحيدة حبيسة قبر الفرعون، وفات الأوان على استعادتها.

هزّ الطبيب عبد الدايم رأسه في أسى، لم يدرِ ماذا يفعل. لم يستطع التوصل إلى داليا، ابنته، التي كانت تهاتفه كل يوم، وقد مضى يومان منذ أن علم بمقتل رُفيدة صفوان، دون أن

يتلقَّ أي مكالمة منها. حاول الوصول إليها بشتى السبل، ولكن باءت محاولاته بالفشل. حتى ذلك الملعون يحيى لم يُجب على اتصالاته. ذهب إلى منزلهم فأخبره الحارس أن السيد يحيى وعائلته قد سافروا. حاول أن يستفسر عن وجهتهم، إلا أن الحارس لم يكن لديه الكثير من المعلومات ليدلي بها.

بعد تفكيرٍ نبش جدار عقله بمخالبه، قرر أن يحرر محضرًا بتغيب ابنته، وليحدث ما يحدث. عليه العثور على داليا بأي طريقة، فهناك هاجس داخله يخبره أنها ليست على ما يرام، وأن ذلك الشيطان قد فعل بها شيئًا ما.

هبَّ من مقعده ودفع سيجارته بعجالة في المنفضة، وهمَّ بالخروج متأهبًا للذهاب إلى أحد أقسام الشرطة. وقبل أن يغادر، التقط ملفًا أزرق كان يقبع أمامه. مسح ببصره على اسمه وتمعنه بدقة من خلف نظارته الطبية قبل أن يهز رأسه في أسى، زافرًا بخنق. ثم قام بوضعه داخل درج مكتبه وأحكم غلقه بالمفتاح، قبل أن يرحل، تاركًا بحثًا هو الأهم في مسيرته المهنية، يُزينه اسم لطالما بحث عن سره طوال حياته:

(الصقر السيكوباتي)

أهو الجاني أم المجني عليه!؟

*****

دارت الدنيا به، لم يصدق ما حدث، كان هو من عليه أن يفعلها، فمن سبقه يا ترى؟ من الذي سوّلت له نفسه قتل رُفيدة بتلك الميتة الشنيعة؟ ومن له مصلحة في قتلها؟ أهو منير؟ ينتقم منها لاستعادة حق أبينا الذي حُرمنا منه طوال حياتنا؟ ولكن كيف يكون إرثًا وهو ما زال على قيد الحياة؟ كيف؟ كيف يعود الأموات للحياة بعد موتهم؟ حتمًا إنها لعبة سخيفة من أحدهم.

ولكن إذا كانت لعبة، فمن ادعى أنه أبي وكلفه بقتل أخته، لماذا يفعلها آخر؟ أهذا الأحمق كلف أحدًا آخر بقتل رُفيدة؟ من الممكن أن يكون هيثم، زوجها؟ ولكن كيف وهو حبيس؟ أم تكون السيدة ماجي تنتقم لاستعادة إرث زوجها؟ من يا ترى الذي فعلها؟ أقسم أني لم أفعلها... يا لهذا العبث!

ضربت تلك الأسئلة عقل يحيى وهو جالس هائمًا على مقعدٍ بالٍ داخل رواق طويل، أمامه باب وُضعت عليه لافتة كتب عليها (*غرفة ضابط المباحث*). وقف في واجهته جندي ينتظر الإشارة. اعتصر يحيى عينيه بقوة، فقد شعر بدوار وكاد يتقيأ، ولكنه تماسك. مرت الدقائق عليه كأنها أعوام،

إلى أن نادى الجندي على اسمه. فهب يحيى واقفًا، معدّلًا من هندامه، مُشمرًا أكمام قميصه الأسود الذي أضفى عليه هيبة خاصة، متناغمًا مع لحيته الشقراء.

أدخله الجندي إلى غرفة ضابط المباحث. ما إن لمح المحقق علاء الشرقاوي يحيى، حتى هبّ من مقعده مرحبًا بطريقته المسرحية الشهيرة بيحيى، الذي تفرس في وجهه كصقر ممسوس بروح دجال أعمى:

- دكتور يحيى أهلًا أهلًا ده القسم نور والله.. اتفضل يا دكتور.

تعجب يحيى في قراره نفسه من طريقة علاء الشرقاوي، فهي طريقة مريبة ومثيرة للشك، فقد أوقعت الرهبة في قلبه، فمنذ الوهلة الأولى علم أنه أمام محقق ليس سهلًا على الإطلاق. جلس يحيى بهدوء مُبتسمًا، مبادلًا الترحيب مع علاء:

- أهلًا بحضرتك يا فندم.

جلس علاء على مقعده بعدما أشار عن يمينه إلى أمين السر الذي فهم الإشارة وهمَّ بالكتابة. أردف علاء متسائلًا بحذر، إذ بدا له أن يحيى ذو تركيبة غريبة، فتلك العيون تحوي الكثير خلفها:

- معلش يا دكتور جبناك على ملا وشك بس أنت دوختنا يا راجل بندور عليك بقالنا يومين ومش عارفين نوصلك خالص.

حافظ يحيى على ابتسامته وأجاب:

- معلش، أنا كنت مسافر في شغل برة الإسكندرية، ولسه راجع النهارده. أتصدمت لما عرفت اللي حصل.. سيادتك لازم تعرف مين المجرم اللي عمل كده. أنا حق أختي مش هيروح هدر.

تفحص علاء لثوانٍ قسمات يحيى لقراءة لغة جسده، ولكن يحيى كان حريصًا على حركاته. فبحكم كونه طبيبًا وسفاحًا مخضرمًا، كان متقنًا لدراسة لغة الجسد ويستطيع إخفاء حقيقته دون مجهود. هز علاء رأسه وأردف على الفور مُهدئًا إياه:

- أهدأ يا دكتور أكيد حق أختك مش هيروح أومال أحنا روحنا فين! دكتور يحيى بتتهم حد معين بقتل أختك زفيدة؟!

- لا الحقيقة مقدرش اتهم حد بالباطل كده.

- طب كان ليها أعداء.. أعداء في السوق مثلًا؟!

- السوق كله بياكل في بعضه بس مفتكرش حد من المعلمين أو التجار ممكن يعملها.. زفيدة كان لسانها حلو مع الكل الله يرحمها.

- ولا حتى جوزها؟!

- هيثم!.. أنا مكنتش موافق على الجوازة دي مش أختي اللي تتجوز حتة نجار لا يليق بينا ولا بعائلتنا بس ربنا يسامحه عمي هو السبب.. بس هو عيل مش سالك ولا هو ولا أخته ممكن يعملها عادي.

اتسعت ابتسامة علاء بعدما تأكد حدسه تجاه هيثم، ولكنه قرر اللعب على أوتار يحيى متسائلًا:

- لسه هنحقق معاه ونشوف إيه حكايته.. دكتور يحيى تعرف إيه عن حمض الأسيد؟

- حمض هيدروفلوريك أسيد تقصد؟.. ده حمض خطير جدًا طبعًا بيذوب أي شيء وبيستخدموه في تكرير البترول وبعض الأدوية بيدخل في تصنيعها.. ده من المواد الكيميائية الخطيرة ومحظور في بعض الدول.. بس أشمعنى!

- هممم وانت عمرك ما استخدمته؟

- أنا؟! وأنا إيه هيخليني أستخدمه أنا دكتور جراح مليش دعوة بالمواد الكيميائية الخطيرة دي.

زم علاء شفتيه ثم أردف:

- تعرف يا دكتور أن ده نفس الحمض اللي ماتت به أختك.

- إيه!!

تقلصت قسمات يحيى بينما استطاع علاء إدارة دفة الحديث والضرب على حديد يحيى وهو ملتهب:

- قولي أنت قولت لي أنت كنت مسافر ممكن تقولي كنت مسافر فين بالضبط؟!

- مطروح.

- مطروح؟! أشمعنى مطروح؟!

- حضرتك أحنا المستشفى بتكلفنا كل 3 شهور بنبطشية في أي محافظة والمرة دي جه حظي في مطروح.

- هممم حضرتك معاك جواب المستشفى؟!

- آه طبعًا.

قالها يحيى وأخرج من جيب سرواله جواب المشفى وأعطاه لعلاء بدون تردد. بدا على علاء الشك، فهو بالفعل أمام شخصية تتقن التمثيل بأقصى درجة. قرأ علاء التقرير

سريعًا وهز رأسه مُصدقًا يحيى، ثم أعاد إليه الخطاب مرة أخرى:

- جميل جدًا.. قولي يا دكتور أنت مشوفتش أختك خالص بعد عزاء عمك صابر؟!

- لا خالص يا فندم.

- غريبة جدًا... المفروض اللي عرفته أن أختك أخذت كل شيء منكم، وأنت عادي كده؟! مش عايز حقك ولا إيه يا دكتور؟

- لا مش حكاية كده سيادتك أنا الحمد لله ربنا كارمني أوي مش هحتاج لشوية ملاليم سايبهم عمي وأبويا وزفيدة غلبانة هي وجوزها ومحتاجة للفلوس دي عشان تربي عيالها.

أراح علاء ظهره على المقعد وأخذ شهيقًا ملئ به صدره ثم تسأل:

- آه طبعًا لا فيك الخير.. بس عرفت منين يا دكتور أن عمك وأبوك الله يرحمهم سايبين ملاليم!

ارتبك يحيى، ولكنه لملم شتات أمره سريعًا مجيبًا:

- أصل سيادتك ده تاجر بُن وأبويا كان عنده مزرعة طيور جارحة كان معيشنا منها فكل ده مش هيعمل ملايين يعني.

- وهو الطب بيكسب ملايين برضو يا دكتور؟!

ازدادت حدة ضربات قلب يحيى، فهو أمام خصم عنيد، فأجاب وهو يحاول ألا يظهر توتره:

- حضرتك أنا عندي عيادة.. شغل المستشفيات الحكومة مش بيأكل عيش واللي هنا على اللي من هنا ربنا بيكرم وموسع عليا.

- ربنا يزيد ويبارك لك يا دكتور.. دكتور يحيى أنت متجوز مش كده؟

- آه وعندي ولد وبنت.

- ربنا يخليهوملك يارب.. إحنا الحقيقة حاولنا نوصل ليهم بس بواب العمارة بلغنا إنكم سافرتوا.. فكنت عايز أسأل هما معاك ولا لا؟!

هذا السؤال اللعين! فقد كان بمثابة حجر هشّم زجاج تماسكه، فسقط على قسماته وظهر ارتباكه بشكل جلي:

- لا يا فندم أنا طلعت على مطروح هما فعلًا تحركوا معايا بس أنا ودتها لوالدها تقضي عنده يومين عشان كانت أعصابها تعبانة شوية.

- متخانقين؟!

- خلافات عادية بين أي زوجين هي شوية وهتهدأ وترجع.. خير يا فندم هو في حاجة؟!

صمت علاء لبرهة وقد زم شفتيه قبل أن يفتح درج مكتبه ويخرج منه ورقة وضعها أمام يحيى قائلًا:

- أصل كلامك ده غريب أوي.. امبارح بليل اتعمل محضر تغيب باختفاء مراتك وعيالك.. عارف مين اللي عمل المحضر؟!

امتعضت قسمات يحيى ونظر إليه بتساؤل، فأجاب علاء مضيقًا عينيه كالعادة:

- المحضر اتحرر باسم الدكتور عبد الدايم الحلواني.. حماك يا دكتور.

ما أن التقتها يحيى حتى هب من فوق مقعدة منفعلًا:

- إيه اللي سيادتك بتقوله ده!!أنا مودي مراتي وعيالي لحمايا بإيدي إيه التهريج اللي بيحصل ده.

علا صوت علاء مُردفًا بحدة:

- اقعد واتكلم مظبوط أنت قدام ضابط مباحث متنساش نفسك.

هدأ يحيى وتنفس بعمق وجلس قائلًا بتأسف:

- أنا أسف يا فندم.. بس كلام سيادتك بيقول أني.....

قاطعة علاء بصرامة بالغة:

- بيقول أنك تجاوب على قد السؤال اللي بيتسألك وبس.. وديت مراتك وعيالك فين يا يحيى؟!

- يا فندم أكيد في حاجة غلط أنا موديهم لحمايا بنفسي أكيد الراجل ده عقله ضرب أو أكيد حصلهم حاجة.

كاد علاء يهم بدفعة من الأسئلة على رأس يحيى لشكه أنه وراء اختفاء زوجته وأبنائه، إلى أن قطع وصلة أفكاره دخول النقيب أمين مختار إلى المكتب مؤديًا التحية العسكرية، وقد بدت على وجهه أمارات الحيرة، حاملًا بين يديه تقريرًا وضعه أمام علاء بلهفة مردفًا:

- ده تقرير المعمل الجنائي سيادتك عن كل البصمات اللي كانت في مسرح الجريمة، ولكن لفت انتباهنا بصمات غريبة وبالكشف عنها ثبت صحتها.

- بصمات مين يا أمين؟!

قالها علاء وهو ينظر إلى يحيى بشك ويتمنى داخله أن تكون بصماته. ازدرَد يحيى لعابه ونبتت ذرات من العرق حول رقبته، إلى أن أجاب النقيب أمين:

- أنا أسف في اللي هقوله سيادتك بس دي حاجة ضدد العقل والمنطق.

- في إيه يا أمين ما تخلص بصمات مين بروح أمه ده!!

أطلق النقيب أمين زفرة أخيرة وقال:

- البصمات لصفون الصّباغ أبو زُفيدة اللي مات من عشرين سنة!

حملق يحيى مشدوهًا غير مصدق ذلك العبث الذي يحدث! بينما أمال المحقق علاء عنقه باندهاش وحرك بصره بين يحيى والنقيب أمين، وصفّق بكلتا يديه مردفًا:

- ده إحنا وقعنا في وكر ثعابين بقى... آه يا ولاد الحرام!

بينما كان يحيى في عالم آخر، يعتصر ذهنه مُفكرًا: كيف فعلتها حقًا أيها الفرعون الميت؟!

قسم رعاية الأحداث 1988م!

بخطى ميتة، تقدم ذلك الطفل البالغ من العمر عشر سنوات بهدوء غير معهود إلى غرفة وُضعت عليها لافتة نُحاسية باهتة حملت رقم 82، مسح خيط دماء سال على جانب شفتيه، وتعلق بصره بها، كانت الغرفة جدرانها أسمنتية، وأرضها مبللة ظن في البداية أنها ماء، ولكن عندما ضربت أنفه تلك الرائحة الكبريتية عرف هويتها.. إنه بول، يتدلى من سقفها مصباح تنجستيني باهت، وفي ركن الغرفة،كان هناك سرير حديدي رقدت فوقه مَرتبة مهترئة، اتخذت الأبراص بين فجواتها مسكنًا لها، كانت هناك بقعة بُنية تتوسط الوسادة الرفيعة التي قطنت برعب فوق الفراش، من الواضح أن سجينًا قام بقتل أحدهم هنا أو لعله ذبح نفسه، فهذه بقعة دماء لا محالة، قالها في نفسه وهو متيقن من حدسه الذي لا يخطئ أبدًا.

هز الطفل رأسه وعلى شفتيه ابتسامة غامضة، يلوك آخر قطعة لحم تبقت في فمه من ذراع تلك السَجانة التي فصل ذراعها عن جسدها، أخذ يلتهمه بنهم، فقد مضى على وجوده ثلاثة أشهر في ذلك المكان القميء ولم يذق طعم اللحم البشري بعد، فأخر لحم قد تذوقه هو لحم جُثة أمه، عندما رأى أباه ينحرها بقوة ويقوم بتقطيع جُثتها، ذلك اللحم الذي كان له مذاق خاص وذكرى لم يستطيع الزمان محوها أبدًا.

تم إيداعه في عنبر خاص، فبعد قيامه بجريمة لم تكتمل، أصبح خطرًا على الجميع، والكل يشك في قواه العقلية. كان هذا الطفل مريبًا بحق: هادئًا، قسماته باردة، لا يبدي أي تعبيرات، حتى لقبه البعض بالملاك. لكن ما فعله اليوم كان بمثابة الجنون بعينه، فقد قام مسؤول المؤسسة بإرسال خطاب إلى محكمة الأحداث لتُقام جلسة يُصدر فيها القاضي حكمه بإرسال هذا الشيطان الصغير إلى مشفى للأمراض العقلية. فلا أحد يعلم ماذا ينوي أن يفعل أو لما يخطط!

اقترب الطفل من الفراش بعد أن أدخله سجان فخل، ضخم الجثة، إلى الغرفة وفك من بين يديه الأصفاد. فقد أرسلوه معه حتى يسيطر عليه إن فعل شيئًا. ومهما كانت قوة هذا الصغير، لا يستطيع أن يتصدى لهذا الدب القطبي الضاري.

ألقى بجسده على الفراش دفعة واحدة، فقد أصابه الإنهاك فور قيامه بما فعله. تلك السجانة كانت تفوق حجمه أضعافًا، ولم يدرِ حتى الآن كيف سيطر عليها، لكن شهوته لتذوق اللحم أصابته بقوة شيطانية لم يعلم مصدرها.

أغمض عينيه في هدوء وغاب في سبات عميق. أمواج من الكوابيس مسّها الطوفان فهاجت وضربت عقله الباطن:

- مستحيييييل.. قتلت بابا يا يحيى!!

نبتت ذرات العرق فوق جبينه، جسده يرتجّ بقوة من أسفل الغطاء الكتاني ذي الرائحة العطنة، فقد لاحت أمامه من بين جنفات الظلام صورة تلك الأفعى التي تُدعى رُفيدة. كم يكرهها! فبداخله غضب دفين تجاهها، فهي السبب فيما هو عليه. يتذكر جيدًا ليلتها عندما قبض على مقبض السكين بدون وعي وهو قاطن في صدر أبيه. توالت صرخاتها وأيقظت منير أخاه وجميع الخدم. الجميع كان يرى المشهد وهو يهزّ رأسه بأنه لم يفعلها.

ولكن تلك الأفعى لم تنظر إليه بعين الشفقة أبدًا، فقد اقتربت منه كونها شقيقته الكبرى وأخذت تصرخ في وجهه بغضب وهي تصفعه على وجهه بعنف حتى توزّمت وجنتاه:

- لييييييه عملت كده!!.. لييييه!!.. أنت مجنون مستحيل تكون طبيعي، مجنون مجنون، مجنون.

ظلت رُفيدة تكرّرها وهي تصفعه دون رحمة. أفلته منير، شقيقه الأوسط، من بين يديها وتنحّى به جانبًا، فأخذ يحيى يقسم أنه لم يفعلها. هدأ منير من روعه وربّت على يديه بحنان ثم خرج به من باب الغرفة ومنه من باب الفيلا وأخذ يهدّئه. كان يحبه كثيرًا، على عكس تلك اللعنة التي رسمت عليه دور الأم فور فراق أمه، ولكنها كانت قاسية عليه، تعاملُه بجفاء. فقد كان يلزم غرفته حتى يتحاشى التعامل معها، يستمع إلى صوت أحمد منيب وتلك الألحان النوبية التي زرع أبيه بذرتها في وجدانه، فهام بها حبًا.

مرّت ساعة على خروجهما، هدأ يحيى قليلًا وقرر منير أن يعودا أدراجهما إلى الفيلا، ولكن لم يعلم يحيى أن فور وصوله ستكون هناك مفاجأة بانتظاره، مفاجأة ستغيّر مسار حياته من بعد تلك الليلة. ففور دخوله من باب الفيلا الخارجي وجد عربة شرطة الأحداث بانتظاره، وعلى جانبهم وقفت رُفيدة تتملّقه بحزم وضغينة، عاقدةً يديها أمام صدرها.

ظل يحيى يصرخ بقوة والشرطة تقوم بوضع الأصفاد في يديه. يبكي بقهر، ألقى بجسده في الأرض، فأخذ رجال الشرطة يجرّونه بقسوة. عضّ على لسانه رغمًا عنه، فسالت الدماء من فمه. رُفيدة تنظر إليه بتشفٍّ، ومنير تسمرت قدماه ولم يقوَ على الحراك. ضرب الخدم على كفوفهم مشدوهين.

الجميع يشاهد وصوت بكاء يحيى يعلو من سيارة الشرطة التي أطلقت عويلها وأخذت تبتعد عن أنظارهم رويدًا رويدًا حتى اختفت.

يتذكر آخر زيارة من زُفيدة كانت منذ شهر، فقد أتت بصحبة عمه صابر الذي يمتلك مطحن بُن صغير. لم يتفوه بأي كلمة، نظراته كانت ميتة بلا معنى. ظلت زُفيدة تثرثر كثيرًا، ولكنها لم تعلم أن الرؤية أمامه كانت يغلفها السواد من كل جانب. فهو لا يراها، ولا ينصت إليها. تناهى إليه صوت عمه صابر من بعيد وهو يردف:

- الود ودي كنت طلعتك يا بني وخدتك معايا أهو حالك ينصلح.. بس أنت لازم تتأدب على العملة اللي عملتها.. حد يقتل أبوه اللي آنيه.. أسفخوس على دي تربية.

ابتسم يحيى ابتسامته الجانبية ومسح على خصلات شعره الصفراء وهو يتأمل عمه بنظرات باردة قائلًا:

- دي البداية يا عمي.

ثم وجه بصره أتجاه زُفيدة وأردف هامسًا إليها:

- في يوم من الأيام هقتلك يا زُفيدة.. سامعة؟! أنا هقتلك وهكون أسوأ كوابيسك.

أطلقها يحيى، ثم كشف عن أسنانه بابتسامة بدت غامضة ومريبة، ولأول مرة تهاب زُفيدة نظرات ذلك الصغير الذي أخذت تتحكم به منذ وفاة والدته. بلعت ريقها بتوجس وتحاشت النظر إلى عينيه، متجهة إلى عمها الذي أحاطها بذراعه، واتجها إلى باب الخروج. لكن صوت يحيى ظل صداه يضرب حصون أذنيها كل ليلة، يمسها كمس الجان:

- هقتلك يا زُفيدة.

لم يتحمل يحيى الموجة الأولى من الكابوس التي لطمته بنظرات شقيقته الجامدة، ومعاملتها القاسية، وصرخاته عندما وضع رجال الشرطة الأصفاد في يديه. ما كاد يرسو على شاطئ النجاة لالتقاط أنفاسه حتى لطمته موجة أخرى بمشهد داخل مزرعة بها عدد لا بأس به من الطيور الجارحة في يوم مشمس. يقف بجانب والده، ينظر إلى ذلك الصقر الأسود الذي أخذ يعقعق بقوة في السماء، ثم هبط بثبات على سور الفيلا. ابتسم إليه والده وأردف وهو يشير إليه:

- عايزك يا يحيى تكون زي الصقر الأسود ده.. شايف قوي إزاي! تعرف أن قصته غريبة أوي الصقر دي يا يحيى.

- غريبة إزاي يا بابا؟!

- تاني بابا؟!.. قولتلك طول ما إحنا في المزرعة اسمي الفرعون.. سامع!!؟

ارتعد يحيى من نظرات أبيه الصارمة التي كادت تُخرج نارًا، فأومأ برأسه دون أن ينبس بكلمة. استطرد أبوه الحديث قائلًا:

- الصقر ده أتولد لقى نفسه بدون أب وأم.. كان معاه في العش أخين كمان.. هو كان مميز عنهم في كل حاجة.. لونه مختلف.. حتى ذكاءه مريب يا يحيى.. عاشوا فترة مش عارفين ياكلوا.. تعرف عمل إيه الصقر ده يا يحيى؟!

دق قلبه بقوة كادت تقتلع ضلوعه، شعر بأن هناك أحدًا يقبض على روحه. لم يجب، بينما أكمل أبوه حديثه:

- أكل أخواته يا يحيى.. عشان يعيش.. هو ده كان قانون البقاء.. لو معرفتش تاكل يا يحيى هتتاكل.. حتى لو كانوا أخواتك.. سامعني؟ حتى لو كانوا أخواتك.

قالها الأب وأمسك بيده اليمنى واقتربا من الصقر الأسود الذي أمال رأسه ونظر إلى يحيى في تحفز وكأنه فريسة. وما أن وصلا إليه حتى ربّت أبوه على ظهر الصقر، قائلًا دون أن ينظر إلى يحيى:

- ولما كبر شوية اتجوز وبقى له أسرة زي أي صقر، ولكن عارف يا يحيى الغريب في الصقر ده أيه.. أنه لما اتجوز وخلف قتل مراته وعياله وأكلهم.. وكل مرة بيتجوز فيها بيقتل اللي بيتجوزها.. كأن له قانون بقاء لوحده.. مش عايش عشان حد ولا له خير في حد غير نفسه.. نفسك دائمًا هي اللي باقية لك يا يحيى مهما كنت بتحب اللي حواليك وبيحبوك.. لو خسرت نفسك هتخسر كل حاجة.. خلي ليك قانون بقاء لوحدك.. تبقي أنت وبس فاهمني يا يحيى أنت وبس.

قالها الأب، ثم أمسك بكف يحيى بحنان وقربه من رأس الصقر. لم يدرِ يحيى أن يديه تقتربان من فمه وليس رأسه تحديدًا، ولكنه علم ذلك فور ما رأى فاه الصقر ينفتح ويقبض بنابه الفولاذي على كف يحيى، الذي نظر إلى أبيه غير مصدق، ولكن أجابه الأب بابتسامة لم يعلم فحواها حتى الآن. فقد شقت صرخاته عنان السماء عندما ظلت يداه تنزف دمًا من فجوة دائرية تكونت ببطن كفه؛ فهذا الصقر قضم جزءًا منه باتفاق مع والده.. ذلك الفرعون المختل!

أفاق يحيى من أمواج كوابيسه اللعينة ليجد نفسه محاطًا بأعمدة حديدية داخل قاعة كبيرة تعج بحشد من الناس،

ينتظرون حكم القاضي في قضية هذا الطفل الذي قتل أباه. لمح أشقاءه وعمه يجلسون، تملّقهم شزرًا، ثم التفت إلى القاضي وهو ينظر إلى الأوراق التي أمامه قبل أن يصدر حكمه، الذي كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير:

- بناءً على قانون رقم 31 لسنة 1974م، حكمت المحكمة حضوريًا بإحالة الطفل يحيى صفوان الصباغ إلى مستشفى المعمورة للطب النفسي، وذلك لثبوت خلل بقواه العقلية.. رُفعت الجلسة.

خللٌ بقواه العقلية! لم يصدّق أن تؤول الأمور إلى ذلك. سيكون آخر المطاف به داخل مستشفى المجانين. آخر مرة رآها كانت في أحد أفلام إسماعيل ياسين ذات الكوميديا السوداء: *إسماعيل ياسين في مستشفى المجانين*. كان يضحك من صميم قلبه، ولكنه لم يعلم أن ذلك الضحك سيتحول إلى كابوس يرافقه طيلة حياته، وأن اسم إسماعيل ياسين سيُمحى ليُكتب بدلًا منه: *يحيى صفوان في مستشفى المجانين*. لكن حقًا، ليس هذا بفيلم ولا كابوس؛ إنه واقع مرير طالما حاول أن يبتلعه، ولكنه لم يستطع.

يتذكر ذلك اليوم جيدًا. فبعد يومين من صدور حكم القاضي الذي لا يفهم معناه على الإطلاق، استدعاه مدير المؤسسة. مضى إلى غرفته بخطوات مختلّ، فقد كان عليه أن يتقن الدور جيدًا حتى يستطيع أن يتعامل مع مَن سيقابلهم من المختلين. وما إن دلف إلى غرفة المدير، حتى أشار إلى رجل يجلس أمامه، يرتدي بذلة كلاسيكية ونظارة شمسية سوداء تُخفي عينيه، وفوق رأسه قبعة ذات طابع فرنسي، يدخن أفخر نوع من السيجار. أسرّ بصر يحيى فور النظر إليه، ولكنه وجد المدير يخبره:

- الدكتور أدهم الديناري، المسؤول عن أستلامك، وهو اللي هيوديك المستشفى.. سلم عليه.

اقترب يحيى بخطوات ثابتة باتجاه ذلك الرجل، ولكن ما إن التفت إليه حتى فزع وعاد أدراجه إلى الخلف. كان هناك شق في وجه ذلك الرجل يشبه شقّ أبيه، شقّ يمتد من شحمة أذنه اليمنى إلى شفتيه السفلى. لكن الرجل اقترب منه مُهدّئًا إياه، نافثًا دخان سيجاره في وجهه، قائلاً بصوت أجش:

- أهلًا بيحيى صفوان دكتورنا المستقبلي.. من النهاردة مش هناديك غير بالدكتور سامع يا بطل!

وتمر الأيام والشهور والسنون ويكبر يحيى في كنف

الطبيب أدهم الديناري، طبيب أمراض نفسية وعصبية بمستشفى المعمورة للطب النفسي، الذي تولى تربيته ولم يدعه بالمشفى، ظن يحيى أن الحياة مع ذلك الطبيب ستتغير وسيعوضه الله خيرًا من حياته السابقة، ولكنه لم يعلم أنه سيخرج من بيت ذلك الطبيب سفاح وسارق أعضاء بشرية تحت لقب طبيب بشري.. فبعد سنوات مضت أدرك الحقيقة الكاملة فهو ليس بشرًا على الإطلاق، فلا فرق بينه وبين ذلك الصقر الأسود، فهو يأكل لحم أخيه ميتًا مثله، فقد مسّه الصقر بلدغته وجعله نسخة منه، ولكن على صورة بشري.. تلك الفجوة الدائرية التي كوّنت حلقة لم يمحوها الزمان كلما نظر إليها، كلما تشوقت روحه للقتل وتناول اللحم، فيا لنشوة ذلك الصقر التي لا مثيل إليها.. ومنذ حينها، أطلق على كنيته لقب (الصقر الأسود) الذي تمنى لقاءه من بعد مقتل أبيه، ولكنه هرب ولم يعد أبدًا.

*****

..2010

أفاق يحيى من شروده على جرس الهاتف الأسود الذي يقطن في كوخه في دهاليز تلك الغابة. قام من مقعده وهو ملطخ بالدماء، فقد كانت أمامه جثة لراعي غنم عجوز رآه في طريقه إلى الكوخ للاطمئنان على داليا، زوجته وأبنائه، بعدما أخلى الرائد علاء سبيله. سال لعابه، فهو لم يذق طعم اللحم البشري الطازج منذ قرابة خمسة أيام.

ما هي إلا ثوانٍ حتى كانت الجثة هامدة. جزّها ناحية الكوخ، ثم أخذ يتناول منها ما لذ وطاب حتى قطع متعته جرس الهاتف.

نظر إليه بتوجس. زوجته وأبناؤه فاقدون الوعي. هبّ من فوق مقعده، واقترب منه، وبتردد غلب على يده اليمنى رفع سماعة الهاتف. فأتى صوت أبيه من الناحية الأخرى مشعلًا جمرة من الحماس داخله:

- آن الأوان ترجع حقك منهم وتعرف مين هما أتباع الشيطان.. آن الأوان تعرف حكاية أصحاب الكهف!

وما أن ألقاها الأب حتى ارتفعت من خلفها ألحان نوبية لذلك العبقري أحمد منيب الذي يُثير نشوته للقتل.

" يا وعدي على الأيام
بندق بابها كتير
ليلها قمر و غيام
وغريبة في المشاويد
وشوك في حضن حرير
بضحك مع الأيام "

الفصل الثالث

"تطهُّر مما يؤلمك بأشد الطرق ألمًا، فبركان الدماء الذي تفجَّر لتوُّه إثر اقتلاعك لضرسك الملتهب... كانت هي ذاتها أكثر اللحظات راحة."

اجتماع فوق رقعة إبليس

بيت الحاج صابر.. القاهرة مساءً.. 2010م

تيك.. توك

تيك.. توك

خيَّم شبح الصمت على المكان برمَّته، ليس هناك أي صوت سوى صوت دقَّات عقارب الساعة التي كسرت الصمت وأضفت شيئًا من الغموض والريبة في نفوس من جلسوا جميعًا.

تيك.. توك

تيك.. توك

تلوت نظراتهم كأفاعٍ مسَّها شيطان الجوع فالتهمت بعضها بعضًا. جلس منير على رأس المنضدة يتملَّقهم جميعًا بتوجس، يداعب خاتمه ذو الفص الأحمر بين أصابعه. عن يمينه جلست هاجر بتأفف، واضعة ساقًا فوق أخرى. بدا على وجهها الإرهاق وآثار بكاء، تتأمل صباح التي جلست في مواجهتها عاقدة يديها أمام صدرها. شرارات الغضب تطايرت من مُقلتي هاجر، تستقبلها صباح برفعة حاجب ونظرات تشفٍّ. على الجانب الآخر جلست السيدة ماجي بقامة ممشوقة، ونظرات باردة تتحرك ببطء اتجاههم جميعًا. على قسماتها الجمود. طغى الزي الأسود على هيئتها، فحتما ستشعر بالرهبة فور النظر إليها وكأن السَّعلاة خرجت من وكرها وأصبحت متأهبة للافتراس.

الجميع تم إخلاء سبيلهم بضمان محل إقامتهم، فقد تم التحقيق مع السيدة ماجي وأنكرت معرفتها بعلبة سم الفئران وكل الحديث الذي أخبرته صباح للمحقق علاء الشرقاوي. وانتهى التحقيق بإخلاء سبيلها كالمعتاد عدا هيثم الذي يعتبر هو أكثر المشتبه بهم نظرًا لوجود أدلة تُدينه.

- أنا زهقت من الهبل اللي بيحصل ده.. جريمة قتل وسرقة وبوليس وتحقيق؟! أنا بنت أكبر مقاول في مصر يحصل لي كده!!.. ده أنا هفرِّجكم كلكم.

أطلقتها هاجر بنبرة تهديدية للجميع. لم يعرها منير بالًا، بينما ركزت السيدة ماجي بصرها اتجاهها. أما صباح فقد ازدادت رفعة حاجبها وقالت بحدة:

- بقولك إيه يا روح النونا، اركني أنتِ وأبوكي على جنب وخلينا نشوف المصيبة اللي إحنا فيها.. أنا أخويا هيتلف حبل المشنقة حوالين رقبته ظلم، وإنتم ولا على بالكم.

- أنتِ تسكتي يا حرامية يا نصابة، وتعرفي بتتكلمي مع مين.. ولو خايفة على أخوكي أوي كده يا حبيبتي روحي سلمي نفسك مكانه عشان إحنا مش فايقين ليكي أنتِ، واخوكي يتشنق، يموت ،يغور في داهية مش شغلتي أنا.. أنا عايزة أخلص من القرف ده كله.

- أنتِ بتتكلمي كده ليه يا مَره يا بت الورمة! عليا النعمة لأجيبك من شعرك وأفعصك تحت رجلي تعاليلي.

احتدم الشجار بينهما، ونهضت صباح كذب خرج من قفصه لمصارعة سحلية. وما كادت تمسك بشعر هاجر حتى فك منير الحصار بينهما بضربة من كفه فوق المنضدة، وصرخ فيهما بقوة أرعدتهما:

- ما تتلموا أنتم اللي الاتنين وخلينا نشوف اللي إحنا وصلنا له.. أنتم أيييييية معندكوش دم.. اللي هتتكلم فيكم هقطع لها لسانها فاهمين ولا لا.

ألقى منير نظرات تحمل الصرامة عليهما، ثم استطرد حديثه بغضب:

- أحنا متهمين بجريمة قتل أنتم مستوعبين ده!!.. مستوعبين إن ممكن أي حد يلبسها عادي وحبل المشنقة يتلف حوالين رقبته من غير ما يكون عملها.. أنا مش عارف أعمل إيه بجد في يوم وليلة كل حاجة أتلغبطت وورث أبويا اللي بتمناه ضاع.

قالها منير ومال برأسه مطأطئًا إياها في يأس، بينما أطلقت السيدة ماجي ابتسامة جانبية على طرف شفتيها مُردفة:

- كل اللي همك ورث أبوك بس يا منير!!.. Isn't this strange?

رفع منير رأسه تدريجيًا ونظر اتجاه ماجي متسائلًا:

- وأية الغريب فيها دي يا مرات عمي؟!

- أصل في عز كل ده وبتدور على ورث أبوك ومش همك أختك اللي اتقتلت.

- هممم وأنتِ كان همك عمي لما سمتيه عشان تورثيه!؟

قالها منير بخبث، بينما اتسعت ابتسامة ماجي وقالت:

- حبيبي أنا مسمتش حد.. حد برضو يصدق صباح مالخوليا ولا مخلاونيا.. صحيح صباح بيقولوا لك إيه؟!

أجابت صباح على الفور بطريقتها المعتادة:

- مناخوليا يا حلوة، وأعرفك معلومة: المناخوليا لو قتلت حد ملوش دبه عندها فاهمة، ولا أقولها لك بالأفرنجي يمكن

تفهميه.

- فككوا من الهري ده كله وقولي لنا يا مرات عمي مجمعانا ليه؟!

تحدث بها منير، بينما هزت ماجي رأسها مُتفهمة وأردفت:

- Ok this is important.. أنا جمعتكم النهارده عشان نحط خطة نرجع بيها ورث صابر وورث أبوك يا منير لما يظهر.. كده كده بمجرد ما يعرفوا القاتل هيعرفوا يرجعوا كل حاجة.

- آه، وإيه الخطة يا عيني وهنعملها إزاي؟!

قالتها صباح بشيء من الاستهزاء، بينما استطردت ماجي حديثها قائلة:

- أنا كلمت المحامي وفهمت إن بمجرد موت الوريث بتروح الثروة كلها لعياله، بس بشرط يكون فيهم ولد.

عبس منير بعينيه وأردف متسائلًا:

- قصدك ياسين ابن رُفيدة هو الوريث الوحيد لها؟!

- مش بس ياسين، وأخته تولاي كمان، الورث هيتقسم بينهم مش بس الفلوس كل المحلات والعقارات، كل ده هيروح لهم.

فاندفعت هاجر قائلة:

- لا ده جنان رسمي.. دول لسه مكملوش عشر سنين، حتة العيال المفاعيص دول يبقوا أصحاب أملاك؟!

فأجابت ماجي:

- بالضبط، ده كمان محدش من أخوالهم له الحق في الملك ده هيبقوا مجرد واصيين عليهم لحين بلوغ السن القانوني.

وضع منير يديه فوق رأسه وأغمض عينيه في أسى، فكل شيء يطير من بين يديه ويذهب جفاءً. فأكملت ماجي حديثها قائلة:

- عشان كده جمعتكم النهارده عشان أقولكم الخطة اللي وصلت لها ومفيش غيرها.. هو حل واحد.

اتسعت آذانهم واسترقوا السمع منتبهين، فألقت ماجي قنبلتها فتفجرت في وجوههم جميعًا:

- إحنا هنخلص من ياسين وتولاي عيال رُفيدة.

شهقت كل من صباح وهاجر، أما منير فاتسعت عيناه مشدوهًا وأردف بنصف وعي:

- أنتِ بتقولي إيه!!

- زي ما سمعت يا منير عيال زفيدة لازم يموتوا.

لم تتمالك صباح نفسها وهبت من فوق مقعدها صارخة في ماجي:

- أنتِ بتقولي إيه يا مَره أنتِ عيال مين اللي يموتوا.. عايزة تموتي عيال أخويا عشان شوية فلوس يا بت المره ده أنا اللي هموتك بإيدي.

انقضت عليها صباح وأحكمت قبضتها على رقبتها بقوة، فاحتقن وجه السيدة ماجي بالحُمرة وكادت تلفظ أنفاسها الأخيرة. إلا أن منير هرول ناحيتها وصارع من أجل أن يحرر صباح عنها. ولم يشعر بنفسه إلا وهو يصفعها بقوة على وجنتيها. تسمرت صباح في مكانها وامتلأت عيناها بالدموع، بينما أخذت ماجي تسعل بعنف. أتت هاجر بكوب ماء وقدمته لماجي لتهدئتها. أشار منير بسبابته إليهم وهو يلتقط أنفاسه من أثر الشجار، مهددًا:

- اسمعوا كلكم.. الكلام ده تنسوه خالص.. مفيش عيال هتموت، أنا مش هقتل عيال أختي.

قالها منير وهمَّ بالرحيل، تاركًا الاجتماع المريب. إلا أن صوت ماجي المتحشرج أوقفه:

- افتكر ديونك يا منير.. أنت عليك ضرائب وكل محلاتك هتتشمع مفيش حل غير ده.

- لو كان موت عيال صغيرة ملهاش ذنب في أي حاجة هيخليني أسدد ديوني، فأهون عليا أتحبس من أني أعمل كده.

- أنت غبي يا منير غبي.. هتضيّع ورث عمك وأبوك!

- لو على ورث عمي فبلوه وشربوا مايته.. أنا كل اللي يهمني ورث أبويا وبس سامعة يا ماجي ورث أبويا وبس.

صرخ منير بصوت عالٍ، ثم مضى بخطوات غاضبة نحو باب المنزل. وما أن فتحه حتى وجد أمامه هيئة قصيرة القامة. عرفه من الوهلة الأولى... إنه المعلم عيسى عبيد. لم يمهله عيسى فرصة للتعجب، بل تقدم إلى داخل المنزل فحمحمًا، ووقف في منتصف الصالة. تأمله الجميع مشدوهين، فابتسم إليهم قائلاً:

- لا مؤاخذه إني جيت من غير ميعاد.. بس أنا كنت واقف بره وسامع كل حاجة.

فبلع منير ريقه ونظرت ماجي إلى عيسى بتوجس، فأستطرد عيسى الحديث قائلًا:

- بس كل ده ولا شاغلني أنا جاي في أمر تاني.. أنا جاي أقولك ورث أبوك يا منير كان إيه.

أمال منير رأسه متسائلًا، فأكمل عيسى حديثه:

- القناع يا منير.. ورث أبوك لزفيدة الله يرحمها هو قناع الصقر الذهبي إياه!!

جحظت عينا منير غير مصدق. كيف عرف ذلك القصير عن القناع؟! وكيف غفل عنه؟! يعلم أنه شرق ليلة مقتل أبيه، إذًا كيف أعيد؟ ومن أعاده؟! وكيف وصل إلى رفيدة؟! ومن أعلم المعلم عيسى عبيد بأمره؟! هناك شيء مريب في الأمر، وعليه أن يكتشفه. يريد أن يعلم من له مصلحة في هذا العبث الذي يحدث!

وبينما كان منير غارقًا في أفكاره، كانت هاجر، زوجته، في عالم آخر. فقد التمعت عيناها بنشوة مريبة، وهي تفكر في حديث السيدة ماجي عن أمر الطفلين... كيف ستفعلها؟ ومن سيفعلها معها؟ وهل تستطيع تنفيذ الأمر بمفردها؟ عليها أن تخطط لذلك، فهو ليس بالشيء البسيط، وحتمًا ستجني منه ثمارًا كثيرة.

*****

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل..

في أحد مخازن البُن الخاصة بمحلات الحاج صابر، تسرب الصبي مُندي كعريس من فتحة صغيرة أسفل باب المخزن الجرار دافسًا جسده بين الباب والأرض، جاهد للدخول، لم يُرد أن يفتح باب المخزن كاملًا حتى لا يلفت الأنظار، أراد العبور إلى الداخل، وما هي إلا دقائق حتي عبر مُندي بسلام إلى داخل المخزن، ضربت أنفه رائحة البُن التي يكرها ويشمئز منها، نفض ذرات التراب من فوق سترته وعن سرواله، ثم نظر عن يمينه ويساره، تأكد أن المكان آمن، فتنفس الصعداء، ومضى ماشيًا على أطراف أصابع قدميه مُتجهًا إلى أجولة البُن، ولكنه كان قاصدًا واحدًا بعينه.

ما إن وصل إليه حتى فتحه بلهفة، ودسّ يده اليمنى بين حبات البن حتى وصل إلى مبتغاه، وما إن أخرجه حتى التمعت عيناه بشعاع ذهبي براق، فقد كان يحمل مُندي بين يديه القناع الذهبي المُطعّم بالألماس، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة شَبِقة وتهلل وجهه فرحًا.

فقد نهب مُندي كل ما كانت تحويه الخزنتان ليلة مقتل سيدته زُفيدة، ففور خروجه من مخزن المعلم عيسى رأى هيثم زوج زُفيدة يخرج من المحل وعلى وجهه أمارات

الرعب وهرول يأكل الأرض بقدميه. تعجب مُندي في قرارة نفسه واتجه ناحية المحل، وما إن دلف إلى الداخل حتى رأى زُفيدة غارقة في دمائها. انتابته حالة من الشلل المؤقت ولكنه سرعان ما التمعت عيناه عندما وجد الخزنتين أمامه. فتش في جثة زُفيدة عن المفاتيح وظل يعبث بأدراج المكتب حتى عثر عليها، ودون تردد فتح إحداهما وأخذ ما فيها. هو يتذكر تلك اللحظة عندما التمعت عيناه ببريق القناع الذهبي، وها هو بين يديه الآن ويعلم أن ببيعه ستتغير حياته ويتحقق حلمه الكبير وسيتحول لقب "صبي" إلى "معلم"... المعلم مُندي فوزي. فسيمحي تاء التأنيث من ملكية اسم أمه (فوزية) الزانية، ويرتدي ثوب النمرود ليأمر وينهى ويحيى ويميت، ويُصَلِّي له عماله ركعًا وسجودًا.

وبين جنبات الظلام، كان هناك شخص يقف غير واضح المعالم، على وجهه شيء يشبه القناع، ولكنه من الواضح أنه يحمل بين يديه شيئًا ما، شيئًا أشبه بمنشار كهربائي. وبينما مُندي غارق في تأمله للقناع، تحرك ذلك الشخص بخطوات جامدة تجاه مُندي، وبينما هو يقترب منه اصطدم جسم المنشار بعمود حديدي فارتعد مُندي ونظر ناحية الصوت. ولكن لم يمهله الشخص فرصة للتعجب أو الفرار، هجم نحوه بقوة مُخترقًا جسده بالمنشار الكهربائي شاقًا إياه إلى نصفين. فانتفض مُندي نفضة أخيرة، وقبل أن ينزلق جزؤه العلوي عن السفلي، قبض على قناع ذلك الشخص الجلدي، والذي كان على هيئة صقر أسود. وما إن أزاله حتى شهق شهقة أخيرة، ولكنها ليست شهقة الموت، وإنما هي شهقة لمعرفته بهوية قاتله!

أصحاب الكهف1980م!

(الرصد)

الصحراء الغربية.. أرض الدّجال

أمام تلك العيون التي مسها الفزع الأكبر، سقط جسد الديب صريعًا على صخور الكهف الملساء إثر سكين اخترق عنقه بقوة وخرج من الجهة الأخرى، فتهشمت جمجمته إثر السقطة ولقي حتفه على الفور بعد أن أصدر خوارًا أخيرًا من فمه.

وعلى شعاع الغروب الذي تسلل إلى ممرات هذا الكهف المكفهر، أصبحت الرؤية غير واضحة. انطفأت المشاعل التي أشعلها هؤلاء الرجال. لم يصدقوا ما حدث. لم تمضِ إلا لحظات بعد أن أطلق الفرعون تميمة لهزيمة ذلك الرصد وفتح هذا الباب. ضربتهم هزة أرضية قوية، سقطت على إثرها المشاعل من أيديهم، فعم الظلام الأركان. وما هي إلا ثوانٍ والتقطوا صوت صراخ صديقهم. وما إن أضاءوا المشاعل مرة أخرى حتى وجدوه صريعًا والدماء تتدفق من رقبته.

شهق أحدهم وتراجع مذعورًا صارخًا:

- يا خبر أسود روحنا في داهية.. روحنا في داهية.. أنا قولت لكم مش عايز أجي هنا مش عايز كنوز ولا زفت أنت السبب يا فرعون أنت السبب! إحنا هنموت هنا بسببك.

بلع الفرعون ريقه ونبتت ذرات العرق فوق جبينه. ظل ينظر يمينه ويساره عن أي شخص مجهول بداخل الكهف، فهو يعلم أنه ليس هناك سواهم، هم الخمسة بداخله. أتصَدَّق تلك الأسطورة عن ذلك الدجال الذي تحوم روحه حول تلك الأرض ومن يدنو منها يبيده عن بكرة أبيه؟ أم أن هناك خائنًا بينهم وهو من فعل ذلك وسيقتلهم جميعًا واحدًا تلو الآخر حتى يحصل على الكنوز بمفرده؟!

تملقهم الفرعون بنظراته الحادة التي تشبه الصقر. تفرس في وجوههم يريد أن يلتقط الخائن من بينهم. قطع الصمت رجل يرتدي قبعة فرنسية يقف عن يمين الفرعون:

- هنعمل إيه يا فرعون الدنيا هتتقلب بموت الديب أنت عارف ده مش شوية في البلد الدخلية هتلقب الدنيا.

أشار الفرعون إليه بيده أن يصمت، وأردف بنبرة صارمة:

- أخرسوا خالص مش عايز أسمع صوت حد فيكم لحد ما نفكر هنعمل إيه في المصيبة دي.. كل وحد يطلع سكينته

اللي مدهاله قبل ما ندخل ومش عايز نفس.

نظر الرجال الثلاثة إلى بعضهم البعض بتوجس، ثم أخذوا يفتشون جيوبهم عن سكاكينهم التي أعطاهم إياها الفرعون. كان أولهم قد أخرج سكينته بشك، ثم بدأ الجميع يبحثون وينفضون ملابسهم. مضت دقيقتان وباءت محاولاتهم بالفشل؛ لقد اختفت سكاكينهم وكأن الأرض انشقت وابتلعتها.

- يعني إيه السكاكين اختفت!! إيه اللي بيحصل ده يا فرعون؟!.

قالها ذو القبعة الفرنسية وقد تملكه حيرة مشوبة برهبة. ارتسمت على فم الفرعون ابتسامة جانبية، ولم يحد ببصره عنهم، ثم أشار بسبابته إلى الرجال الثلاثة قائلًا:

- الثعلب والعقرب والحنش.. واحد فيكم خاين، ومصلحته واحدة أنه يدخل الباب ويكوش على كل الذهب لوحده.. بس ده عشم إبليس في الجنة أنا الفرعون يا ولاد الحرام.. اللي عمل العملة دي ينطق يا إما قسمًا بالله ما هخليه يخرج على رجليه.

تعجب الثعلب ذو القبعة الفرنسية وأردف مُعاتبًا الفرعون:

- إيه اللي بتقوله ده يا فرعون أنت أتجننت؟! إحنا هنعمل كده في بعض! هي أول عملية ولا إيه؟!

- لا مش أول عملية بس ده ماتش الاعتزال وأنت عارف اللي جوه يسوى كتير وهيعشنا ملوك طول عمرنا.. بس الإنسان أصله واطي وخسيس تقدر تقولي يا ثعلب يا مكار مين اللي عملها؟!.

- ما يمكن روح الدّجال زي ما بيقولوا وجت تنتقم.

- وحياة أمك!! عيب الكلام ده يطلع منك أنت.. ده أنت دكتور نفسي حتى.. روح الدّجال هتخلص علينا كلنا على بعض مش على واحد بس يا دكتور.. اللي عملها واحد منكم.

فهب الحنش ناطقًا:

- وليه ما يكونش أنت يا فرعون اللي عملتها وجبتنا لحد هنا عشان تخلص علينا وتاخد كل حاجة لوحدك.

- إنت بتقول إيه يا بني إنت ما تعقل كلامك.. فرعون هيعمل كده ليه!!

قالها الثعلب، فأسكته الفرعون بإشارة من يده:

- سيبه شكل الحنش عايز يتقطع ذيله ويحصل الديب.

أجهش الحنش بالبكاء مُنهارًا:

- أنا عايز أمشي من هنا يا فرعون مشيني من هناااااااااا..
مش عايز فلوس مش عايز ذهب مش عايز حاجة خالص..
خرجوني من هنا.. خرجني من هناااا يا فرعون.

طحن الفرعون ضروسه بغضب، وانتفرت عروقه واحتقن وجهه، فتقدم بقوة ناحية الحنش، واعتصر عنقه خانقًا إياه، قائلًا:

- اسمع يا مَرة يا وسخة، مش بالمزاج هي... إن شاء الله ما خدت ذهب ولا فلوس، إنت مش شاغلني... أنا اللي شاغلني دمك... دمك عشان أفتح البوابة. وبعدها تغور في داهية وترجع لحياتك حتة صبي قهوجي نتن لا راح ولا جه. سامع يا مَرة؟!

هزّ الحنش رأسه دون أن ينبس بينت شفة، وواصل نوبة بكائه. بينما حرك الفرعون بصره ناحية العقرب، الذي جلس القرفصاء أرضًا بجانب جثة صديق عمره الديب هائمًا. تحجرت الدموع داخل محجريه، ولم يبالِ بما يحدث؛ فهو ليس له صلة بهم ولم يعرفهم.

صديقه هو من اقترح عليه أن يأتي معه لإتمام تلك العملية، ليحصل على نصيبه كاملًا كأنه فرد منهم. فقد كان يعلم الديب أن العقرب يمر بضائقة مالية، وأن ابنته قرة عينه يلاحقها شبح الموت بأجنحته بعد أن أصيبت بمرض نادر بالمخ وتحتاج للسفر للخارج لتلقي العلاج. ضاقت الدنيا بالعقرب بعدما رفض رؤساء عمله منحه فرصة للسفر أو حتى سلفة للمساهمة في علاج ابنته التي لم تتجاوز الخامسة. فلم يجد حلًا سوى أن يستسلم لاقتراح صديقه الديب، لكنه لم يعلم أنها الرحلة الأخيرة التي سيرافقه فيها ويودعه للأبد.

اقترب منه الفرعون بعدما فك قبضته من فوق عنق الحنش، وأردف بنبرة حادة موجّهًا حديثه إليه:

- مفيش وقت للنواح زي النسوان بنتك بتموت قوم أصلب طولك وتعالَ نكمّل اللي كنا بنعمله عشان نخلص.

قالها الفرعون واتجه يعدّ عدته وأشار إلى الثعلب لكي يساعده في نثر الرصاص السائل المخلوط بالزعفران على سطح الباب. تبقت خطوة واحدة، وهي حفنة من دماء كل جسد يريد العبور من البوابة. كان الفرعون على علم بشروط الرصد؛ فلا بد أن تكون الدماء من أي جزء من الوجه فقط، لا أي جزء آخر من الجسم. كانوا جميعًا على علم بتلك الخطوة المريبة التي ستترك أثرًا في وجوههم جميعًا، أثرًا لن يستطيع الزمان، مهما طال، أن يمحوه.

نادى الفرعون على الحنش والعقرب لينضما إليه، ولكن في غفلة من الجميع اختفى الحنش! لم يصدّقوا أنفسهم، فصرخ فيه الثعلب مناديًا إياه بعدما لاحظه يهرول هاربًا من ممر الكهف الضيق إلى الخارج. كاد يلحق به إلا أن الفرعون أمسك بمعصمه مستوقفًا إياه:

- تقبل القسمة على الثلاثة يا دكتور.. يلا بينا مفيش وقت.

استسلم الثعلب ليد الفرعون واتخذ مكانه أمام الباب ممسكًا السكين الذي غُرز في عنق الديب، منتزعًا إياه، متحفزًا لصنع شق في وجهه لكي يعبر ويحصل على حلمه الذي طالما تمناه طيلة حياته، ليقيم مشفاه الخاص ويصبح من أصحاب الأملاك وعِلية القوم.

لم يستجب العقرب لنداءات الفرعون المتكررة، مما استفز الفرعون، فدنا من أذنه قائلًا بخبث:

- أظنّ فرصة زي دي مش هتجيلك تاني.. الحي أبقى من الميت.. قدره.. بنتك بتموت جرح صغير في الوش وحياتك هتبقى جنة.. شغلتك دي مش هتأكلك عيش بنتك يا عقرب مش مسمينك كدة في شغلتك؟!.. الدغ لدغتك الأخيرة وأنقذ بنتك وبعدها هتعيش ملك.

فكر العقرب لثوانٍ، يقلب حديث الفرعون داخل رأسه. وما هي إلا لحظات حتى استجاب ليده الممدودة وقام متكاسلًا. أعطى الفرعون إليه سكينه، وأخرج هو من حقيبته سكينًا آخر وهو يومئ له برأسه أن يفعلها. وقف الثلاثة أمام الباب، وأشار إليهم الفرعون بكفه قائلًا:

- محدش يعور نفسه غير لما أخلص قراءة العزيمة.. جرح من شحمة ودنك اليمين لحد شفايفك سامع أنت وهو!!.. مش محتاج أفكركم أي غلطة فيها موتنا كلنا.

هز كلٌ من الثعلب والعقرب رأسه، وقبل أن يهمّ الفرعون بقراءة العزيمة لفك الرصد استوقفه العقرب بكلمات أغضبته:

- أنا مش هسيب جُثته هنا.. هناخده معانا.

تأفف الفرعون وزفر في خنق ثم أردف بحدة:

- ماشي خده وشيل شيلتك بس لو سيرتنا اتجابت في حاجة بنتك اللي مش عارف تعالجها دي أنا هريحها لك من الدنيا خالص.

- أنت بتهددني يا مَزبلة!! وحياة أمي لأعرفك مين هو العقرب.

اقترب منه الفرعون مهدّدًا إياه:

- أنا الفرعون.. أنا الجحيم بعينه.. لا يفرق معايا أنت مين ولا منصبك إيه.. كلمة زيادة وهفصل راسك عن جسمك سامعني يا روح أمك؟!

كاد العقرب يمسك بتلابيب قميص الفرعون إلا أن الثعلب تدخل وفصل بينهما، وهدأ من روعهما قليلًا قائلًا:

- بس أنت وهو خلينا نخلص اللي اتنيلنا جينا عشانه الدنيا قربت تليل ووجودنا هنا خطر.. يلا يا فرعون خلصنا.

فرم الفرعون أسنانه مرة أخرى ناقمًا وزفر بضيق، ثم اتخذ مكانه. أغمض عينيه بعدما تنفس بعمق، ثم أخذ يردد العزيمة بصوت أجش يخالف صوته، مما أرعد الرجلين. عدّل الثعلب من وضع قبعته الفرنسية وازدرد لعابه في قلق، بينما وقف العقرب ينظر إلى الفرعون بتحدٍّ، وبداخله بركان يغلي. وما أن انتهى الفرعون من قراءة العزيمة حتى أشار إليهم على الفور، وفي آنٍ واحد شق الرجال الثلاثة وجوههم دون تردد، فانطلقت صرخات مكتومة من داخلهم، وأنين ضرب صداه أركان الكهف. ولكنهم اندثر شعورهم بكل هذا الألم فور ما رأوا الباب الحجري يُفتح لأعلى بعدما سقطت قطرات الدماء في ممرات فرعية سلكت طريقها اتجاه الباب. وها هو الحلم يتحقق، والجميع سيصل إلى مبتغاه.

ما أن انفتح الباب حتى التمعت أعينهم بشعاع ذهبي أسحرهم. شعر الفرعون بنشوة لا مثيل لها؛ فحلم حياته الذي سعى إليه طيلة حياته ها هو يتحقق. دقّق عينيه بخبث اتجاه شيء بعينه، فهو لا يريد كل تلك الغنيمة من الذهب، وإنما يريد شيئًا لطالما بحث عنه طويلًا.. إنه ذلك القناع الذهبي الفرعوني المُطعّم بالألماس والأحجار الكريمة الذي طالما بحثوا عنه علماء الآثار ولم يعثروا عليه، وتلك المقبرة التي تشبه حدًا كبيرًا مقبرة الملك المقتول توت عنخ آمون.

تسارعت ضربات قلب العقرب، فمصير ابنته أمامه لتحيا، ومصير صديق عمره خلفه ها قد انتهى. ولكنه لم يعلم مصيره هو إلى أين سيأخذه القدر!

أطلق الثعلب صافرة تنم عن إعجابه بتلك المقبرة الذهبية التي تعج بمقتنيات نادرة ذهبية وسبائك ليس لها حصر ولا عدد.

انطلق الثلاثة إلى داخل المقبرة كلهم قاصدون شيئًا بعينه. فقد اتجه الفرعون إلى التابوت الحجري الذي توسط المقبرة ويحوي جُثة الملك، ومن فوقه وُضع قناع الصقر الذهبي الذي طالما بحث عنه كثيرًا.

نزعه من فوق التابوت وحمد الله أنه ليس بداخله، فهو يعلم أنه بفتح التابوت سشخرج بكتيريا سامة من الأكيد أنها ستضرهم جميعًا.

تأمل القناع بعينيه في نشوة بالغة، ملمسه ساحر، ظل يداعبه بأنامله كالطفل الذي وجد ضالته، لم يعبئ بباقي الذهب فقد ترك كلا الرجلين يعبثان به، وظل يتحرك داخل المقبرة وهو يصرخ بقوة لعثوره على القناع الذي سيجلب له قوة خارقة بناءً على تلك النبوءة التي قرأها في أحد الكتب النادرة، فهذه ليست مقبرة لملك كما يعتقد هؤلاء

البلهاء إنما هي مقبرة الدّجال، ساحر فرعوني عتيد لم يستطيع أحد الصمود أمام سحره، ساحر كان لحم الموتى هو أكثر الأشياء التي تروقه ويتلذذ بها وكان يعلم أماكن الكنوز دون أن يبرح مطرحه، كم أنت محظوظ يا فرعون بنيلك تلك الغنيمة التي سيدونها التاريخ بين صفحاته كسيرة ذاتية لفرعون حديث العهد وريث السحر والسَحره.

وبينما كان كلًا منشغل بأمره، اقترب الثعلب من غطاء تابوت الساحر، كان فضوله أقوى من أي شيء عندما لاحظ الفرعون يُمسك بالقناع، فأدرك أن هناك ما لذّ وطاب بداخل التابوت، وفي غفلة من الفرعون والعقرب الذي أخذ يدسّ السبائك في حقيبته الجلدية، أزاح الثعلب الغطاء الرخامي بقوة، فكشف عن فجوة صغيرة، رأى شيء يلمع بالداخل، دقّق نظره واقترب، وما أن اقترب حتى أنفجرت في وجه قنبلة من الأتربة مخلفة سحابة خضراء اللون، ما أن اصطدمت بعينيه حتى صرخ بقوة وسقط أرضًا صارخًا من ألم أجتاح عينيه.

توتر الفرعون وهرول العقرب إليه ليرى ما حل به، ولكن كان هناك أمر آخر يحدث أرعبهم جميعًا. إنه الباب... الباب الحجري يهبط ببطء ليُغلق. صرخ الفرعون في الثعلب لكي يلملم شتات أمره قبل أن يصبحوا حبيسين تلك المقبرة للأبد.

هرول الفرعون إلى الخارج بعدما دفن القناع في حقيبته، وأمرهم بالإسراع. حاول العقرب جاهدًا أن يرفع الثعلب مستندًا عليه، إلا أنه كان يحتاج إلى مساعدة من الفرعون الذي رفض العودة مرة أخرى إلى داخل المقبرة. الباب يُغلق، ليس هناك وقت. صرخات الثعلب بألمه تشق الأرجاء:

- مبقتش شايف حاجة.. مش شاااايف حاجة.

حاول العقرب جاهدًا جره من قدميه إلى الخارج، وبالفعل

نجحت الخطة وأصبح الثلاثة بالخارج. وما كادوا ينطلقون حتى تذكر العقرب حقيبته، فعاد أدراجه إلى الداخل في نفس اللحظة التي صرخ فيها الفرعون:

- بتعمل إيه يا مجنون!!

قفز العقرب برشاقة إلى الداخل، واحتضن حقيبته، وما كاد يقفز إلى الخارج حتى أغلق الباب وعمَّ الظلام الأركان. لكن اختلطت مع صرخات الثعلب صرخات أخرى ميزها الفرعون من بين جنبات الظلام. إنها صرخات العقرب! لقد أغلق الباب الحجري على قدمه اليمنى فبترها!

لم يستطع الفرعون أن يفكر، خصوصًا بعدما شعر بهزة قوية ضربت الكهف فور إغلاق الباب. يا للهول! الصخور تتساقط! سيُهدم الكهف فوق رؤوسهم. لم يدرِ ماذا يفعل! إن بقي سيكون في عداد الموتى. لم يستطع إنقاذ أحد منهم، فالجميع يصرخ. لم يحتج الأمر منه إلى الكثير من التفكير، فقد حسم قراره بالهرب. وبالفعل أخذ يعدو في الممر الضيق إلى الخارج متحاشيًا سقوط الصخور فوق رأسه، حتى لمح باب الكهف فقفز بسرعة لاهثًا. وما إن خرج حتى تهدم الكهف بالكامل وسُد بابه بالصخور، حابسًا بداخله رجلين وجثة وعددًا لا بأس به من سبائك الذهب التي رفض الساحر الفرعوني تركها حتى بعد موته.

تأمل الفرعون الكهف الصخري للحظات ثم أخذ يشق طريقه في الصحراء عائدًا إلى عالمه، شاعرًا بقوة القناع تدنو من أوصاله، متشوقًا لتذوق اللحم البشري. كيف سيكون مذاقه يا ترى؟!

*****

داخل الكوخ.. 2010م

لم يُصدق يحيى ما قصه عليه أبوه عبر الهاتف. أهي قصة حقيقية أم من وحي الخيال؟! ثم من هؤلاء؟! وكيف له أن يعرف هويتهم (الثعلب – الحنش – العقرب – الديب)؟! من هؤلاء يا ترى؟! ولِمَ أطلقوا على أنفسهم تلك الألقاب؟! كادت الأسئلة تنهش جدار عقله إلى أن عاد صوت أبيه بعد تلك المقطوعة النوبية التي أدارها فور انتهائه من قص القصة قائلًا بصوت أجش:

- مكنش قدامي حل تاني غير إني أهرب يا يحيى وإلا كنت هموت زيهم بس بعد كل السنين دي كنت مُغفل للأسف طلعوا عايشين يا يحيى طلعوا عايشين وسرقوني.. أنا عايز حقي منهم.. خطة الفرعون الأخيرة إنك تقتلهم وأولهم الثعلب.

- و ده هوصله إزاي و مين ده أصلًا؟!

- أدهم.. البوص الكبير أدهم الديناري هو الثعلب يا يحيى.

- إيه!!!!

الثعلب داخل غرفة الإعدام..

خرج علاء الشرقاوي يائسًا، مُحطمًا من ذلك المنزل الذي وُضعت عليه لافتة (شقة اللواء سمير غربال). فهو كل ما لديه في تلك الحياة، وما بين الحين والآخر يذهب للاطمئنان عليه، فله الفضل الكبير فيما هو عليه الآن.

قص عليه علاء تفاصيل تلك القضية المقيتة، وأخبره بشعوره أنه أشبه بمن يحفر في البحر. فالجميع مُدان، وهناك فجوة في تلك القضية لم يعثر عليها حتى الآن... كيف لبصمات ميت أن توجد في مسرح الجريمة؟! بصمات صفوان الصباغ، والد رُفيدة، وهو الذي لقي حتفه منذ سنوات عديدة... كيف؟!

شرح لأبيه الروحي سمير غربال التفاصيل كاملة، ولكن كما هي عادة سمير غربال، أنصت فقط دون أن ينبس بكلمة. وما إن انتهى علاء من قص تفاصيل القضية، أجابه سمير بنبرة هادئة وعين لم تفارق كتابًا يقرؤه، وهو الذي أدمن القراءة بعد تقاعده من الخدمة:

- امشي ورا كل خيط يا علاء.. خيوط العنكبوت هشة.. وقبل ما تدخل جُحرهم.. لازم تحرقهم وإلا هتتعمي ومش هتشوف قدامك.. فاهمني يا علاء!.

لم يفهم علاء تلك الشفرات المجردة التي يلقيها عليه سمير طوال حياته. كم هو مريب وغامض، لكنه يعشقه؛ فبدونه يفقد بوصلته كبحار فوق سفينته.

زفر بضيق وركب سيارته، وما كاد ينطلق بها حتى أصدر هاتفه المحمول رنينًا. أجاب على مضض، فوجد النقيب أمين يخبره بأنه تم استدعاء المعلم راضي للتحقيق معه. أغلق علاء الخط وانطلق بسيارته هائمًا، شاردًا، ليس له بالٌ لأي تحقيق. في أروقة دماغه كلب ضال يعوي، يريد معرفة السؤال الذي أرقه لأعوام مضت: ما الذي حدث لأبويه؟! ومن المتسبب في ذلك؟!

*****

داخل غرفة رئيس المباحث.. الساعة الخامسة مساءً

- ما هو قولك فيما هو منسوب إليك من قبل المدعو عيسى عبيد؟!

قالها المحقق علاء الشرقاوي بنبرة حازمة، وهو ينظر إلى المعلم راضي الذي حرك رأسه في دهشة وضرب كفًا فوق الآخر متعجبًا مما يُلقى على مسامعه، فرد قائلًا طارقًا الأرض

بنابوته:

- لا حول ولا قوة إلا بالله يا باشا عيسى عبيد ده خسيس الوطينة لامؤاخذه بتجري في دمه بقى أنا أقتل الست زفيدة ليه! ده أنا اللي مربيها على إيدي يا باشا.

مال المحقق علاء بجسده إلى الأمام وألقى سؤاله بقسمات حادة:

- بقولك إيه يا جدع أنت أنا مش عايز صعبنيات أنجز وقولي علاقتك إيه بزفيدة ولية عيسى يتهمك الاتهام ده.

- عشان جبان يا باشا.. عايز يلبسها لأي حد والسلام عشان يطلع منها زي الشعرة من العجين.. هو طول عمره كده بيلبس طاقية ده لطاقية ده.

- وعلاقتك بزفيدة كانت عامله إزاي؟!

- كانت كل خير يا باشا والكل يشهد بده.. ده المعلم صابر ده خيره مغرقني من ساسي لرأسي أخونه وأقتل بنت أخوه ده اسمه كلام يا باشا!.

- آه يعني أنت بتنكر كلام عيسى عبيد مش كده؟!

فرد المعلم راضي رافعًا أكفه إلى السماء:

- يا دين محمد.. يا باشا قول كلام يخش النافوخ أنا عمري ما أذي زفيدة دي في مقام بنتي يا باشا.

- بتتهم حد معين أو شاكك في حد؟!

تنهد المعلم راضي لهنية زامًا شفتيه ثم أردف قائلًا:

- أظن يا باشا لو قولت لك عيسى عبيد هتفكرني بتمسخر عليك وحقك بس أنت متعرفش الخسيس ده عمل إيه.

ضيق المحقق علاء عينيه ومال بجسده إلى الخلف، ساندًا ظهره في المقع،د قائلًا:

- أيواااااا قولي بقى عيسى عمل إيه عشان شامم ريحة نجسة في الحوار ده كله.

أخذ المعلم شهيقًا ملئ به صدره، ثم همّ بالقول:

- يوم عزاء الحاج صابر شوفت رجالة عيسى بيخطفوا الواد مُندي طالعين به على الهنجر القديم بتاع عيسى.. بيني وبينك يا باشا أنا مكنتش مرتاح والفار لعب في عبي خصوصًا أن زفيدة ألف رحمة ونور عليها كانت هتقولي على حاجة كانت سبب في تعب الحاج صابر وموته مقهور بس ملحقتش عشان سمعنا كلنا خبر موت الحاج.

- وحاجة إيه دي بقى؟!

- لما شوفت رجالة عيسى بيخطفوا الواد مُندي طلعت

وراهم وهناك سمعت كل حاجة.. عيسى أجر رجالة حرقوا البضاعة اللي كان شاريها الحاج صابر بحوالي نص مليون وكان ناوي يورد للسوق كله بس طمع عيسى ملئ عينيه وعشان مش عارف يصد في السوق قدام الحاج صابر حرقلوا البضاعة.. وقتها الخبر انتشر زي النار في الهشيم وقالوا أنه ماس كهربي هو اللي ولع في المخزن والبضاعة بس الحاج صابر عرف مؤخرًا أن الجبان عيسى هو اللي عملها.

- هممم أومال هو خطف مُندي ليه؟!

- عشان الواطي مكفهوش أنه يموت الحاج بقهرته لا وكمان عايز يقاسم عائلته في الورث.

حملق المحقق علاء مشدوهًا وقال:

- أنت متأكد من اللي بتقوله ده!!

- الله! زي ما متأكد أنك قدامي يا باشا والخسيس ده هو اللي عملها وقتل رُفيدة بعد ما عرف من الواد مُندي أن عمها كتب لها كل حاجة.

تقلصت قسمات المحقق علاء ومدّ يده ناحية سماعة الهاتف، وما كاد يهمّ بالاتصال حتى سمع صوت طرق على الباب لحقها دخول النقيب أمين مُتلهفًا، لاهثًا، فأعاد علاء السماعة مرة أخرى ونظر إليه في توجس قائلًا:

- في إيه يا أمين؟!

ومن بين ثوانٍ ترقَّب فيها علاء ما سيقوله أمين، أردف أمين من بين لهاثه قائلًا:

- جالنا بلاغ بجريمة قتل في بيت الحاج صابر.. الضحايا ماجي مراته وليليان بنته

- بتقول إيييه!!!

قالها علاء منفعلًا، مُنتفضًا من فوق مقعده، متأهبًا، لاعنًا في سره تفاصيل تلك القضية المريبة، وضع مسدسه في خصره وأنطلق مُسرعًا قاصدًا بيت الحاج صابر ولحق به المعلم راضي وهي يُحوقل في أسى.

*****

داخل مكتب البوص الكبير.. التاسعة مساءً

داخل تلك الغرفة المُظلمة، التي تفوح منها رائحة التبغ المحترق الملوث بالدماء، جلس الثعلب أدهم الديناري على مقعده الوثير يستمع لصوت فرانك سيناترا، ينتظر الموت متلهفًا، وعلى شفتيه ابتسامة لم تُرَ في الظلام، وهو الذي

عاش ما بقي من حياته لا يرى إلا الظلام بعد تلك الليلة المشؤومة.

- كنت مستنيك.. أتأخرت أووي.

قالها أدهم الديناري لشخصٍ ما يقف في منتصف الغرفة بين جنبات الظلام، يحمل بكلتا يديه شيئًا ما شدَّ عليه بقوة، فأردف أدهم الديناري حديثه قائلًا:

- وحشتني يا صقر يا أسود.. ليك شوقة يا يحيى.

تقدَّم يحيى بخطوات بطيئة، فكشف ضوء القمر المتسرب من النافذة عن حلته الجلدية وقناعه الجلدي، مُمسكًا بالمنشار الكهربي مُتأهبًا للقتل، فأردف من خلف قناعه بحزم:

- هي كلمة واحدة ومش عايز لَتّ كتير فين القناع يا أدهم يا ديناري؟!

تعالت ضحكات أدهم الديناري مُجلجة الأركان، ثم نفث دخان سِيجاره في الهواء قائلًا:

- أدهم كده حاف.. الزمن ده عجيب.. قناع إيه يا دكتور؟!

- بقولك إيه بلاش الطريقة دي معايا يا أدهم.. أنا عرفت كل حاجة خلاص.

- وعرفت إيه بقى يا دكتور؟!

دنا يحيى من مكتب أدهم، واضعًا المنشار فوق سطحه، سانِدًا بكلتا يديه على أطراف المكتب:

- أصحاب الكهف.. مش ده كان اسمكم برضو؟!

امتعَضَت قسمات أدهم وبلع ريقه بتوجس ولم يُجب، فأردف يحيى حديثه قائلًا:

- الثعلب، والحنش، والعقرب، والديب.. كلكم كنت تحت قيادة واحد بس.. الفرعون فاكره يا أدهم؟!

ضيَّق أدهم عينيه البيضاوين، ورسم ابتسامة على طرف شفتيه، ثم أخرج من أحد الأدراج مسدسًا ذهبيًا، فتأهب يحيى وأمسك بالمنشار جاهزًا لأي حركة غدر. ولكن أدهم اتجه بالمسدس ناحية شمعدان نحاسي عليه ثلاث شموع زرقاء، فضغط الزناد فخرج لهب ضعيف أضاء الشموع الثلاث، فكشف الضوء عن هيئته المُرعبة. ثم مال بجسده إلى الأمام ناحية رأس يحيى قائلًا:

- متخافش أوي كده دي ولاعة يا يحيى.. لو عايز أقتلك في مليون طريقة أكيد مش ساذج عشان أخلص عليك بمسدس.. موتة رخيصة أوي يا يحيى.. بس قولي القصة دي من تأليفك؟! تصدق تنفع كاتب أوي.

- لا يا أدهم من تأليف الفرعون.. فاكره؟!
- الله يرحمه
- ده اللي أنت فاكره.. أجب أبشرك: الفرعون عايش وهو اللي دلني على الحدوتة كلها.
تعالت ضحكات أدهم مرة أخرى، وأردف ساخرًا:
- بتقول إيه بس يا دكتور.. أنت دماغك فيك يا يحيى يا حبيبي؟! ولا محتاج تروح لدكتور نفسي؟!
ضرب يحيى بقبضتيه على طرف المكتب غاضبًا:
- كلها دقايق ومش هتبقى فيا.. عارف ليه!؟عشان هخلص عليك.. هقتلك يا أدهم يا ديناري.
نهض أدهم من فوق مقعده، محافظًا على تلك الابتسامة، مُتجهًا إلى النافذة، فنظر منها مُتأملًا تفاصيل الليل الذي لم يره، مُعطيًا ظهره ليحيى الذي قبض بقوة على مقبض المنشار مُنتظرًا اللحظة المناسبة للقتل:
- حالتك بقت صعبة أوي يا يحيى.. ما تقول لحماك يعالجك.
- أخلص يا أدهم وقولي القناع فين عشان ورحمة أمي هقطعك وأرميك لكلابك ياكلوك.
هز أدهم رأسه زامًا شفتيه، ثم أردف وهو يُخرج سيجارًا من جيب بذلته ويشعله دون أن ينظر إلى يحيى:
- أنت تعرف يا يحيى ليه سموني الثعلب؟!
لم يتلقَّ إجابة سوى أنفاس يحيى الملتهبة، المتعطشة للقتل، فأردف أدهم قائلًا:
- عشان مش بلعب على وتر واحد.. دايمًا عاطي احتمالية الغدر.. الإنسان غدار بطبعه يا يحيى.. فاكر لما كنت بقولك متتقش في حد، حتى لو كان من لحمك ودمك.. عشان ربنا خالقنا كده غدارين بطبعنا.. عشان كده المكر كان طبعي وأسلوبي مع الكل.. ويومها كنت عارف أن أبوك هيغدر بينا.. عشان كده كنت عامل حسابي.. وكنت حافر بير على مسافة قريبة بيوصل لبره الكهف.. وأنا اللي وجهت العقرب ناحيته وطلعت أنا وهو وأخذنا جثة الديب معانا.
- عشان كده قتلت الفرعون؟!
أدار أدهم جسده ناحية يحيى كأنه يراه ثم اقترب منه على ضوء اللهب، وكانت المسافة لا تتجاوز مترًا، ثم أشار أدهم إلى عينيه قائلًا:
- تفتكر يا يحيى حد بالمنظر ده يعرف يقتل؟!

- مش شرط أنت يا أدهم حد من رجالتك؟!
- مكنش حد يقدر يقرب من الفرعون يا يحيى.. أنت عارف أبوك كويس.. ومتنساش إني نجدتك وأنت صغير وربيتك على أيدي.
- تربية وسخة.
- لا يا روح أمك أنت العز اللي اأنت فيه ده كله من خيري أنا.. أنا إلى عملت منك بني أدم.
- بني أدم!!اتفتكر بعد كل الوساخة اللي عملتها دي لسه أنا بني أدم زي ما أنا؟!أنت خلتني سفاح ومجرم بقتل بدم بارد.
- مترميش اللوم عليا يا يحيى.. أنت أبوك وأخواتك قسوا قلبك ومكنش قدامي غير أني أستفيد من نيتك للقتل يا يحيى.. يحيى أنت ابني اللي مخلفتوش
ما أن قالها أدهم حتى هب يحيى فيه صارخًا:
- متقولش الكلمة دي على لسانك تاني.. عليا الحرام لأهجيب حق أبويا ورُفيدة منك.. انجز يا أدهم القناع فين أنت كده كده ميت.
- تاني يا يحيى! قناع إيه ورُفيدة مين.. أنا معرفش أنت بتتكلم عن إيه!!
- يبقى أنت إلى أخترت يا ثعلب.
قالها يحيى وأدار محرك المُنشار الكهربي، ولكنه أستوقفه أدهم بابتسامة تهلل بها وجهه قائلًا:
- كان نفسي أموت على إيدك يا يحيى.. أجمل حاجة إن الأب يموت بإيد ابنه.. بس للأسف كبريائي يمنعني.. الثعلب لعب لعبته يا صقر ووقعتك في فخي.. في الوقت اللي أنت فيه عندي دلوقتي مليجي وباقي الرجالة بيخصلوا على مراتك وعيالك.. لعبت مع الشخص الغلط يا يحيى.. أنا الثعلب.
- إيه!!
- لو عايز توصل للقناع بتاع أبوك دور على الحنش.. هتلاقي عنده الإجابة.. أشوفك على خير يا يحيى.
قالها أدهم وأخرج يديه من وراء ظهره حاملًا سكين ذهبي مسنون، ومن دون تردد نحر عنقه بقوة فتطايرت الدماء على وجه يحيى، وسقط الثعلب صريعًا بين قدميه، أمال يحيى جسد أدهم مُسرعًا يريد أن يعرف منه الإجابة:
- انطق مين الحنش؟!.. انطق يا أدهم؟!
حاول أدهم أن يتحدث بلسان قد ثُقل، وروح تصارع

للخروج من الجسد:

- قـ ه وة.. عـ يـ سـ.. بـ يـ د.

ما أن أطلقها حتى صعدت الروح إلى بارئها، فحملق يحيى مذعورًا، تاركًا جُثة الثعلب وهرول مُطلقًا قاصدًا الكوخ للألحاق بزوجته وأبنائه، ولكنه طوال الطريق كان يحاول تفسير تلك الشفرات التي أطلقها أدهم قبل موته.. حتى أدركها فحملق غير مُصدقًا داهسًا على مكابح السيارة بقوة!

*****

بالقرب من الكوخ الخشبي..

تقدم المقدم تامر والمقدم أنور خلف مليجي، متجهين ناحية ناحية الكوخ الخشبي الذي تقطن فيه داليا وأبناؤها، يريدون الخلاص من تلك المهمة من أجل نيل رضا البوص الكبير، وتسليم أعضاء جُثثهم إليه وقبض الثمن.

تسللوا بخفة وحذر ناحية الباب، أمَّن مليجي الأجواء ووقف المقدم أنور بجانب الباب مُختبئًا، أما تامر فقد وقف متحفزًا أمام الباب، فعليهم أن يأخذوا حذرهم، فالصقر ليس سهلًا على الإطلاق.. وما أن أشار مليجي إلى تامر بأن الجو آمن، هزَّ تامر رأسه وأخذ شهيقًا ملأ به صدره ثم أسرع دافعًا الباب بقدميه، فانتفضت كل من داليا والأطفال مذعورين، صارخين، ولكن تامر ظل يحوم ببصره باحثًا عن يحيى لعله يختبئ في مكان ما.

وما أن تأكد أن لا أثر له، نادى على الباقيين، فدلفوا مُسرعين إلى الداخل، حاكمين غلق الباب، متأهبين لجرعة عالية من القتل.

وعلى مسافة سبعة أمتار كان هناك شخص يرتدي حُلة جلدية تشبه حُلة يحيى ونفس القناع الصقري حاملًا بكلتا يديه مُنشار كهربي، ما أن وجد الثلاث رجال يدخلون الكوخ حتى تقدم ناحيتهم.. أما على الطريق الزراعي كان يحيى ينطلق بسيارته بأقصى قوة فعليه اللحاق بأسرته قبل أن يقتلوهم هؤلاء الأوغاد.

كابوس الحنش الأسود

بيت الحاج صابر المُحمدي.. مسرح الجريمة

وقف المحقق علاء الشرقاوي جاحظ العينين، مُمتقع الوجه، يتأمل جُثتي ماجي وليليان الذين ثُبتوا على حائط وقد فاحت في الأرجاء رائحة غاز الميثان العطنة المُنبعثة من بطونهما المشقوقة، فقد كان المشهد مروعًا بحق، عُلقت أجسادهما العارية على مَسمارين مُثبتين في الحائط اخترقا سلاسل ظهورهما بوحشية، مُكبلين اليدين والقدمين بأصفاد حديدية، وبُقرت بطونهم وخرجت الأشلاء مُتدلية، حملقت عيونهم وكأنهما رأيا الهول قبل أن يقوم ملك الموت باقتناص أرواحهما، ولكن ما كان أشد بشاعة هو ما تم لفه حول أعناقهما، فقد تم خنق الجُثتين بأمعائهما الدقيقة حتى أحتُقنت وجوههما بالزُرقة وفارقوا الحياة على الفور.

- حصلَ إمتى الكلام ده يا أمين؟!

قالها المحقق علاء موجهًا حديثه إلى النقيب أمين واضعًا فوق أنفه منديل ورقي من أثر تلك الرائحة، فأجاب أمين مُشمئزًا:

- الخدام كانوا في أجازة ورجعوا الساعة سابعة الصبح لقوا المنظر زي ما سيادتك شايف..

- الصقر ابن الكلب!

- نفس الموتة سيادتك.. شق البطن تمت بنفس الآله.

- أفرض مراقبة على كل فرد من العائلة دي يا أمين.. الصقر واحد منهم وعليا الحرام لاهجيب أمه.

قالها علاء بحدة بالغة وقد أستشاط غضبًا، وما كاد يهم بالخروج حتى دق جرس هاتفه، فأجاب على الفور عندما رأى اسم العقيد الجزيري يُزين الشاشة:

- ايه اللي بيحصل عندك يا سيادة الرائد!!!

صرخ بها العقيد الجزيري عبر الهاتف، فتوتر علاء وأجاب متلعثمًا:

- مفيش يا فندم أنا هقدر أسيطر على الموقف.

- تسيطر إيه يا سيادة الرائد!!!الو مش قدها قولي أحولها لحد تاني.. الظاهر إني كنت غلطان.. أخر فرصة ليك يا علاء.. قدامك 24 ساعة وتكون جايب لي القاتل يا أما تسلم ملف القضية للمقدم تامر سامعني!

- مفهوم يا فندم.

أغلق علاء الخط متأففًا، ناظرًا إلى الجثتين مُفكرًا، هازًا

رأسه في يأس، ولكن استوقفه شيء رقد أسفل جُثة ماجي أرضًا وغطته بركة من الدماء، خطا نحوه ببطء، حتى وصل إليه وجلس القرفصاء، وبمنديل ورقي أمسك به، بطاقة بلاستيكية، لم تتضح معالمها بسبب الدماء التي غلفتها من كل جانب، مسح علاء بقع الدماء بمنديل لتظهر تفاصيلها، بطاقة شخصية لشخص ما، دقق نظره ناحية الصورة ليكشف هويتها، ولكن سرعان ما حملقت عيناه في هلع عندما علم هوية صاحب البطاقة، في نفس اللحظة التي هرول فيها النقيب أمين إلى داخل المنزل صائحًا:

- اللحق يا علاء بيه هيثم هرب من السجن!

أصيب علاء بالشلل لبرهة، ولكن سرعان ما هرول إلى الخارج، أخذًا طريقة إلى السجن فارضًا المراقبة والحماية على كل فرد من تلك العائلة النّجِسة، معتصرًا البطاقة بقبضته والتي حملت اسم المسجون الهارب هيثم أبو الوفا.

*****

داخل الكوخ الخشبي..

داخل الكوخ الخشبي.. بضربة مُنشار واحدة مُباغتة، فُصلت رؤوس الثلاثة رجال عن مواضعها، فأزتخت أوصالهم وأطلقوا نافورة من الدماء زينت وجه صاحب القناع المُزيف ومنتحل شخصية يحيى - الطبيب السيكوباتي -، قبل أن يقعوا جُثثًا مُتناثرة، هامدة، فلم تستطع أن تُميز أن تلك الرأس التي بين قدميك لأي جسد تنتمي، فقد كانوا أصحاب رُتب في الدنيا، ولكنهم الآن أصبحوا بلا هوية تُذكر.

تعالت صرخات كلٍ من داليا وحليم ومايان، ظنًا منهم أن من فعل ذلك هو يحيى رهيب أسرتهم، ولكن صاحب القناع اقترب منهم مُلقيًا المُنشار أرضًا فأصدر صريرًا أرعدهم، فك قيودهم جميعًا، وتراجع خطوة إلى الخلف، وفي اللحظة ذاتها التي خلع فيها القناع من فوق وجهه ليكشف عن هويته، حملقت العيون والأبصار إليه مشدوهين. تناهى إلى مسامعه صوت مكابح سيارة يحيى تُهشم هشيم الأشجار، وسرعان ما هرول يحيى إلى داخل الكوخ والمطر يهطل فوق رأسه. فتسمرت قدماه عندما وجد الثلاثة جثثًا صرعى، وزوجته وأولاده مرتعدين، ينظرون إليه في توجس.

نظر إليهم بشك غير مُصدق، ظل يتفرس في وجوههم بريبة: من يا ترى الذي فعل ذلك؟! داليا زوجته؟! ولكن لا، لم تستطع أن تفعلها، بل لم تقو على حمل سكين صغير. من يا ترى الذي فعل تلك الجريمة وتجرأ على أن يُمسك بمنشاره

الكهربي ويقتل مثله!.. من؟!!!!

ولكن سرعان ما أتته الإجابة عندما شعر بشيء ما يتحرك خلفه. التفت دفعة واحدة، ناظرًا إلى تلك الشجرة. دقق نظره إليها. هناك من يختبئ خلفها. ما كاد يتقدم نحوها ليتأكد حتى انطلق منتحل شخصيته يعدو الأرض هاربًا، فلحق به يحيى بسرعة صقر قناص، متمرس في اصطياد ضحاياه. شخصان بحلتين جلديتين، قاتلان، أحدهما مزيف والآخر هو النسخة الأصلية. كان يحيى طوال هرعه خلف ذلك المجهول يفكر: من أنت يا ترى أيها الوغد لتنتحل شخصيتي!.. سأقتلك حتمًا.

وفي أقل من دقيقة، دخل الشخص المجهول إلى مكان مُظلم من تلك الغابة، فتوقف يحيى لبُرهة، يتحسس الخطوات من حوله، فهو يعلم أنه قد وقع في الفخ، وسيباغته المجهول لا محالة.

وما أن شعر بحركة خلفه، حتى التفت بسرعة فباغته المجهول بضربة فوق رأسه من الأمام بجذع شجرة بعد أن أردف بصوت أجش يُشبه صوت أبيه:

- أنا الماضي يا يحيى!

فسقط يحيى أرضًا مغشيًا عليه.

بعد نصف ساعة كاملة، أفاق يحيى من غيبوبته المؤقتة، لكنه لم يجد نفسه في ذلك المكان المُظلم من الغابة، فقد كان مُلقى أمام الكوخ الخشبي. ظل يتأنى مُتألمًا، مُتحسسًا رأسه، ولكنه وجد ورقة سقطت من فوق صدره على كتل الطين المبلل، فأمسكها بأطراف مُرتعشة. كانت الرؤية مشوشة في بداية الأمر.. ولكن سرعان ما اتضحت وأضاء الاسم المكتوب بالأسود بريق عينيه. واتجه إلى سيارته بخطى ثقيلة، مُنطلقًا إلى المكان المنشود، مُتحمسًا لتلك اللحظة التي كان يتمناها منذ زمن وها قد أتت.

"عيسى عبيد – الحنش الجبان- الهنجر القديم"

*****

أحد مخازن عيسى عبيد.. (الواحدة بعد منتصف الليل)

- شوفت يا معلمي اللي حصل للواد مُندي.. الواد اتفرتك وبقى عبارة عن كوم لحم.. المنطقة بقت نوش أوي أمعلمي والحكومة بقت عينيها واسعة ومحدش فينا عارف مين ابن الحرام اللي عمال يقتل في الناس يكونش السفاح اللي بيقولوا عليه ده هو اللي داير قتل في حتتنا.

نظر إليه المعلم عيسى عبيد شزرًا، جالسًا على مقعد مكتبه الخشبي الذي يتوسط المخزن، مُمسكًا بيده زجاجة خمر يتجرع منها وقد انتابته حالة من الشكر، وأخذ يترنح برأسه غير واعٍ لما يحدثه به صبيه. ارتعشت إضاءة المخزن المُنبعثة من لمبة تنجستين سيطرت على زجاجها خيوط العنكبوت. أخذ الصبي ينظر إلى معلمه بشفقة ولم يدرِ لما وصل به الحال لهذا الأمر، فهي ليست كعادة مَعلمه أن يشرب الخمر بنهم. فتلك الزجاجة الخامسة التي يتجرعها خلال نصف ساعة مضت:

- أنت كويس أمعلمي؟!.. حالك مش ولا بُد.

ضحك المعلم عيسى عبيد ضحكات هيستيرية عقبتها نوبة غضب عارمة انفجرت في وجه الصبي:

- وأنت مالك أهلك ياض.. كنت وصي عليا بروح أمك!! أخفي من قدام اللي جابني.

بلع الصبي ريقه بجرعة من الخوف وأومأ برأسه متفهمًا وغادر المخزن على الفور وهو يضرب كفًا فوق الآخر، بينما أخذ عيسى عبيد يتجرع بنهم حتى سكب نصف الزجاجة على جلبابه الرمادي، ثم عاد لنوبته الهيستيرية مُحدثًا نفسه بصوت مُترنح، مخمور، ضرب صداه أرجاء المخزن:

- بقى أنا المعلم عيسى عبيد اللي ياما شيبت بهوات.. وغربلت السوق ده كله ووقفت شِنبة على رجل مش قادر أجيب حقي اللي ضاع.. حقي اللي سرقوه ولاد الأبالسة.. الفرعون والثعلب والعقرب.. اللي خلوني أهرب زي الفأر الجبان.. عشان قتيل ومحدش غيري شاف مين اللي قتله.. بس أنا متكلمتش عشان جبااااان.. أنت حتة جبان يا عيسى يا عبيد.. ضيعت الكنوز والذهب وكل حاجة عشان خاطر جُبنك.. كان زمانك في حتة تانية بس أقول إيه أسفوخس علي قلبك ورجولتك.. بس لاااا وحياة شنبي ده لأهرجع اللي راح.. والقناع ده بتاعي حقي أناااا ملكي أناااا سامع يا فرعووون.. شوفت بغبائك عملت إيه ضيعت بنتك وعيالك وخليت الكل عايز يأكل في بعضه بسبب طمعك.. أنت موت يا فرعون بس لعنتك لسة حاضرة بس ورحمة أمي لأهفرجك ولأهخلص على عيالك واحد واحد لحد ما أوصل للقناع ده.. سااااامعني.. أنا الحنشش.

قالها عيسى مُنتفضًا من فوق مقعده وهو يصرخ موجهًا رأسه ناحية السماء، ثم بعد أن أفرغ ما في جعبته، توالت ضحكاته الهيستيرية وألقى بجسده البدين على المقعد،

متجرعًا ما بقى من زجاجة الخمر، حتى ضربته حالة من الحزن فأخذ يبكي وسط ضحكاته، إلى أن ارتعشت إضاءة المخزن مرة أخرى مُخلفة وراءها صوت شيء حديدي ألقى على أرض المخزن الأسمنتية فأصدر صليلًا مُرعبًا.

رفع عيسى عبيد رأسه تجاه الصوت، عابسًا بكلتا عينيه، يتأوه مُمسكًا برأسه الثقيلة، حتى لاحظ شيئًا يلمع على أرض المخزن على ضفاف الإضاءة المرتعشة، فقام من مقامه مختلًا، حافظ على توازنه، ومضى بخطوات مترنحة ناحية هذا الشيء حتى انحنى بصعوبة والتقطه، وما أن أمسكه بيديه حتى جحظت عيناه غير مُصدق: إنه القناع الذهبي! يا للهول!، كيف!!، من أتى به إلى هنا؟! أسمعت عدالة السماء نباحه فحققت أمانيه؟! كيف لهذا أن يحدث!؟

أخذ عيسى يصرخ ويضحك بهستيريا بالغة على حصوله على القناع الذهبي، ظنًا منه أن الله قد سمع نداؤه فاستجاب لدعائه نتيجة لظلمه من قبل أصحاب الكهف. ظل يدور ويرقص بجسده المترهل، ولكن مع شدة فرحته لم يلاحظ هذا الشخص ذو الحلة الجلدية والقناع الصقري الجلدي الذي وقف خلفه وارتعشت الإضاءة مُظهرة تفاصيله. لم يشعر به وهو يدنو منه، ولكنه في لحظة شعر بأنفاس مُلتهبة آتية من خلفه مباشرة، وما كاد يلتفت حتى صدمه ذو الحلة الجلدية بضربة من ماسورة حديدية فوق رأسه بعد أن خاطبه بصوت أجش:

- سمعتك بتنادي فجيت لك يا حنش.

فأختل توازن عيسى وسقط فاقدًا الوعي كسقوط خنزير في الوحل.

*****

بعد نصف ساعة..

تحسس يحيى الطريق أمامه بعدما ركن سيارته بعيدًا عن محيط مخزن عيسى عبيد. اتجه ناحية المخزن متعمدًا السير في الظلام حتى لا يراه أحد على شاكلته القاتلة. كان يرتدي حلته الجلدية الملطخة بدماء ضحاياه، وقناع الصقر الجلدي الذي يتناسب مع قسماته فيضيف لمسة مرعبة لكل من يراه. أحكم قبضته على المنشار الكهربي الذي لا يرافقه حين تتأهب روحه للقتل، ولكن ظل السؤال ينهش رأسه: من يا ترى ذلك الملعون الذي انتحل هويته؟! يريد أن يعرف، فحتمًا هو شخص يعرفه:

- أنا الماضي يا يحيى.

ضربت تلك الجملة ذاكرته فتوقف لبُرهة، يحلل ويفسر ويعتصر عقله، ما معنى جملة هذا المجهول!، وأي ماضٍ حقًا يتحدث عنه؟!، كاد يشرد، إلا أنه عاد إلى رشده، وتذكر ما هو آتٍ إليه، يريد أن ينتهي من هذا العبث سريعًا، يريد أن يعرف من قتل شقيقتة!، ومن يا ترى له مصلحة في ذلك؟!، وأين أختفى القناع؟!وهل أصحاب الكهف هم من خططوا لذلك؟! أم هناك مجهول يعيث في القصة فسادًا، وما سر عودة أبيه الضال!، وهل حقًا هو على قيد الحياة؟!، أم أن هذا العبث من صنع خياله وها هو قد جُن وفقد عقله!

انصبت تلك الأسئلة فوق رأسه صبًا، ولكنها تلاشت دفعة واحدة حينما دنا ناحية باب المخزن الحديدي، فوجده مفتوحًا وصوت آهات يعلو من الداخل. هناك شخص يتأوه. دفع الباب ببطء متوجسًا، يشم رائحة الغدر من حوله. دلف إلى داخل المخزن متحسسًا خطواته، مطرقًا رأسه حتى لاحظ قطرات دماء في خط مستقيم، وما أن لاحظ نهايتها حتى رفع رأسه فاصطدمت عيناه بمشهد لم يتوقعه على الإطلاق.

عيسى عبيد جالس على مقعده الخشبي مقيدًا بالسلاسل والأصفاد، أحيط برأسه جهاز ذو أسلاك حديدية وُصلت بمؤخرة رأسه وفكيه، فارجة فاه بقوة، فظهرت تفاصيل فمه من الداخل. وُصل هذا الجهاز بأعمدة حديدية انتهت بقاعدة تعلو رأس عيسى وضع فوقها صفيحة تحتوي على مادة سائلة تساقطت قطرات منها فوق عنق عيسى فأذابت الجلد، فعرف يحيى على الفور هويتها، أنها ماء نار خام.

كلما تحرك عيسى أو حاول أن يتكلم أو يصرخ، تميل الصفيحة ساكبة بعض القطرات فوقه، فيصرخ متألمًا. ما أن لمح يحيى حتى ارتعد مذعورًا، ظنًا منه أنه هو الشخص ذاته الذي فعل به ذلك. ولكن يحيى أشاح القناع الجلدي من فوق رأسه، فحملق عيسى غير مصدقًا، وحاول أن يفك قيوده، فانهالت فوقه دفعة من ماء النار أذابت نصف وجهه الأيسر.

لم يدرِ يحيى ماذا عليه أن يفعل. التفت حوله متوجسًا، يعلم أن هناك من يراقبه، أنه ذلك الملعون الذي يتنكر في هيئته. لم يجد في يديه حيلة غير أنه يخرج بأي كلمات من ذلك الحنش البدين قبل أن يلقى حتفه.

أتجه ناحيته بخطوات مُسرعة، ووقف يتأمله، ويتأمل الصفحية المملؤة بماء النار، ثم اقترب من وجهه وأردف بصرامة بالغة:

- أنا معرفش مين عمل فيك كده ولا يهمني أعرف.. كده كده لو كنت لحقتك كنت هعمل فيك اللي أوسخ من كده.. لحظة بتمناها من زمان يا عيسى يا عبيد عشان عارف أنك وسخ ودِني بس أول مرة أعرف انك جبان.. فين القناع يا عيسى!!.

تساقطت دموع عيسى مختلطة بجلده الذائب فشعر بألم اعتصره. هز رأسه بأنه لم يعرف، فقبض يحيى بقوة على خصلات شعره فاهتزت الأسلاك وشكبت ماء النار على ظهر عيسى فصرخ بقوة:

- أسمع يا عجل أنت عليا الحرام لو ما قولت فين القناع لأهنهي حياتك بشدة من السلك ده.. أنطق القناع فيين!!

لم يدرِ يحيى أن عيسى لو تفوه بأي حرف ستنجذب الأسلاك بشدة من الطرفين معتصرة فكيه، شاطرة رأسه لنصفين، ساكبة فوقه الصفيحة كاملة.

حاول عيسى أن يتكلم من بين بكائه، ولكنه شعر بألم يتخلل فكيه. شد يحيى على خصلات رأسه صارخًا في وجهه، فأخرج عيسى بعض الحروف غير المفهومة:

- حـ ي.. أز ري طة

- يعني إيييه!!!...يعني إييه أنطق.

هز عيسى رأسه بأنه لم يستطع الحديث باكيًا. فبحث يحيى عما حوله عن أي ورقة، لم يجد، ضرب الأرض بقدميه غاضبًا حتى لمح كيسًا من البُن كُتب عليه (مطاحن العبيد للبُن). أمسك يحيى بكيس البُن وأفرغ بعضًا منه فوق راحة يده اليمنى، وهرول ناحية عيسى، وحاول أن يفك يديه المصفودة، ولكنه وجد آخر شيء يتوقعه. هناك لوحة رقمية عدادها يقل تدريجًا، فعلم أنها خاصة بالجهاز، ففور ما ينتهي العَد ستنفرج الأسلاك ويتحول عيسى عبيد إلى أشلاء. العداد يشير لرقم 10 – 9 – 8....

- أنطق يا عيسى أنطق أبوس أيدك فين القناع!!!

- 6 و3.. الـ عـ قـ رب.

تراجع يحيى خطوتين للخلف وهو يرسم فوق راحته بحبات البُن المطحون ما قاله عيسى.

العداد يقل..

4.. 3.. 2.. 1، ما أن انتهى العد حتى انفرجت الأسلاك بقوة إلى الطرفين فانفجرت رأس عيسى عبيد، وانسكبت الصفيحة المحملة بماء النار الخام كاملة فوق جسده معلنة

انتهاء أسوأ كوابيس الحنش وأكثرها وحشية.

ما تتلوا الشياطين!

مطعم سي جل.. المكس.. السابعة صباحًا

من نافذة زجاجية مواجهة للبحر، استنشقت صباح رائحة اليود المُحببة لقلبها الصغير بأنفها الكبير، ترص على الطاولة أطباق السلطة الشهية فالتمعت مُقلتيها بنشوة وسال لُعابها فور رؤيتها لأطباق السمك المقلي التي سرعان ما عاقبت نزول أطباق السلطة، أختتم المشهد بما لذ وطاب من أصناف المأكولات البحرية التي ملأت كل ركن من الطاولة، فانهالت صباح بشره بالغ كالمحرومين دون أن تعير بالًا لمنير وزوجته هاجر اللذين جلسا أمامها يتأملانها بخُبث.

بعد ربع ساعة..

تنفست صباح الصعداء ومالت بجسدها مستندة إلى ظهر المقعد، فقد شعرت بالتخمة من كثرة تناول الطعام، تجرعت ما تبقى من كأس مياه غازية فتجشأت، فشعرت هاجر بالاشمئزاز، أخرج منير سيجارة من علبته التي تقطن أمامه وأشعلها ثم تملق صباح بقسمات باردة، فحركت صباح نظراتها بينهم تتأملهم بتوجس رافعة حاجبيها، إلى أن هب منير بالتحدث:

- ألف هنا يا صباح تحبي أطلب لك تاني؟!

فأجابت صباح بشيء من الوقاحة:

- الله يهنيك يا خويا.. وماله لو معاك زود يا خويا مش هقولك لا أنا عيني واسعة مبختشيش.

- لا ما أحنا عارفين يا صباح أنك بحجة.

نطقت بها هاجر، فمالت صباح بجسدها موجهة حديثها ناحية منير:

- ما تلم لسان مراتك ده بدل ما أقطعهولها.

ضغط منير على أسنانه ولكز هاجر بكتفه، فزفرت في ضيق، بينما لاحظت صباح فراغ يزين أصابع منير فتسألت:

- الله أومال فين الخاتم أبو فص أحمر اللي كان معاك يا منير بيه بيعته ولا إيه!

- يخصك في إيه؟!

- لا عادي أصل أول مرة تبقى من غيره يعني.

- مش موضوعنا ده يا صباح خلينا نيجي للمهم واللي جبناكي عشانه.

- اااااه أنا قولت برضو أنتم مش ولاد أصول للدرجة عشان تعزموني محبة أكيد أخرة الحوار ده فيها إنه.

سحب منير نفسًا من سيجارته بينما تأهبت هاجر للتحدث:
- بصي يا حلوة.. أنتِ عارفة أنك متساويش حاجة في سوق الستات.. ولولا حوجتنا ليكي مكنتش فكرت أني أقعد معاكي على تربيزة واحدة كدة.. بس نقول إيه الظروف.
- هيهيهيهي.. مساويش في سوق الستات يا عرة النسوان ده أنا صباح مناخوليا يا دلعدي اللي ياما شيبت معلمين ووقفت شنبة على رجل.
تدارك منير الموقف وأردف بنبرة حازمة:
- صباااااااح.. لمي الدور أحنا جايين عشان حتة مصلحة هتصب علينا كلنا.. مش عايز لت نسوان كتير.
- ومصلحة إيه دي إن شاء الله!!
نظر كلًا من منير وهاجر إلى بعضهما البعض دون أن ينبسوا بكلمة، بينما أردفت هاجر بنبرة باردة:
- تقتلي عيال أخوكي.
وقعت تلك الكلمات على أذان صباح كالسوط فصرخت منتفضة من فوق مقعدها:
- نعععم.. أنتم محاييش!!!! اللي بتقولوه ده.. ده على جثتي.
توتر كلًا من منير وهاجر ونظرا خلفهما يطمأنون تلك النظرات التي تصوبت ناحيتهم فور انطلاق صرخة صباح، بينما حملق منير في صباح شزرًا قائلًا:
- اقعدي ياروح أمك.. اقعدي لأحسن قسمًا بالله ألبسك مصيبة يا صباحِ.. وأقول إنك كنتِ على علاقة بالحاج صابر الله يرحمه وإنك أنتِ اللي قتلتيه.
حملقت صباح غير مصدقة، كيف علم منير بكل تلك الأمور!!، وكيف علم بتسميمها للحاج صابر!
ارتعشت أطرافها، وكادت تفقد توازنها ولكنها تماسكت وجلست على مقعدها مشدوهة، واضعة يدها فوق رأسها:
- إيييييه كنتِ فاكرة محدش هيعرف!!!.. الخدامة حكت لي كل حاجة وكانت مرقباكي من ساعة ما سرقتي علبة السم ولعبتي بخطتك عشان تلبسيها لماجي اللي كانت برضو بتخطط لقتله.. كنتِ عشيقة الراجل يا صباح!!
أجابت صباح وقد تلألأت الدموع داخل محجريها وعُقد لسانها، ووجدت لا مفر سوا الاعتراف بجريمتها:
- لفيت عليه واديته اللي ماجي كانت حرماه منه.. أينعم هو كان خلصان خالص بس أنا كنت عايزة فلوسه ومكنش

هامنني غير أنه يكتب لي حتة محل من محلاته باسمي.. بس معرفش إنه هيكتب للحيزبونة أختك رُفيدة كل حاجة.. وقتها كنت عايزة أخلص منه ومنها بعد ما سمعته بيكلم المحامي في التليفون.. ليلتها روحت البيت ومعايا سكينة وأستنيته لحد ما يرجع مكنتش أعرف أن ماجي هناك.. أستخبيت وراقبتها.. لقيتها بتصرخ وبتكلم نفسها وجابت سم فئران.. ساعتها قررت اللعب لعبتي وأنتقم منه بطريقتها وأنا ميتشكش فيا وأطلع منها زي الشعرة من العجين.

دفس منير سيجارته داخل منفضة السجائر مبتسمًا:

- اااااه يعني أنتِ كمان اللي قتلتي رُفيدة مش كده!!

- والمصحف أبدًا ولا أعرف مين عملها...آه فرحت لموتها بس وعزة وجلالة الله ما أنا.

رفعت هاجر حاجبها الأيسر وأطلقت ابتسامة خبيثة، ثم أخرجت من حقيبتها مسجل صوت، وضعته على الطاولة مردفة بُخبث:

- طب يا صباح يا حبيبتي.. كل اللي قولتيه ده اتسجل هنا.. تحبي الشريط ده يروح للنيابة الصبح وساعتها حبل المشنقة هيتلف حوالين رقبتك ولا تنفذي اللي قولنا عليه.

لم تتوقع صباح أن تلك الساقطة قد نصبت لها الفخ وها هي كَذب أعرج سقطت فيه، أردفت مترجية إيّاهم:

- أبوس أيدكم أمي ممكن تموت فيها.. أنا مش هقدر أعمل كده.. مقدرش أموت عيال صغيرة وكمان دول عيال أخويا.

- وعيال أخت جوزي يا صباح.. اللي يقتل مرة يقتل التانية ها يا حلوة قولتي إيه!!

كان منير رافضًا تلك الفكرة رفضًا بتًا، ولكن لا حيلة لديه، فقد وسوست إليه هاجر كوسوسة حواء لأدم أن يأكل من تلك الشجرة، الضرائب تتراكم فوق رأسه، ضربته سهام الديون، لا حول له ولا قوة، سيتم سجنه لو لم يسددها، لا حيلة لدية سوا الخلاص من أبناء أخته حتى يصبح الورثة هم أشقائها.

أعتصرت صباح جبهتها بقوة واحمرت وجنتاها، وانتفخت عيناها من أثر البكاء، محركة بصرها ناحية مسجل الصوت وهاجر ومنير، الذي أغمض عينيه مهمومًا زافرًا أنفاسه بضيق.

- أنا موافقة.

قالتها صباح بلسان مُثقل وقلب يعتصر ألمًا، بينما تهلل

وجه هاجر غامزة بعينيها إلى منير الذي هام في وجه صباح يحثها من داخله ألا تفعلها، ولكن لا حيلة لديه سوا أن يتبع ذلك الشيطان الذي وقعت أصابعهم أسفل أنيابه.. زوجته.

- هو ده الكلام يا صباح وما تقلقيش أول ما نستلم الورث هيتكتب لك محل باسمك زي ما كنتِ بتتمني.. هنسيبك تدبريها.. واثقين فيكي يا صباح هه بس أي غدر أنتِ عارفة النتيجة إيه.

كانت تلك آخر كلمات نطقت بها هاجر قبل أن تشير إلى مسجل الصوت، راحلة من المكان ساحبة منير من يده كعروس ماريونت، بينما هامت صباح ببصرها ناظرة إليهم وهم يخرجون من باب المطعم بضجر. كانت تنسج خطتها داخل عقلها، ولكنها توصلت لخطة ستفاجئهم.. خطة راقت للشيطان كثيرًا، وأطلق تصفيقه مُحيّيًا صباح على ذكائها غير المعهود، فدائمًا الخطط العبقرية تأتي من أشد الناس غباءً.

******

داخل الكوخ الخشبي.. الساعة التاسعة صباحًا

" وده عايز يكوش على العالم بحاله
وده عاوز يهوش يعمل ما بداله
وده عايش في كدبة.. كدبة كل يوم
جوه نفسه غربة.. بره حياته هموم"

اخترقت كلمات أحمد منيب العذبة آذان يحيى وهو يجلس على منضدة خشبية مُلطخة بدماء ضحاياه. يدون في ورقة ما لفظ به عيسى عبيد قبل أن يتحول إلى أشلاء: *(36.. حي الأزاريطة)*.

لا يدري ما هو هذا الرقم، أهو رقم منزل؟! أم فيلا؟! أم كان يلقنه رقم هاتف ولم يسعفه الحظ ومات قبل أن يكمله؟ قبض على خصلات شعره بقوة، وضرب بقبضة يده بقوة فوق المنضدة، فارتعد كل من داليا والأولاد الذين غاصوا في سبات عميق. تأملهم لوهلة بنظرة ذات معنى، نهشت الأفكار رأسه كفأر أصيب بالطاعون. يريد أن ينتهي من كل هذا العبث سريعًا. فهو لا يريد مالًا، لا يريد القناع، لا يريد أي شيء سوى أن يعود لحياته القديمة. فقد انقلبت الدنيا رأسًا على عقب فور مقتل زفيدة، وكأنها لعنة ترافقه في حياتها ومماتها.

انتفض واقفًا، مُحملقًا تجاه داليا. ضرب سياط القلق قلبها وانكمشت رعبًا في المقعد. لم يكن في بال يحيى سوى شيء

واحد: أن يفك أسرهم، ويطلق سراحهم، وينتهي من كل هذا العبث.. يريد حتمًا أن يرتاح.

تقدم بخطوات مُسرعة ناحيتهم، وقبل أن ينفذ فكرته ويفك قيدهم، أصيب الهاتف بمس الشياطين وضرب جرسه الملعون أركان المكان. فأغمض يحيى عينيه وصرّ بأسنانه وزأر غاضبًا متجهًا ناحية الهاتف، رافعًا السماعة، صارخًا:

- بقووووولك إيييييه أسمع...أنا خلاص جبت آخري.. جبت آخري سامعني ولا لا.. أنا مش عايز قناع ومش عايز ورث.. مش عايز حاجة يا أخي ده أنت لعنة.. غور في ستين داهية.

صرخ بها يحيى مُغلقًا السماعة بقوة. ظل صدره يعلو ويهبط من أثر انفعاله، ثم نظر إلى داليا وأولاده الذين تأملوه برعب، فقرر تنفيذ خطته، أيًا كان الذي سيحدث، حتى لو تم حبسه وحُكم عليه بالإعدام. وما كاد يفك قيد مايان ابنته، حتى ضرب جرس الهاتف مرة أخرى. فهرع ناحيته مُقسمًا تلك المرة أن يقطع سلك الهاتف، ولكنه أجاب بغضب بالغ رافعًا السماعة، ولكن ذلك الصوت الذي أتى من خلال السماعة جعل قدميه تتسمران أرضًا.

تجمد جسده بالكامل، وحملق غير مُصدق، حتى ازدرَف دمعة من مُقلتيه:

- بتقفل السكة في وشي يا يحيى؟!

بلع يحيى ريقه وبصوت متحشرج أردف:

- ماما!

- وحشتني أوي يا يحيى.. وحشتني يابن بطني.

- إزاي!!!.. إزاااي!!!

- زي كل حاجة في الحياة يا يحيى مش كل اللي بنتمناه بيحصل ولا كل اللي بيحصل بنتمناه.. أبوك رجع عشان يساعدك.. رجّع حقه وحق إخواتك يا يحيى.. ودور على اللي قتل أختك يابني.. السر في بطن الحوت.

- يعني إيييييه!!!الووووو.. الووووو.

بدون سابق إنذار، انقطع صوت أمه وكأنها لم تكن، كسحابة عابرة ظللت قلبه لوهلة قبل أن يعود إلى شمسه المحرقة. مرت ثوانٍ كالدهر، كاد يغلق الهاتف بعدها إلى أن أتى صوت والده الأجش المعتاد:

- العقرب مش هيسيب حق الديب يا يحيى.. لازم تخلص منه.. عمارة 36 الأزاريطة شقة 9.. وأفتكر يا يحيى السر في بطن الحوت.

انقطع الاتصال، فما كان من يحيى غير أن تنفس بعمق وشرد عبر النافذة الخشبية، عازمًا على إنهاء تلك القصة وقطع رأس العقرب واستعادة قناع أبيه. ولكن ما هو السر المختبئ في بطن الحوت؟ وهل حدثت أمه بالفعل؟ أم أنه أصيب باضطراب ذهاني وأصبحت الهلاوس تراوده؟

نفض عقله من كل تلك الأسئلة واتجه ناحية المنضدة، قبض على منشاره الكهربائي، وحمله آخذًا قراره. سيقطع رأس العقرب وسينهي سيرة أصحاب الكهف الملاعين. اتجه ناحية الباب وشق طريقه متجهًا إلى وكر دار العقرب... ولكنه لم يعلم أنه يشق طريقه إلى جهنم، واحتمالية عودته لا تتعدى 1%.

من خلف الكوخ، وقف الشخص ذاته، منتحل هوية يحيى، عاقدًا يديه أمام صدره يراقب يحيى وهو ينطلق بسيارته، وما إن تأكد من رحيله... حتى دلف إلى الكوخ مغلقًا الباب خلفه بهدوء.

أشلاء وأطفال أبرياء

مكتب ضابط المباحث.. الساعة الحادية عشر صباحًا

بخطى ساخطة، تقدم الرائد علاء الشرقاوي إلى غرفة مكتبه وشياطين الكون برمتها تتراقص أمام عينيه. ألقى مسدسه بقوة على سطح المكتب، ضاربًا مقعدًا بقدمه اليمنى أعاق تقدمه، فارتطم بالحائط مُصدرًا صريرًا. لحق به النقيب أمين محاولًا تهدئته، ولكن علاء مسّه شيطان الغضب وسيطر على جنبات روحه:

- أهدأ بس يا علاء باشا مش كده!!

- أهدا إييه يا أمين؟!.. ده مسجون هرب وأرتكب جريمة قتل.. أمييين أسمع الواد ده تجبهولي من تحت طقاطيق الأرض.. اللي حصل ده تهريج يعني إيه مسجون يهرب ده أنا هودي كل واحد مسؤول عن ده في ستين داهية بس ألاقي اللي جابته.

- أوامر سيادتك يا فندم.. بس روّق العصبية مش هتجيب نتيجة.

زفر علاء أنفاسه في حنق وأرتمى بجسده على المقعد، دافنًا وجهه بين كفيه، يحاول أن يجمع رباطة جأشه. تناهى إلى مسامعه صوت أمين وهو يتحدث مع رجل البوفيه عبر الهاتف ليأتي بكأس ليمون بارد لرئيسه. ارتفع ضغط علاء، وعاد برأسه، مسندًا إياها على مقعده المتحرك. وما هي إلا لحظات، ودخل رجل البوفيه حاملًا صينية فوقها كأس الليمون وفنجان قهوة للنقيب أمين. شكره أمين وخرج، بينما ناول الكأس لرئيسه قائلًا:

- اشرب ده يا علاء باشا.. ومتقلقش الواد ده هنجيبه خلاص عرفنا أنه وراء كل اللي بيحصل.

أجاب علاء بصوت يشوبه اليأس:

- مش عارف يا أمين.. القضية كل مدى ما بتتكعبل أكتر.. الواحد مبقاش عارف بيدور فين.. سفاح مجهول وجريمة غامضة وبصمات ميت وجرائم بتحصل بنفس الطريقة واختفاء مراة يحيى وعياله واتهام حماه له.. كل الخيوط دي بتوصل لإيه في الآخر يا أمين!!!

- أكيد القاتل قاصد سيادتك يلفقنا حوالين نفسنا.

- بالضبط يا أمين.. هو قاصد يودينا في طريق وهو ينفذ باقي خطته من ناحية تانيه.

- بس السؤال سيادتك هو هيستفاد إيه؟!

- هو ده اللي محيرني يا أمين.. لو قاصد يسرق اللي كان في الخزنتين كان الموضوع خلص على كده.. إنما لا القاتل ده بيقتل بدافع الانتقام.

- طب ما هي وضحت يافندم و اتعرف أن هيثم هو القاتل.

تعالت ضحكات علاء مجلجلة أركان الغرفة، فتعجب أمين من رد فعل رئيسه. أجاب علاء بعد أن سعل بقوة:

- لسه خبرتك صغيرة أنت يا أمين.. تقدر تقولي هيثم هرب إزاي!

- هو العسكري بيقول غفل عنه دقائق دخل فيهم الحمام رجع لقى الزنزانة فاضية.

- آه خرج من الزنزانة والباب مقفول؟

- العسكري لقى الباب مفتوح كأنه مفتوح بالمفتاح.

- وده مش بيفسر حاجة يا سيادة النقيب؟!

هز النقيب أمين رأسه في عدم فهم وتساءل، فأستطرد علاء حديثه مُجيبًا:

- هيثم اتخطف يا أمين.. والبطاقة اللي لاقيناها بطاقة مزورة.

- إيه!!.. إزاي سيادتك؟!

- هقولك إزاي.. ثواني.

قالها المحقق علاء وهو يفتح درج مكتبه والتقط شيئًا ما من داخله، ثم ألقاه أمام أمين واضعًا إياه على المكتب قائلًا:

- بطاقة هيثم معايا يا أمين.

- معني كده.....

قاطعة علاء مُكملًا جملته بحدة:

- معنى كده إن هيثم في خطر ولازم نلحقه قبل ما يحصله حاجة.

كاد النقيب أمين يرد إلى أن رن جرس هاتفه المحمول، فأجاب على الفور مُنتفضًا مما ألقاه عليه الطرف الأخر:

- أنت بتقول إيه!!!.. أنا جاي حالًا.

ضيق المحقق علاء عيناه وتدفق الأدرينالين في أوصاله مُتسائلًا:

- حصل إيه يا أمين؟!

بلع أمين ريقه وأجاب بتردد:

- لقينا هيثم يا باشا.

التقتها علاء وهب من فوق مقعده متحمسًا:

- حلو.. لقوه فين؟!
- في ورشته بس للأسف!
- إيه يا أمين!... في إيه أنطق!!!
- لقوا هيثم مشنوق جوه ورشته وجُثته متقطعة.
- إييه!!!!

قالها المحقق علاء ضاربًا بقبضتيه على سطح المكتب بغضب، فسقط كأس الليمون أرضًا وتهشم. ثم حمل مسدسه واضعًا إياه بحزام خصره وهرع خارجًا من باب الغرفة ضاربًا الأرض بقوة، وقد لحق به النقيب أمين مُتمنيًا في ذاته أن ينتهي من هذا الهراء سريعًا حتى لا يفقد عقله.

*****

بعد ساعة.

انتشر رجال البحث الجنائي داخل ورشة النجارة الخاصة بهيثم يرفعون كافة البصمات ويمارسون عملهم بِجد، بينما وقف كل من الرائد علاء والنقيب أمين يتأملان جثة هيثم مفصولة الرأس. فقد تدلت رأسه من سقف الورشة، احتقن وجهه بالزرقة، وتدلى لسانه خارج فمه. لم ينتهِ المشهد إلى هذا الحد، فقد رقد جسده على طاولة خشبية، وقُطعت اليدان والقدمان بآلة تقطيع الأخشاب، أما البطن فقد بُقرت بنفس تلك الآلة التي شُقت بها أجساد جميع الضحايا من سبقوه.

ولكن ليس هذا هو الغريب؛ المريب في الأمر هو ما دُفن داخل بطن هيثم. الأمر جعل علاء يضع منديلًا قماشيًا فوق أنفه اشمئزازًا وكاد يتقيأ.

رأس الصبي مُندي، مُتعفنة، مُنتفخة، صُبغ لونها بالأسود، كانت هي المسببة لتلك الرائحة المقيتة التي ضربت في جميع أنحاء الورشة. فقد فات على قتله مدة لا تزيد عن أسبوعين. تعجب علاء الشرقاوي من تفاصيل هذا المشهد المروع، فقد رقدت رأس الصبي بين أمعاء هيثم، ولكن هناك سر ما تحويه تلك الرأس، وإلا ما وضعت في هذا المكان تحديدًا!

كاد علاء يتقيأ، ولكن لاحت عيناه بشيء معدني يلمع داخل فم رأس الصبي المفتوح، شيء حشر بين أسنانه الأمامية. دنا من جثة هيثم واقترب من الرأس المندي، وبمنديل ورقي التقط هذا الشيء وتراجع ثلاث خطوات للخلف. ما أن مسحه من آثار الدماء التي لوثته حتى وضحت معالمه.

إنه خاتم فضي ذو فص أحمر. هذا الخاتم ليس غريبًا عنه على الإطلاق، أين رآه يا ترى؟! أين؟!

ما أن عصر ذاكرته حتى. حملق متذكرًا، غير مصدق، فرم أسنانه بغضب وخرج من باب الورشة شاقًا طريقه إلى صاحب هذا الخاتم قبل أن يرتكب جريمة أخرى.

هذا الخاتم يخص شخصًا واحدًا وقد لاحظه بين أنامله أثناء التحقيق معه... فهذا خاتم القاتل المجهول... منير صفوان الصباغ!

*****

الساعة الرابعة عصرًا..

- الحقني يا منير الحقني البنات اتخطفوا!!

صرخت بها هاجر منهارة عبر الهاتف وهي تحدث منير. فعندما عادت إلى منزلها وجدت باب شقتها محطّمًا. تسمرت مكانها لدَقائق، ثم لملمت شتات أمرها ودفعت الباب بقوة، مهرولة إلى الداخل منادية على أطفالها. لم تجدهم! ظلت تبحث في جميع أرجاء الشقة، لكن ليس لهم أثر، كأنهم تبخروا. انتابتها نوبة جنون عارمة، أخرجت هاتفها بأطراف مرتعشة واتصلت بمنير زوجها.

تجمّدت روحه وانفطر قلبه، وحملق في ذعر فور سماعه ذلك. وبسرعة بديهة تدارك الأمر. حتمًا إنها صباح، ليس سواها من سيرتكب ذلك الأمر. فقد علم ما تخطط له. كم أنتِ ساقطة يا صباح! أغلق الخط في وجه زوجته، وأخذ يعدو الأرض، متخذًا الطريق إلى بيت صباح. سيقتلها لا محالة إن فعلت شيئًا بطفلتيه.

ليس هناك شيء يبكي عليه، فكل الطرق تؤدي إلى مصير واحد... ألا وهو الموت.

أما في منزل صباح، فقد جلست بعباءة سوداء على الأريكة المتهالكة، تنظر إلى الأطفال الأربعة وهم يلعبون بقسمات باردة والشرر يتطاير من عينيها، أبناء أخيها وأبناء منير، ثلاث بنات وولد، يمرحون أمامها في الصالة بكل حماس وبراءة، طافت الملائكة بأجنحتها حولهم تريد أن تحميهم من بطش ذلك الشيطان الذي جلس يتملقهم بعين ميتة، رقدت أمها في غرفة جانبية وأصبحت طريحة الفراش، فلم تتحمل ما سار لفلذة كبدها هيثم، وأصيبت بشلل كلي جعلها لا تقوى على الحراك، حتى أنها لا تستطيع التحدث، وبعين هي كل ما تمتلكها لإدراك ما حولها، نظرت إلى ما تحويه صباح في صدرها وما تنوي فعله، فهي بذرتها التي حصدتها فسادًا

وتمنت الخلاص منها، طرفت إليها صباح فهزت العجوز رأسها وصرخت من بين فكّيها المعوجين بألا تفعلها، لكن صباح لم تبالِ ونهضت عازمة قرارها.. عليها أن تكمل ما بقى من خطتها.. سينتهى الأمر سريعًا.

اتجهت نحو كيس بلاستيكي رقد على طاولة خشبية متهالكة، أخرجت منه أربع علب من العصير ونادت على الأطفال راسمة ابتسامة مزيفة على شفتيها. تهلل وجه الأطفال وهرعوا إليها فور رؤيتهم علب العصير. كان الأمر أسرع وأبسط مما كانت تتخيل. فقد انهال الأطفال على علب العصير شاربين إياها في استمتاع، ولكنهم لم يعلموا ما وضعته صباح بلا شفقة داخل العلب.

تأملتهم صباح بوجه خالٍ من أي تعابير. فتلك ليست فعلتها الأولى، فقد قتلت عشيقها العجوز الحاج صابر بتلك الطريقة.

دقائق .وبدأ السم ينتشر في أوصالهم وأنحاء جسدهم بالكامل. تلوت الأطفال على الأرض متألمين، صارخين بقوة، يبكون مستغيثين بصباح التي جلست تضحك فور رؤيتها لهم وهم يتعذبون. بدأ السائل الأبيض يخرج من أفواههم. العجوز ترى ما يحدث من فوق فراشها وتصرخ بصوت مكتوم، فاردة ذراعيها لإنقاذهم، حتى أنها اختلّ توازنها وسقطت من فوق الفراش، فارتطمت رأسها بحافة الكومود وأصيبت بجرح عميق نجم عنه بحيرة دماء صغيرة تكونت أسفل رأسها. وما هي إلا ثوانٍ وتشوشت الرؤية أمامها، ذارفة دمعة أخيرة على أرواح هؤلاء الأبرياء الذين راحوا ضحية بذرتها الفاسدة، وانسلت الروح من الجسد مفارقة الحياة.

دقائق مرت كسرعة البرق خلفت وراءها خمسة جثث، أربعة لأطفال لا حول لهم ولا قوة، وعجوز رأت الهول قبل أن تموت.

تنفست صباح الصعداء وهي تنظر إلى الجثث، وقد التمعت عيناها بنشوة القتل، ثم أطلقت ضحكات هستيرية متتالية، مجلجلة أركان المنزل، حتى أن فأرها الذي هرب من أنيابها من قبل انكمش رعبًا أسفل الأريكة، وهو يبكي حزنًا على هؤلاء الملائكة الصغار.

ضربات قوية حطت على باب المنزل، ومنير يصرخ بالخارج:

- افتحي ياصباااااح.. افتحي بدل ما أكسر الباب على دماغك إلا عيالي يا صباااح إلا عيالي.

توقفت صباح عن نوبة ضحكها الهستيري، وخطت إلى

الباب بثبات، رافعة رأسها بشموخ. وبهدوء القتلة، فتحت الباب راسمة على شفتيها ابتسامة تشفي، قائلة بروح انتقامية:

- خلاص يا منير.. نفذت خطتنا وكل حاجة خلصت.

تملقها منير بغضب يشوبه التوجس وأمسكها من تلابيب عباءتها بقوة، صارخًا:

- فين بناتي يا بنت الكلب!!!

عادت صباح إلى نوبتها الهيستيرية، ومن بين ضحكاتها أشارت إلى منتصف الصالة. فحوّل منير نظراته اتجاه إشارتها، فألتقت عيناه بجثث الأطفال. حملق مذعورًا، والتمعت الدموع داخل محجريه. تجمد للحظات غير مصدق. دفع صباح بقوة فسقطت أرضًا، وخطى بلهفة إلى منتصف الصالة، هازًا رأسه في عدم تصديق. سقط بجسده على ركبتيه فوق رأس أطفاله بانكسار، منفطر القلب. احتضنهم، هازًا جسدهم بقوة، مردفًا من بين بكائه:

- لا يا حبايبي لا مستحيييل ردوا عليا.. ردوا عليا!!!!.. أانا أسف.. أنا أسف.. انتم عايشين صح لا عايشين.. ردوا عليا.. ردوا على بابا يا كل حاجة حلوة باقية لي.. أنا أسف.. أسف.

بينما رقدت صباح أرضًا، ساندة جسدها إلى الحائط، تضحك بجنون وتغني بصوتها النشاز الذي يثير الإزعاج:

"كان ياما كان.. كان في عصفور

قلبه صغير.. ريشه قصير..

حلمه يرفرف بره السور.. كان إنسان"

أما منير، فقد انفطر قلبه حزنًا على خسارته لطفلتيه وأبناء أخته. شعر بخنجر الندم يغرز في صدره. هو السبب في قتلهم جميعًا، هو من انصاع خلف أفكار زوجته الإبليسية. هو من دبّر تلك الجريمة الشنعاء التي لا تُغتفر... لكنه عليه أن يدفع الثمن أيًا كان.

أرقد رأسي طفلتيه بهدوء على الأرض، ومسح دموعه بكفي قميصه، وتنهد تنهيدة أخيرة قبل أن يتأمل بعيني ميتة علب العصير الملقاة بجانب جثث الأطفال. وبأطراف مرتعشة، التقط إحداها. حمد الله في ذاته... العلبة تبقى فيها القليل من العصير. لكن لا بأس، ستكون هذه الرشفات مجدية لغرضه.

رسم ابتسامة ارتياح، رابطًا على رأس طفلتيه قبل أن يغمض عيناه في هدوء، وعلى أنغام صباح التي ستزعج

الروح للخروج من الجسد... انهال على ما تبقى من علبة العصير شاربًا إياها بنهم، فاضطربت السماء وانشق القمر وهطل المطر بالخارج مُخلفًا وراءه مشهدًا يُزينه ست جثث وقاتلة فقدت عقلها.

*****

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. حي الأزاريطة.

وقف يحيى صفوان أمام واجهة العقار رقم 36 بُحلّته الجلدية مُرتديًا قناع الصقر الجلدي. راقب الأجواء وتأكد من خلو الطريق من المارة. رفع رأسه ناحية العقار الذي اتخذ طابعًا كلاسيكيًا، تأمله للحظات، ثم شد قبضتيه على منشاره الكهربي وعزم على التقدّم.

ما هي إلا دقائق حتى كان يحيى يقف أمام الشقة رقم 9. لم يأخذ الأمر منه الكثير من الوقت؛ فبضربة منشار واحدة فصل رأس حارس العقار عن جسده دون أن يشعر به أحد.

عمّ الصمت أرجاء الدور، وليس هناك أي صوت سوى صوت أنفاس يحيى المتعطشة للدماء. يريد أن ينهي سيرة أصحاب الكهف ويفتك بالعقرب، وحينها سيحصل على إرثه من أبيه الذي جاهد من أجله... قناع الصقر الذهبي.

وقبل أن يعزم قراره ويضرب على جرس الباب، فهو ليس سفاحًا هاويًا، بل يدخل إلى ضحيته بهدوء دون أن يترك خلفه أي أثر أو يُحدث جلبة.

ولكن قبل أن تتجه أصابعه ناحية زر الجرس، لاحت أمامه بافطة نحاسية نُقش عليها بخط كوفي أسود:

شقة

اللواء / سمير غربال.

اللدغة الأخيرة للعقرب

عيادة الطبيب عبدالدايم الحلواني.. (الساعة السابعة مساءً)

خرجت العميلة من مكتب الطبيب عبد الدايم بصدر رحب وهموم أزالها الطبيب من فوق عاتقيها. لأول مرة منذ سنة متواصلة من العلاج تشعر هذه العميلة بتلك الراحة. كانت تعاني من اضطراب كرب ما بعد الصدمة (PTSD)، فمنذ خمس سنوات فقدت طفليها التوأم ذوي الثلاثة أعوام في حادث سير من قبل شاحنة فرمتهما أسفل عجلاتها، فتحولا إلى أشلاء أمام ناظريها.

على رغم من اجتهاد الطبيب عبدالدايم في استخدام فنياته المعرفية ليجعل تلك العميلة تتخطى هذه الصدمة والوصول إلى نتائج مثمرة تروقه، إلا أنه كان يشعر في كل مرة بغصة تنتابه عندما ينتهى من تلك الجلسة، وكأنها تذكره بفقدانه لابنته وأحفاده، لم يعلم أين اختفوا؟!، ماذا فعل ذلك السيكوباتي السادي بهم!، فهو لا يشك إلا به، ليس هناك سواه من يفعلها، يتحسر في أسى ويضربه طوفان الندم علي موافقته علي زواج ابنته منه وهو يعلم أنه مختل لا محالة وها هو الآن يدفع ثمن عبثه.

خلع نظارته الطبية وأعتصر جبهته متألمًا فقد ضربه إعصار من الصداع اجتاح خلايا مخه. بدا عليه الإرهاق الشديد. زفر بخنق مادًا يده ناحية زر الجرس لاستدعاء سكرتيرته الخاصة. وما هي إلا ثوانٍ حتى أتت فتاة يافعة في مقتبل العشرينات، محجبة، ترتدي لباسًا فضفاضًا، بهية الطلّة. نظر إليها عبد الدايم بعينين مرهقتين وأردف بصوت مكسور:

- باقي كام جلسة يا نرمين؟!

أجابت نرمين بصوت رخيم:

- جلستين واستشارة يا دكتور.

هز عبدالدايم رأسه متفهمًا وأراح ظهره على المقعد قائلًا:

- طب الغيهم يا نرمين معلش أنا تعبان.. اعتذري لهم واديهم ميعاد تاني.

- مالك يا دكتور حضرتك كويس؟!

- شوية إرهاق بس شوية وهبقى كويس قولي لأم عبده تعملي القهوة المحوجة بتاعتي.

- أنا رأيي حضرتك تروح وترتاح.

- أرتاح!.. ومنين أجيب الراحة بس.. هاتيلي القهوة بتاعتي

بس وأنا شوية وهفوق.

- حاضر يا دكتور.

قالتها نرمين وغادرت الغرفة على استحياء، بينما أغمض الطبيب عبد الدايم عينيه معتصرًا إياهم بقوة. فانتابته ذكرى يحيى الطفل وهو يتناول ذراع السّجانة، ففتحها بغتة واحدة محملقًا في سقف الغرفة على ضوئها الخافت. أمال رأسه ناحية اليمين فالتقت عيناه برواز صغير يقبع فوق كومود يتوسط داخله صورة عائلية في رحلة تنزّهية مع داليا ابنته وحليم ومايان، يحمل كل منهما على كتف من أكتافه. صورة يغلفها طابع البهجة والمرح، الجميع مبتسم عدا واحد... ذلك الشيطان الأرعن ذو اللحية الشقراء الذي أخذ يتملق الطبيب عبد الدايم بنظرات جامدة، مريبة... ميتة.

ارتسمت ابتسامة على طرف شفتيه عندما تذكر ذلك اليوم، بينما اعتصر قلبه حزنًا على ضياعهم، فأزرف دموعًا مخلوطة بمشاعر من الحزن والاشتياق، المرح والانتقام... الراحة والعبث.

وبينما هو يتأمل الصورة منفصلًا عن الواقع بكل ما يحمله من مآسِي، أصدر هاتفه الخلوي صفيرًا ينم عن رسالة واردة، نظر إلى الهاتف بلا مبالاه ومد يده ليلتقطه بتكاسل، وما أن فتح الرسالة وشرع في قرأتها حتى هب من مقعده على الفور، وحملق في عدم تصديق، التقط جاكيت بذلته واتجه ناحية الباب خارجًا يدب الأرض، وما أن فتح الباب حتى وجد أمامه أم عبده تحمل صينيه القهوة لم يعيرها بالًا وتجاهلها عابرًا من جانبها فنادت عليه:

- القهوة يا دكتورا

مر عبدالدايم بمكتب نرمين فانتفضت من فوق مقعدها، ولكنه لم ينظر إليها وأخذ يشق طريقه بلهفة وسرعة لا تناسب سِنه متجهًا إلى العنوان الذي حملته تلك الرسالة الغامضة والتي كانت فحواها.

" بنتك وأحفادك في الحفظ والصون يا دكتور لو كنت عايز تشوفهم تعالى على العنوان ده (.....)

متتأخرش ده العرض الأخير - بطن الحوت"

*****

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. حي الأزاريطة.

أعاد قراءة الاسم الذي لمع سواده على مُقلتيه من تلك اليافطة النحاسية أكثر من مرة: (اللواء / سمير غربال). من

هذا يا ترى؟! هل العقرب حقًا كان من رجال الداخلية؟! وإن صح ذلك، ما لضابط شرطة أن يذهب في رحلة عبثية الأمل في العودة منها لا يتعدى 1% مع عصابة لسرقة قناع ساحر فرعوني؟! ما الذي دفعه إلى ذلك؟! هناك سرّ ما يخفيه ذلك العقرب حتمًا.

لأول مرة تنتابه قشعريرة بالغة. لأول مرة يجهل هوية ضحيته. لا يعلم ما هو مقبل عليه. لكنه تذكر شيئًا مهمًا طمأنه: القدم المبتورة!! لقد بُترت قدم العقرب عندما أُغلق عليه باب المقبرة. هذا سيُسهّل الكثير، وسيجعل العقرب لا يحظى بفرصة للفرار. ارتسمت ابتسامة على طرف شفتيه من خلف قناعه الجلدي تنمّ عن الراحة والاطمئنان. أخذ شهيقًا أخيرًا وأطلقه بقوة، متحمّسًا للقاء العقرب.

وقبل أن يضغط على زر الجرس، حدث شيء جعله يتجمّد في مكانه... لقد فُتح الباب من تلقاء نفسه مُصدرًا صريرًا مُرعبًا أثار ريبته.

ثوانٍ مرّت عليه كالدهر. أي عبث هذا المقبل عليه! أبتلع ريقه بتوجس وتقدم بخطوات بطيئة فاتحًا الباب بأسنان المنشار الحديدية، متوخيًا الحذر. الظلام يعمّ الأركان. لا يرى إلا ضوء القمر يتسلل من نافذة زجاجية وقعت في مواجهته ورقد أسفلها كرسي متحرك ذكّره بكرسي أبيه عندما وجده جثة هامدة ليلتها.

نفض تلك الذكرى من رأسه سريعًا، عليه أن يتوخى الحذر، فالعقرب من الواضح عليه أنه ليس سهلًا على الإطلاق، تقدم إلى داخل الشقة بخطوات حذره، يقبض بقوة على مقبض المنشار، سيفتك ويقطع وينحر من سيقابله، إن كان مبدأ العقرب اللهو.. فهيا فليبدأ العبث.

تقدّم يحيى حتى توقف في منتصف الصالة، فتناهى إلى مسامعه صوت يألفه كثيرًا، صوت سكندري أصيل آتيًا من جهة الداخل:

"أنا غريب في الدنيا يابا
وياعيني على الغريب
بتوه في الدنيا غريبة
دنيا ملهاش حبيب
وياعيني على الغريب"

إنه بحر أبو جريشة، فكم عشق كلماته، ولكن غريب!، كيف علم العقرب بحبه لسماعه، عاصفة من القلق كادت تقتلع

صدره، صمت مهيب لا يقطعه سوي صوت أنفاسه المتوجسة وصوت أبو جريشة، دار حوله يتأمل الأركان من بين جنفات الظلام، طاولة تراص على جانبيها أربعة مقاعد رقدت فوقها فازة كبيرة من طراز كلاسيكي بها عدة رسومات لعقارب سوداء، ليس هناك شيء يثير دهشته، فالمنزل كأي منزل، بسيط، هادئ، لا يختلف كثيرًا عن أي منزل متواضع، ولكن الذي لفت نظرة تلك الشهادات والنياشين التي عُلقت على حائط عن يمينه، صورًا للواء سمير غربال وهو ملازم وبجميع رُتبه العسكرية، شهادات تقدير من وزارة الداخلية عن جهوده العظيمة، صورته مع وزير الداخلية مصافحًا إياه بحرارة، اقترب يحيى أكثر ليتمعن في مشاهدة جميع الصور، ولكنه توقف عند صورة بعينها، اللواء سمير يحتضن شاب مُرتديًا الزي العسكري، تلك القسمات ليست غريبة عنه، لقد رأها من قبل ولكن أين يا ترى؟!

ظل يتأمل الصورة محاولًا تذكر ذلك الشاب وهو متأكد من حدسه لقد رأه من قبل، ولكن أين!

وما هو يعتصر ذاكرته حتى شعر بحركة سريعة خلفة، فالتفت بغتة موجهًا مُنشاره الكهربي في الهواء ضاغطًا على زره فأصدر زمجرة مرعبة، مسح ببصره المكان برمته.. ولكن لا وجود لأي شخص.

تسارعت ضربات قلبه وأنفاسه، نبت العرق فوق جبينه، لا يريد أن يجازف ويفتش في أرجاء المنزل، فمن الواضح أن العقرب يترقب وينتظر اللحظة المناسبة للدغه، هدأ من روعه وعاد ينظر إلى الصورة مرة أخرى حتى قلبها وقرأ ما كُتب على ظهرها بالحبر الأزرق، وما أن وقعت عيناه عليه حتى حملق مشدوهًا.. مستحيل!!!

ذلك الاسم يعلمه جيدًا، ولكن ما علاقته بالعقرب!!حتمًا أنه وقع في المصيدة، دُبر له الفخ بكل حنكة، سيطرت عليه فكرة واحدة وهي الهرب، عليه الفرار وإلا سَيُقبض عليه لا محالة.

وما كاد يهم بالرحيل، مُلقيًا بالصورة أرضًا، حتى شعر بأنفاس ساخنة أتية من خلفة، فتوقف لبُرهة، ثم أبتسم شادًا قبضته على المنشار ثم قال:

- مش أصول دي.. دي طريقة ترحب بها بملك الموت!.. عاجبني أوي جو الساسبنس والأفلام الأجنبي اللي أنت عاملة ده.. أما أنت عقرب بصحيح بس عقرب كسيح برجل واحدة مش هياخد في إيدي علوة.. بس نسيت تعرف عني أكتر أنا

الصقر يا عقرب .

وما أن قالها يحيى حتى أدار محرك المنشار ولف جسده بقوة ليشق جسد العقرب، ولكن بدهاء من العقرب سبقه بضربة من قعر بندقية فوق رأسه كانت معلقة بجانب شهاداته. فخر يحيى مُغشيًا عليه، نازفًا دماء من جمجمته، دماء لوثت تلك الصورة. سرعان ما التقطها العقرب الذي وقف بثبات ورشاقة على قدم واحدة حاملًا البندقية، نظف الصورة ماسحًا بكفه بقعة دماء من فوق الاسم الأغلى على قلبه، ذلك الاسم الذي جعل يحيى يرتعد ويريد الفرار... (ملازم أول/ علاء ممدوح الشرقاوي).

*****

بعد ساعتين..

فتح عينيه دفعة واحدة فلم يجد إلا الظلام. حملق مذعورًا، رائحة صدأ ضربت خياشيمه، لم يدرِ أين هوا حاول الحراك، ولكنه لم يستطع، شعر أنه مُكبل بأصفاد. صمت خبيث لا يقطعه سوى أنفاسه المتهدجة. ظن لوهلة أنه في عداد الموتى وقد تم دفنه، وها هو ينتظر داخل قبره الملكين للسؤال... ولكن! تلاشت كل هذه الأفكار فور شعوره بحركة حوله. ظل يتلفت كالمجذوب ويتساءل: من هناك؟! ولكن لم يتلق أي رد. وما هي إلا ثوانٍ وأتت الإجابة من عود ثقاب قد أشعلته يد عجوز على أهداب الظلام!

- أزيك يا يحيى!

دقق يحيى نظراته إلى صاحب الصوت بعيون واهنة وخيوط من الدماء قد جفت على خده الأيسر، فوجد ضوء عود الثقاب ووجه عجوز ذي عينين زرقاوين يجلس على مقعد متحرك. على قسماته الصرامة، أصلع، برزت عظام وجهه، وشق يُزين خده الأيمن، يرتدي بذلة عسكرية أظهرته بهيئة مهيبة. ولكن ما لفت نظر يحيى تلك الشارات التي عُلقت على كتف العجوز وتحمل رتبة لواء... ثم انطفأ عود الثقاب!

سرعان ما أشعل العجوز عود أخر، فوجد يحيى مُبتسمًا، يتملقه بخبث، ثم تنهد وأردف:

- أنت جاي لي بالبدلة العسكرية تصدق خوفت!

بصوت أجش له طابع خاص أجاب اللواء سمير:

- لسه الخوف جاي يا يحيى متستعجلش.. آن الأوان الحدوتة تخلص.

- أه الحدوتة اللي أنت حابكها من الأول مش كده!
- مكنتش أعرف إنك ساذج كده يا يحيى.. عيب يا راجل أنت أذكى من كده.
- نهايته يا عم العقرب يا غامض.. فين القناع!؟
ضحك اللواء بصوت جلجل الأركان ثم أجاب:
- تصدق عجبتني جدًا يا يحيى.. بس هو أنت بتدور على القناع وسايب السؤال الأهم اللي أنا الوحيد اللي عارف إجابته.
تملقه يحيى بتساؤل ثم أستطرد العقرب حديثه بغموض:
- مين اللي قتل أختك رُفيدة؟! بلاش ده مين اللي قتل أبوك!
وقبل أن يجيب يحيى، أنطفأ العود.
أشعل العود الثالث، فوجد يحيى أن اللواء سمير غربال قد تحرك أقصى اليمين وحمل شيئًا ما أراحه على فخذ قدمه اليسرى... شيء ليس غريبًا عليه، إنه ذلك المنشار! ذلك المنشار التالف الذي ألقاه في قبو فيلته وقد جفت الدماء على أسنانه الحديدية. ولكن كيف عثر عليه ذلك الداهية؟! ثم إن هناك آثار دماء فوق أسنانه، آثار دماء طازجة!
- فاكر المنشار ده يايحيى؟!.. ده المنشار التالف اللي كنت راميه في المكان اللي بتأكل فيه أشلاء ضحاياك، مش كده يا صقر!
- جبته منين؟!
- ياراجل ده سؤال يتسأل لي؟!.. الحقيقة مش أنا اللي جبته هو القاتل اللي جابهولي.
- آه يعنى أنت القاتل!
- وأنا لو القاتل هخاف أقولك مثلًا.. ما قولنا خليك أذكى من كده يا يحيى.
شعر يحيى بدوار يضرب خلايا مخه، أغمض عينيه بقوة مطأطئًا رأسه في أسى، ثم رفعها بشموخ وشرارات الضغينة والانتقام تتطاير من عينيه الحمراوين قائلًا:
- أنت عايز إيه؟!
- إنك تعرف الحقيقة.
- أنهى حقيقة!
- اللي أنت بتدور عليها.
- اللي أنا بدور عليه عندك مش عايز غير القناع وأرجع حق أبويا اللي أنت قتلته.

- ومين اللي وهمك بده يا يحيى! لو كنت عايز أعملها كنت عملتها يوم ما لقيت صاحب عمري ميت قدامي بسببه.

ضحك يحيى ساخرًا ثم عقب قائلًا:

- آه صاحبك اللي مهمكش أنه مات ودخلت دورت على الذهب وبس مش كده!؟ إيه يخلى اثنين ضباط ليهم مقامهم يتورطوا مع عصابة في سرقة أثار!؟ما تردا!

نظر إليه اللواء سمير بجمود وعينين أغرورقتا بالدموع ثم قال:

- أنت متعرفش أي حاجة.

- طب عرفني يا سيادة اللواء! ألا قولي صحيح أنت إزاي لواء ورجلك مقطوعة من يومها!

كان يحيى على علم أنه يتلاعب على أوتار نفسية العقرب، يستطيع أن يتلاعب بأي مخلوق مهما كانت كنيته. فقراءته لعيون ضحاياه قبل موتهم كشفت عنه الحجاب، وأصبح يرى ما تحويه الأنفس البشرية المعطنة بدنس الشيطان.

أشعل اللواء سمير عودًا رابعًا، وكان قد أزرف دمعة من عينيه، ثم أردف:

- كان وقتها مرتبي الميري ضعيف وبنتي بين الحياة والموت.. جالها مرض نادر بالمخ وحاولنا نعالجها أنا وأمها لحد ما بقى عندها أربع سنين والأمور خرجت عن السيطرة الدكاترة قالوا أنها لازم تعمل عملية برة مصر.. طلبت سلفة من الشغل محدش رضى يديني.. الدنيا ضاقت بيا وبنتي بتروح من بين إيديا لحد ما في يوم لقيت زميلي المقدم ممدوح داخل عليا وعرف كل القصة وهو اللي عرض عليا العرض ده.. كان على صلة مع أبوك عشان كان مدمن تربية طيور جوارح وكان بيروح لأبوك المزرعة ووقتها شاف عنده كذا قطعة آثار وأبهرته.. أبوك غواه وقاله أنه طالما كده كده أنت من الحكومة يبقى نسرق وإحنا تحت عينك وتبقى مننا فينا ووقتها أنا ضعفت ودخلت معاهم وأنا مش مقتنع في سبيل بس أن أنقذ بنتي.. كان كل همي أنقذ بنتي بس.. وحصل اللي حصل.

بقلب لم تمسه الرحمة، أطلق يحيى همهمة مُستهزئًا:

- هممم وعلى كده أنقذتها!

بصوت غلفه الحزن أجاب العقرب بأسى:

- ماتت في نفس اليوم الملعون ده.. خسرت رجلي وبنتي في وقت واحد.

- آه عشان كده بتنتقم لها وبتنتقم لصاحبك!
- قولت لك لو عايز أنتقم كنت قتلت أبوك وخلصت عليه يومها بس مش أنا اللي أعمل كده يا يحيى.
ثم أضاف بابتسامة أسى مُكملًا حديثه وهو ينظر إلى قدمه المبتورة:
- أما بقى بالنسبة أني إزاي لواء! فده كان حلمي اللي مات بسبب أبوك بس صدقني يا يحيى لو أبوك عاش ألف مرة هتمنى موته.
- طب فكك من جو الصعبانيات ده عشان مباكلش منه وخلصنا من فقرة الساحر بتاعتك دي وقولي فين القناع.
مسح اللواء دموعه وعاد إلى غموضة وصرامته المعتادة:
- مستعجل على إيه ده لسه العرض مبتداش.. القاتل عايز يقابلك بنفسه.. بس حابب أقولك سر أخير قبل ما يبدأ العرض.. السر اللي اكتشفته وكنت هتهرب بسببه.
وما إن قالها العقرب حتى تقدمت من خلفه خطوات من داخل الظلام. ثم أشعل عود ثقاب فوق رأسه من قبل شخص آخر، وسرعان ما عرفه يحيى من ملامحه. وقبل أن يعقّب، تحدث العقرب بطريقة مسرحية:
- أحب أقدم لك ابني اللي مخلفتوش الرائد علاء ممدوح الشرقاوي ابن صاحبي الوحيد الديب.
لم يدرك يحيى ما تناهى إلى مسامعه من قبل ذلك المختل، ولكن العجيب كانت ردّة فعله، فقد أطلق ضحكات هيستيرية أعقبها صراخ بغضب بالغ وهو يحاول أن يتملص من قيوده:
- ده أنتم عصابة بقى كده اتفهمت الحدوتة.. حضرة الضابط هو اللي مخطط لكل حاجة.. برافو حقيقي برافو.. بقولك إيييييه يا جدع أنت فكّني.. فكّني أحسن قسمًا بالله أخلص عليكم.
- للأسف يا يحيى مبقاش ينفع أنت مبقتش قادر حتى أنك تمشي!
حملق يحيى مذعورًا، وتسارعت دقات قلبه. شعر بألم يعتصر قدمه اليمنى، وسرعان ما حوّل نظراته إلى نصف جسده السفلي فوجد آخر شيء توقع أن يحدث!! لقد بُترت قدمه اليمنى.
وفجأه انطفأت أعواد الثقاب.
*****
الساعة 4 فجرًا..

ارتعشت لمبة تنجستين باهتة داخل هذا الكوخ الخشبي. رائحة الدماء تفوح من الأركان، وصوت جرس هاتف يضرب بقوة. كان يسمعه يدنو من بعيد. الرؤية مشوشة أمامه، رأسه تترنح، وخف ألم قدمه. جرس الهاتف لا يكف عن الصراخ. حرك رأسه بترنح، مستندًا على مقعد متحرك جلس عليه. دوار يجتاح عقله. دار بعينيه متفحصًا أرجاء الكوخ، فشعر بالأمان أنه في بيته، ولكنه لم يجد أثرًا لزوجته وأولاده. المقاعد خاوية. جرس الهاتف يضرب بعنف. طقطق رقبته وألقى نظرة أخيرة على قدمه المبتورة بحزن، ثم مد يده ناحية سماعة الهاتف فأسكت عويله. وما أن وضع السماعة على أذنه حتى تحدث الطرف الآخر:

- مقدرتش على العقرب يا يحيى!.. يا خسارة يا ألف خسارة.

بصوت واهن أجاب يحيى:

- أنت لعنة.. لعنة أتمنيت اقتلها بأيدي لو كنت دكر أظهر ووريني نفسك.

تعالت ضحكات صفوان عبر الهاتف، ثم عقّب قائلًا:

- لسه مصدق إني عايش يا يحيى! لسة مصدق الكدبه!؟ لسه قادرة تتلاعب بيك يا يحيى.. لسه قادرة تتحكم في حياتك.

- هي مين؟!

- أنا يا يحيى!

كان يحيى يظن أن الحديث أتى عبر الهاتف، ولكنه شعر بالصوت يدنو من خلفه. وما أن أدار مقعده المتحرك حتى اتسعت مقلتيه وشهق غير مصدق. لقد كانت هي.. بهيئتها الوقورة ووشاحها المنسدل على كتفيها، ترتدي قناع الصقر الذهبي. وما أن أزالته، ظهرت كنيزك انطلقت رحلته بقوة لتدمير كل التوقعات.. إنها زُفيدة صفوان الصباغ، القتيلة!

العرض الأخير..

بطن الحوت
(الجُثة الأخيرة)
بعد وفاة الحاج صابر المُحمدي بيوم..

دلفت زُفيدة صفوان من باب عيادة الطبيب عبد الدايم الحلواني، حمى شقيقها يحيى، مُرتدية الأسود. بدت عليها علامات الاضطراب والتوتر. لاحظتها نرمين السكرتيرة بالطبع، فهي تعرفها؛ فقد كانت زُفيدة من ضمن عملاء الطبيب عبد الدايم الذين اهتم بهم وخاضت معه رحلة علاجية دامت لعامين.

تلك الذكرى لم تُمحَ من ذاكرتها، ولم تستطع تخطيها: تلك الليلة المشؤومة التي تسللت فيها إلى غرفة أبيها خلسة بعدما تأكدت أن الجميع نيام. وجدته طريح الفراش غارقًا في ثباته، فرمت أسنانها بغضب وتملقته بلذة انتقامية وصورة أمها المذبوحة لا تفارق خيالها. عليها أن تأخذ بثأر أمها من ذلك الملعون. ذلك الفرعون يجب أن يموت وتنتهي مسيرته.

في لحظة مباغتة، شعر صفوان الصباغ بوجودها، وما أن فتح عينيه حتى أشهرت من وراء ظهرها سكينًا شقت به الهواء وهوت فوق قلبه. فشهق شهقة أخيرة مُحمَلقًا، لامحًا صورة زوجته في عيني زُفيدة مبتسمة، وفارقت الروح الجسد!

أفاقت زُفيدة على صوت نرمين تحدثها:

- د عبدالدايم في انتظارك اتفضلي.

أومأت زُفيدة برأسها مبتسمة بأسى، ثم تقدمت ناحية غرفة عبدالدايم بخطوات باهتة. رحب بها عبدالدايم، ولكن سرعان ما باغتته زُفيدة بخبر أصعقه:

- أنا المرة دي جاية لك عشان في مصيبة هتحصل.

خلع عبد الدايم نظارته الطبية ونظر إليها بتساؤل يشوبه الشك، فأستطردت حديثها:

- يحيى!
- ماله سي زفت؟!
- هيقتل داليا والعيال.
- أنت بتقولي إيه؟!!!
- اللي سمعته. أنا داليا كلمتني وحكت اللي حصل يوم عيد الميلاد، وأن د. يعقوب وعائلته ماتوا. لما شفت الخبر في

التلفزيون، شكيت في يحيى. مفيش غيره.. فاكر لما حكيت لي أنه قطع إيد السجّانة وأكلها؟

- أيوة يا زُفيدة، بس يحيى خف واخدنا سنين علاج.

- ده اللي وهمك به.

- يعني إيه؟!!

- يعني يحيى عمل كدة عشان يكسب ثقتك وتجوزوا بنتك يا دكتور.

- مستحيل!!

- داليا قالت لي أن حليم بيكلم نفسه وهو نايم وفي حالة غريبة. من ضمن خطرفته أنه يصرخ ويقول: "بابا.. بابا بياكل عيله صغيرة.. لا يا بابا متاكلهاش".

هب عبد الدايم من فوق مقعده منتفضًا قائلًا:

- كده يبقى لازم نلحق داليا والعيال قبل ما يعمل فيهم حاجة المجنون ده.

أشارت إليه زُفيدة بكفها أن يهدأ ويجلس، ثم أردفت:

- أهدأ يا دكتور.. يحيى أذكى من كده ولازم نكون أذكى منه ولو عرف أننا كشفناه هيفكر في ألف خطة بديلة.. فأقعد كده عشان نفكر.

- أهدى إيه!! بنتي وأحفادي هيموتوا تقوليلي أهدى!!.

تأملته زُفيدة بوجه جامد، ثم مدت يديها في حقيبتها الجلدية وأخرجت مجموعة من الأوراق مضى عليها الدهر، ثم وضعتها أمامه، فتساءل:

- ده إيه!!

- ده السر اللي هنلاعب به يحيى.. دي مذكرات بابا كتبها قبل ما يموت.. قصة أصحاب الكهف!.

- أصحاب إيه!!

- هفهمك كل حاجة، بس أوعدني تثق فيا.

تردد عبدالدايم في الإجابة، ثم تنهد زافرًا بنفاذ صبر، هازًا رأسه:

-أوعدك يا زُفيدة!

وأخذت زُفيدة تقص القصة الكاملة وما خططت إليه، وعبدالدايم يستمع مُنبهرًا متعجبًا من أن هذا الوجه الحنون الطيب يختبئ خلفه شيطان أرعن داهية.

****

داخل الكوخ..

هطل المطر فوق الأشجار بالخارج، والسماء يضربها سوط الرعد فيخلف عنه ومضات من البرق صاعقة للقلوب. بالداخل، وقفت رُفيدة أمام يحيى الواهن الجالس على مقعده المتحرك، ينظر إليها بوجه جامد. مضت ثوانٍ مرت كالدهر إلى أن قطعه يحيى بسؤال خالٍ من أي تعبيرات:

- طب إزاي؟!

ابتسمت رُفيدة وحركت كرسي ثم جلست عليه واضعة ساقًا فوق الأخرى، ممسكة بقناع الصقر الذهبي:

- عارف إيه مشكلتك يا يحيى! أنك مفكر نفسك أذكى من البشر كلهم ومحدش في ذكائك وأنت أغبى واحد شوفته في حياتي.

- عارفة أنتِ يا رُفيدة إيه أكتر تمنتها في حياتي؟!

- إيه يا أخويا يا بن أمي وأبويا؟!

- أني أقتلك وأخلص منك أنتِ كابوس يا رُفيدة كابوس وغلطتي أني مخلصتش منه من أول ما طلعت من الأحداث اللي رمتيني فيها بجريمة معملتهاش.

تقلصت قسمات رُفيدة وأصابتها غصة في حلقها فور ما تذكرت تلك الليلة التي خاضت رحلة علاج بسببها. أشاحت بوجهها حتى ثواري دموع أحتجزت بمحجريها، ثم عقبت قائلة:

- كان لازم يموت يا يحيى.. كان لازم يموت بعد اللي عمله في أمنا أكتر حد حبنا في الدنيا.. خياله صورله أنها بتخونه وموتها موتة بشعة وكله كان تحت عينك تنكر ده!!.. كان لازم أخلص منه بأي طريقة.. بس مكنش قصدي أن الأمور توصل لكده وأنت اللي تشيلها.. قدرك اللي ساقك للأوضة وقتها وساعتها مكنش عندي الجرأه أني أقول أنا اللي عملتها.

فرغ يحيى فاهه، وحملق غير مُصدقًا ما ألقي على مسامعه، ثم عقب قائلًا بصوت مُتحشرج:

- يعني أنتِ اللي عملتيها!!

- مستغرب لية يا يحيى.. شكلي ميديش أني قتالة قتلة!

أبتسم بسخرية ثم عقب قائلًا:

- كنت واثق أنه أنتِ .

- لسة المفاجأت جاية كتير يا يحيى.

- ضحيتي بيا وأهو كلب وراح مش كده!!

- صدقني كان غرضي أنقذك واتفقت مع عمي صابر الله يرحمه أنك تخرج.. بس لما زورتك يا يحيى شوفت في

عنيك غل وقسوة مشوفتهمش في بشر.. حسيت وقتها أن لو طلعتك كأني حكمت على نفسي بالإعدام.. وسبحان الله وكأن قدرك تبقى نسخة منه وتطلع زيه وتبقى سفاح مستخبي ورا اسم دكتور جراح لامع.

أطلق يحيى ضحكة سخرية ثم اردف:

- حارقك أوي أنا يا رُفيدة.. احمدي ربك أني مخلصتش عليكي من زمان.. بس أنها توصل إنك تسرقي ورث أبويا ليا فلا يا رُفيدة..

صرخت رُفيدة مُنتفضة من فوق كرسيها بغضب:

- أنا مسرقتش حاجة يا بني آدم. عمي اللي كتب كل حاجة باسمي ومكنتش أعرف ده حتى كنت ناسية خالص حكاية القناع. يوم ما قتلته أنا خدته وخبيته عشان الجريمة تبان بدافع السرقة. بس لولا وجودك الغبي ده مكنش حصل كل ده. فضولك دفعنا الثمن غالي أوي يا يحيى، أوي.

- عايزة إيه تاني يا رُفيدة؟! مش خدتي اللي عايزاه.. عايزة إيه تاني وليه عملتي كل ده!!

اقتربت منه رُفيدة بخطوات حازمة ثم استندت بيديها على مقعدة المتحرك ونظرت مباشرة في وجهه قائلة:

- كنت عايزة أنقذ ضحايا أبرياء كنت هتخلص عليهم بسبب خوفك وطمعك.. عايز تقتل مراتك وعيالك يا يحيى!!

ثم استطردت حديثها قائلة:

- طب بتقتل وتذبح وتأكل لحم جُثث بدون رحمة ماشي.. بس مش مراتك وعيالك يا نجس!!

- وانتِ مال أهلك أقتلهم أكلهم أذبحهم أقطعهم ملكيش دعوة دي حياتي أنا حر.

هنا دخل الطبيب عبدالدايم من باب الكوخ متحدثًا بصرامة:

- لا، مش حياتك لوحدك يا دكتور... دي حياة بنتي وأحفادي. ولو كنت غلطت زمان أني جوزتهالك، فالحمد لله أن ربنا بعت لي رُفيدة أصلح الغلطة دي دلوقتي قبل فوات الأوان.

حول يحيى نظراته بينهم في تعجب وانبهار عقبه ضحكة استهزاء ثم صفق بكلتا يديه محييًا إياهم:

- الله الله ده لعبة بقى.. برافو عليكي يا رُفيدة والله.. والله يا دكتور أنا مضربتكش على أيدك وقولتلك والنبي جوزني بنتك.

- بس ضحكت عليا يا يحيى.. ووهمتني أنك خفيت.
تعالت ضحكات يحيى مُمتزجة مع صوت الرعد يشق جدار السماء:
- وهو في سيكوباتي بيخف برضو؟!.. العامل الوراثي يا دكتور.. سفاح ابن سفاح.
- يا خسارة يا يحيى أنا كنت بعتبرك ابني.
- وأنا مكنتش بعتبرك أي حاجة إلا دكتور بريالة سهل يضحك عليه.. بس قوليلي يا بنت صفوان إزاي عرفتي تقلدي صوته وجثة مين اللي اتحطت مكانك!
اتجهت رُفيدة ناحية أحد أركان الغرفة، ثم أخرجت من أسفل طاولة خشبية متهاوية، ميكسر صوت بحجم متوسط خرجت منه عدة أسلاك متصلة بالهاتف، وأخرى خارجة من نافذة تطل على ما وراء الكوخ. كانت رُفيدة تحدثه من خلف الكوخ:
- أسهل حاجة الجثة يا يحيى.. ولاد حلال بيحبوك أوي، طلاب في كلية الطب خدمتهم كتير وكانوا عايزين يردوا لك الجميل، فسرقوا جثة من المشرحة بنفس المواصفات. والحقيقة هما نفس الناس اللي وفروا لي حمض الأسيد عشان أخفي ملامحها. ولو على بصمات أبوك، فأنا خدتها من أرقام الخزنة بتاعته محدش قرب لها من ساعة ما مات. كنت عايزاك تلف حوالين نفسك، أما الجهاز ده ساعدني كتير وسهل عليا. واللي ساعدني عشان ألاقيه هو...
وقبل أن تنطق بالاسم، تقدم الرائد علاء الشرقاوي بزيه العسكري يدب بحذائه الأسود على أرضية الكوخ الخشبية، حتى وقف بجانب الطبيب عبد الدايم:
- أنا يا يحيى!
- أهلًا هلًا بحضرة الضابط.. أيوه كده عشان الحلقة تكمل.. بقى بتعمل كل ده عشان تنتقم لأبوك يا راجل!.. ما كان أبسطها تقبض عليا وتلبسني القضية وتلف حبلِ المشنقة حوالين رقبتي ليه اللفه دي يا سيادة الرائد أنا تعبت لك يا أخي!
- عندك حق يا يحيى.. بس اللي متعرفهوش أني مكنتش اعرف أي حاجة لحد ما في يوم وقبل ما تقتل الست ماجي وبنتها جت لي رُفيدة لقيتها داخلة عليا المكتب.. اتخضيت ومكنتش مستوعب لحد ما فهمتني كل حاجة وكان القدر حليفي في القضية دي من بدايتها لحد ما ظهرت رُفيدة وفهمتني كل حاجة.. بس عارف يا أخي السؤال اللي محيرني

إيه؟!.. أنت ليه قتلت الباقي!.. ماجي وليليان، وهيثم، وعيسى عبيد، ومندي.. ليه نفسي أفهم!

امتعض يحيى وتقلصت قسماته ونظر إلى علاء بتحدٍ قائلًا:

- قتلت مين يا سيادة الرائد!.. أنا مقتلتش أي حد فيهم.

- يعني إيه!!دي نفس طريقة قتلك لضحاياك!

- وأنا بقولك أنا مقتلتش حد فيهم حتى أصحاب الكهف دول ماتوا من غير ما أجي جنبهم ما عدا سيادة اللواء العقرب.

صرخ علاء في يحيى غاضبًا، ممسكًا إياه من سترته المبللة بالدماء:

- أمال مين اللي قتلهم!! تاني هتلف وتدور يا روح أمك!!.. المرة دي قسمًا بالله هخلص عليك بإيدي، سامع؟ هخلص عليك وأريح الدنيا كلها من شرك.

اشتعل الاحتدام بينهما، فقد قبض يحيى على عنق علاء وأسقطه أرضًا، ثم جثم فوق صدره وأخذ يسدد له اللكمات. صرخ الطبيب عبد الدايم فيهم وحاول أن يفك الاشتباك، ولكنهم طحنوا بعضهم بعضًا. التقط علاء ساطورًا وجده مطروحًا أرضًا وعليه بقع دماء جافة، وما كاد يهوي به فوق رأس يحيى حتى صرخت فيهم رُفيدة أن يتوقفوا. ولكن، ليس صراخها هو ما أوقفهم، بل ما تفوهت به قد أسكت الكون برمته حتى صراخات السماء بالخارج:

- أنا اللي عملتها.

تحولت الأنظار إليها مُحملقة في غير تصديق، هب علاء واقفًا، بينما استند يحيى على مرفق مقعده واقفًا على قدم واحدة، بينما ازدرفت رُفيدة دمعة وهي تكمل حديثها قائلة:

- أنا اللي قتلتهم كلهم.

توقف الزمن وتجمدوا مشدوهين. بلع علاء ريقه وتساؤل مصدومًا:

- إزاي يا رُفيدة ده مكنش اتفقنا!؟

- ولا كان اتفاقي يا علاء إنهم يقتلوا عيالي!!

- إنتِ بتقولي إيه!!

- اللي سمعته.. كلهم اتفقوا أنهم يقتلوا عيالي عشان يورثوا من بعدي.. وساعتها قررت أنتقم منهم كلهم.

دارت الدنيا بالطبيب عبدالدايم وأستند بيديه على جدار الكوخ الخشبي مُردفًا بحزن وأسى:

- أنتِ كمان وهمتيني أنك خفيتي يا رُفيدة!!

- هما اللي اضطروني أعمل كده يا دكتور.. واللي يقتل مرة يقتل ألف مرة.

رُشقت سهام الخذلان في قلب علاء، وبخطوات مرتعشة تقدم ناحية رُفيدة، واقفًا قبالتها. نظرت في عينيه بعينين أغرورقتا بالدموع مردفة:

- سامحني.

- أسامحك!!.. أنا وثقت فيكِ!! تغدري بيا أنا يا رُفيدة.. أنا صدقتك! ليه الدم؟!

- الدم بالدم يا حضرة الضابط.. وكله إلا عيالي

- وفين عيالك دلوقتي!!إنتِ خسرتي كل حاجة.. كل حاجة يا رُفيدة.

- علاء.. أنت الأمل الوحيد ليا.. حقك رجع.. والقناع أهو معاك وكل اللي كان السبب في قتل أبوك ماتوا.

- ولا كنوز الدنيا تعوضني بالدم يا رُفيدة.

تغيرت قسمات رُفيدة من تعبيرات تنم عن أستجداء عاطفي إلى غل وحقد وغضب مستنير، فارمة أسنانها بغضب:

- بقولك إيه يا حضرة الضابط الشويتين دول مش هيأكلوا معايا.. الضمير والإنسانية وكل الصفات الحميدة تطبقها على نفسك وحياتك أنما انا عشت وسط شوية ثعابين كنت لازم أخلص منهم واحد وراء التاني عشان أنقذ واحدة وعيالها دفعت الثمن عيالي يا حضرة الضابط فاهم يعني إيه عيالي!.. وكله عشان كلب زي ده.

قالتها رُفيدة وهي تشير إلى يحيى الذي وقف على قدم واحدة مذهولًا، على وجهه ابتسامة يأس، ثم أردف معقبًا على حديث رُفيدة:

- مكفكيش أنك تلبسيني تهمة قتل أبويا عايزة تلبسيني جرائم مليش دخل فيها!!ملعوبة يا بنت الحرام.. أنا مكرهتش في الدنيا قدك.

خطت نحوه بدون أن تتفوه بأي كلمة إلى أن توقفت قبالته ثم قالت:

- وأنا محبتش في الدنيا قدك يا يحيى.

- أنت مقبوض عليكي يا رُفيدة.

قالها علاء من خلفها وهو يتقدم نحوها ويقوم بتقييد يديها، ولكن الغريب أن رُفيدة تملصت منه وهربت بعيدًا ملتقطه بذاك الساطور المطروح أرضًا وأشهرته أمامهم مهددة إياهم:

- اللي هيقرب مني هخلص عليه! أنتم سامعين ولا لا؟ أسأل أبوك الروحي سيادة اللواء، كان على علم بكل اللي بعمله. أنا مش هتحبس يا حضرة الضابط... القاتل جنبك أهو، أقبض عليه!

كان يحيى واقفًا لا حول له ولا قوة على شفتيه ابتسامة خِزي، بينما حدثها الطبيب عبد الدايم مهدئًا إياها:

- رُفيدة اللي أنتِ بتعمليه ده مش في مصلحتك.

- أخرس أنت خالص.. أنا هخرج من هنا يا حضرة الضابط على رجلي سامعني ولا لا!!هخرج من هنا على رجلي.

نظر إليها علاء بعيون جامدة لاعبًا على أوتار قلبها قائلًا:

- عيالك ماتوا يا رُفيدة ومش بس هما عيال أخوكي منير ومنير نفسه ماتوا كلهم.. صباح قتلتهم.. مبقاش في حاجة تبكي عليها خلاص لعبتك خسرانه يا رُفيدة.

لم تتمالك رُفيدة و أجشهت بالبكاء على فراق طفليها ثم أردفت من بين أنهيارها:

- طول عمري كنت بحلم بحياة هادئة حياة مفيهاش أي صراع بس للأسف الواقع كان قاسي أوي.. معرفش الحياة اللي ظلمتني ولا أنا اللي ظلمت نفسي.. بس كله مكتوب يا علاء.. عايزاك تسامحني يا يحيى ظلمتك كتير وظلمت كل اللي حواليا.. دكتور عبدالدايم بشكرك كنت ونعم الأب وساعدتني كتير بس للأسف غريزة القتل عمرها ما ماتت جوايا.. أنا هطلع على رجلي أنتم فاهمين ولا لا خلاص مبقاش في حاجة أخسرها.

سرعان ما تحولت نبرة الآسى والندم في أقل من ثانية إلى تلك النبرة التهديدية، فرُفيدة تتلون كالحرباء، لم يستطيع علاء أن يكظم غيظه، تحسس خصره لالتقاط مُسدسه، ولكنه وجد الحافظة فارغة، فأضطرب إلى أن أتته الإجابة من خلفه:

- بتدور على ده يا حضرة الضابط!!؟

التفت علاء دفعة واحدة فوجد يحيى شاهراً السلاح أمامه وفي عينيه لمعة مريبة، وكأن عيناه التمعتا بنشوة القتل، ثوانٍ مرت كالدهر وصمت لا يقطعه سوا صوت الرعد بالخارج إلى أن استطرد يحيى حديثه قائلًا:

- خد الدكتور وأخرج يا علاء بيه.. آن الأوان أحقق أمنية كان نفسي فيها من زمان.

تملقته زفيدة بتحد مطلقة ابتسامة سخرية، إلا أن داخلها

كان ترتعد وتبتلع رقيها في توجس:

- أه يا بن الكلب.. عليا النعمة لعرفك مين هو علاء الشرقاوي.

قالها علاء وهرع نحو يحيى، إلا أن الأخير أطلق رصاصة في منتصف قدم الرائد علاء، فطُرح أرضًا يتلوى صارخًا:

– أظنني عرفت مقامك دلوقتي يا علاء بيه... دكتووووور، سند البيه لحد بره وأخرج معاه، عشان في حساب هنا لازم يتصفى.

قالها يحيى وهو يتفحص رُفيدة بملامح جامدة. تجمد الطبيب عبد الدايم وشُلت حركته، إلا أن يحيى صرخ فيه بحزم:

- قولت لك شيله يا دكتور وأخرجوا برررررره.

اضطربت حركة الطبيب عبد الدايم وغمره العرق، وسرعان ما حمل الرائد علاء الذي تحامل على قدم واحدة متألمًا، سانِدًا على كتف الطبيب عبد الدايم. وقبل أن يخرج، تملقهم ثم بصق نحوهم ساخطًا على كل ما جنياه هذان الوغدان.

وما أن أغلق الباب، حتى ابتسم يحيى مكشرًا عن أنيابه نحو رُفيدة، مردفًا بصوت متعطش للدماء:

- أخيرًا يا رفُيدة هقتلك وهحقق أمنية أتمنتها من زمن.

وبنفس الحقد والغل وتلك الضغينة الأزلية التي زرعها الله في بني آدم، فجميعنا أبناء لقاتل واحد... قابيل،

أجابت رُفيدة وعلى شفتيها تلك الابتسامة الممسوسة بروح أبيهم:

– ده بعينك يا ابن صفوان.

وما أن أطلقتها رُفيدة حتى هرعت نحو يحيى شاهرة الساطور عاليًا، مُنطلقة لشق رأسه. ولكن سرعان ما أطلق يحيى رصاصته نحوها، فانحرفت الرصاصة عن جسد رُفيدة، واتخذت طريقها نحو أسطوانة غاز في أحد أركان الكوخ.

بالخارج وعلى بعد أمتار، قطنت سيارة سوداء، جثم بداخلها اللواء سمير غربال ودواليا وطفليها، فقد رأوا الطبيب عبد الدايم يهرول نحوهم مُنذرًا الرائد علاء. وما أن وصلوا إلى السيارة حتى دوى من خلفهم صوت انفجار ضخم.

انفجر الكوخ بأكمله وتحول إلى فتات، واشتعلت النيران بكل جزء فيه وذابت أجساد السفاحين وسط النيران. رج ذلك الانفجار السيارة، وصرخت داليا وطفليها مرتعدين وقد رأوا ارتفاع النيران من بعيد. أما علاء فقد جثم على ركبتيه

أرضًا بحسرة، فقد انتهت مسيرة آل صفوان، ودفعوا جميعهم الثمن. وتوقف المطر عن الهطول وكأن السماء فرحة تشفياً فيهم، لتزداد النيران سعيرًا بأجساد القتلى.

****

بعد شهر..

أصدر القاضي حكمه بتحويل صباح وإيداعها مستشفى المعمورة للأمراض النفسية والعقلية، إذ فقدت عقلها وأصابها الجنون بعد قتلها لستة أشخاص.

في الخامس والعشرين من مارس أغلق ملف القضية تمامًا، فقد مات السفاحان وأراحا الجميع من شرورهما. وقُيدت القضية كقضية بدون جريمة، فالضحية هي ذاتها القاتلة!

فصل أخير

لن ينتهي العبث

25 فبراير 2014م.. منتصف الليل

مرت ثلاث سنوات على زواج الرائد علاء الشرقاوي من داليا عبدالدايم الحلواني. عاشا حياة مستقرة خالية من أي شيء يعكر صفوهما. لقد عوضها علاء عن معاناتها السابقة مع السفاح المدعو يحيى صفوان.

عشقاه كل من حليم ومايان وكان بالنسبة إليهما نعم الأب والعوض والسند. أجل علاء وداليا قرار الإنجاب لأجل غير مسمى لتكريس حياتهما لحليم ومايان حتى يعوضاهما عما رأياه من أبيهما.

إلا أن علاء، من شدة حبه لداليا، أقنعها بقرار الإنجاب. وبالفعل، حملت داليا وأنجبت نوح منذ ستة أشهر. وهما الآن يعيشان حياة مستقرة مليئة بالبهجة والسعادة.

تقلبت داليا في فراشها متململة. لم تسمع صيحات نوح كالمعتاد! ظنت لوهلة أنه نائم، ولكن انتابتها نوبة قلق عارمة. فتحت عينيها وألقت نظرة على علاء الذي خلد إلى النوم بجوارها، ثم ذهبت إلى فراش نوح الذي يقع بجانب باب الغرفة. وما أن وصلت وألقت بصرها عما بداخله، حتى شقت صرختها جدران البيت.

استيقظ علاء مذعورًا على صراخ داليا، ظنًا منه أنها أصيبت بمكروه، ولكنه وجدها جاثمة على ركبتيها أرضًا، منهارة، ممسكة بيديها ورقة.

هرع علاء إليها محاولًا الاستفسار. وجد فراش نوح خاليًا. صرخ في داليا محاولًا معرفة ما حدث. مدت كفها إليه بالورقة. اختطفها منها وشرع في قراءتها:

" الصقر الأسود "

حملق علاء غير مُصدقًا وقبل أن يأخذ أي خطوة ضرب جرس هاتفة الجوال، وسرعان ما أجاب، فأتى الصوت من الجانب الأخر مُتحشرجًا:

- بقالي كتير مادوقتش لحم عيال صغيرة يا علاء.. لو عايز تلحق ابنك اللي من مراتي قدامك 10 دقائق ومعتقدتش أنك هتلحق.. البقاء لله في ابنك يا علاء.

صرخ علاء عبر الهاتف صرخة مدوية، وهو يستمع إلى صوت المنشار الكهربي مختلطًا ببكاء رضيعه.

****

أما بداخل هذا الكوخ الخشبي المُتفحم، وقف يحيى على قدم واحدة وبجسد ذائب عن أخره حتى اختفت ملامحه بعدما التهمته النيران، يتملق الطفل بنشوة عارمة، أصدرت بطنه ضجيجًا تطالب بوجبة آدمية دسمة، أزدرد لعابة لاعقًا فمه ثم تحرك ناحية الرضيع رابطًا على صلعته الناعمة برفق ثم أبتسم قائلًا:

- تعرف أنك الوحيد اللي هتكون صالح للأكل بعد جُثث كتير كانت غير صالحة.. متخافش يا حبيبي مش هتحس بأي حاجة.

وما أن قالها يحيى حتى أدار محرك المُنشار الكهربي واقفًا فوق جسد الرضيع الذي أخذ يتملقه ببراءة، فرفع المنشار عاليًا تاركًا إياه يهوي ثم...

عمَّ الظلام..

تَمت

5 سبتمبر 2024م

محمد جابر

انتهيت من قراءة كتاب:

جثث غير صالحة للأكل

ملاذ للنشر والتوزيع

قيم الكتاب

☆ ☆ ☆ ☆ ☆

شارك هذا الكتاب